

بسم الله الرحمن الرحيم

لاشك أن الكتابة عن الإمام وفكره ونهجه تشكل فتحاً، تماماً، كما كان الإمام نفسه. فالموضوعات التي يمكن معالجتها في هذا الإطار يغلب على معظمها طابع الجدة، ولهذا يفترض بالكتابة أن تتسم بالدقة والحذر في أن؛ فالمسائل التي أثارها الإمام، هي في الواقع، مفصلية، وطابعها تغييرى

والإمام الذي نظر إلى حركته وثورته، على أنها نهاية عصر وبداية آخر، سواء في نهضة المسلمين وعلى المستويات كافة، أو في ما يتعلق بآثارها على النظام الدولي، فإن الكتابة عنه (قدس سره) ستكون محكومة بأهمية دوره، فهو أمة، وفعله ضرورة، كانت تحتها التراجعات الفكرية والسياسية والحضارية، التي كانت تسجل يومياً في العالم الإسلامي.

من هنا، فالكتابة عن الإمام، ليست ترفاً، ولا تنظيراً عبثياً، وإنما هي فعل تربوي قبل كل شيء، فالإمام لم يكن يعيش حياته الخاصة، أو مرحلة محددة، وإنما كان يتطلع إلى مستقبل أمة، هي في الراهن غارقة بالتبعية والتخلف، يريد انهائها لتستعيد موقعها الذي أراده الله تعالى لها، وهو موقع خلافة الله على الأرض، ولتكون أيضاً شاهدة على الأمم الأخرى وحجة عليهم. وهذا الأفق، يملئ على المتصدين لمعالجة فكر الإمام أن يتنبهوا له، حتى لا يضيع رؤيته وفلسفته في مناهات الاطراء والمدح؛ فالإمام لا يريد ثناء ومدحاً، وهو يعلم أن سبقه قد حاز على الكثير منها، مع أنهم لم يقدموا بعض ما أنجز، فليكن همنا منصباً على مهمة قراءة وتحليل وبلورة رؤية الإمام التي تسهم بشكل أو بآخر في متابعة وظيفة تأهيل الأمة لتأخذ مكانها الذي يفترض بها أن تكون فيه من الأساس.. بهذه الروحانية نطمئن أن نهج الإمام لا يزال حياً، واننا ثابتون على خطه.

صحيح أن الإمام لم يضع رؤيته، الخاصة، وفي مختلف المناحي، في قالب منهجي، يسهل تحصيلها والاحاطة بها؛ بمعنى أنه لم يفرد لكل مسألة من المسائل التي تصدى لها بحثاً متكاملاً، يبرز فيه رؤيته، وبالتالي لا حاجة للباحثين إلا إلى تحليل وقراءة تلك الأبحاث، وإنما ما خلفه الإمام مجموعة كبيرة من المواقف العامة والمفصلة التي يحدد فيها رأيه بالكثير من القضايا الحيوية والحساسة على مختلف المستويات السياسية والفكرية والعملية، وهذا الأمر يحتم في البداية جمع مختلف التصريحات والمواقف مع المواد المكتوبة، في خطوة لحفظ هذه الثروة القيمة جداً، ثم يُعمل لوضعها في تصرف الباحثين والمفكرين، لتكون المادة الأصل، التي يعتمد عليها في مهمات الكتابة والتحليل، وعندها يمكن توقع صدور دراسات وأبحاث تعنى فقط بمهام صياغة وبلورة رؤيته الشاملة والمتكاملة.

ما تقدم، ليس كلاماً في فراغ، وإنما منتزع من معاناة شديدة. لقد حاولنا عند كتابة الموضوعات التي يحتويها هذا الكتاب، الذي بين أيديكم، الحصول على نصوص معينة تتناول قضايا ومسائل متنوعة، لكن للأسف، لم نعثر إلا على القليل القليل منها، مع محاولتنا لتحصيلها، وهذا يعني، أن شرطاً أساسياً من شروط البحث العلمي، والمعالجة الدقيقة لم يتحقق، فكان أن لجأنا إلى تأويلات، كُنّا في غنى عنها، بعض الأحيان، وفهمنا لنهج الإمام، أو إلى مواقف عايشناها، في أحيان أخرى، وذلك لسد النقص الحاصل في المادة، أي نصوص الإمام.

وقد أعاققت هذه المسألة التناول الشامل لمختلف الموضوعات التي تلح بالدراسة، ولهذا كانت تلك الموضوعات محدودة، من حيث الكم وحتى النوع، فقد كان بوجدنا المساهمة الفعلية والمثمرة في انجاز مشروع كبير، لاشك أن الكثير من المؤسسات تسعى إلى تحقيقه، وهو دراسة فكر الإمام واستخلاص نظريته في السياسة والتغيير، غير أن ما خرجنا منه في هذا الكتاب، هو مجرد محاولة متواضعة، لا بدّ ستساهم في إخراج أي مجهود مستقبلي إلى الوجود، ونعتذر من الإمام (قدس سره) ومن القراء لأننا لم نتمكن من تقديم الأفضل. إلا أن ذلك لا يمنع، مطلقاً، من أن نضع أنفسنا في خدمة هذا الفكر، ونعد القراء بأننا سنعيد تناول الكثير من الموضوعات حينما تتوفر الإمكانات المطلوبة على مستوى المادة، ولهذا نطالب وبالاحاح، من المؤسسات والدوائر المختصة، استعجال جمع نصوص الإمام المبعثرة لتكون في تصرف كل باحث يريد خدمة هذا الخط وهذه الأطروحة الإسلامية الأصيلة.

نسأل الله تعالى التوفيق والسداد.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

الفصل الأول: عاشوراء الحسين (عليه الصلاة والسلام) وثورة الإمام الخميني (ره)

شكلت تجربة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع) في السلطة عقب خلافة عثمان بن عفان اختباراً قياسيًّا لأطروحة النص التي عمل علي (ع) على تطبيقها بكامل ملامحها وامتداداتها، والأطروحة المشار إليها تعني تحكيم النص في حياة المسلمين والاجتهاد بمقتضى مديله. وهي بذلك تخالف أطروحة أخرى كانت قد بدأت

بالتشكل بعيد وفاة الرسول محمد (ص) وهي أطروحة الاجتهاد، والتي تعني جواز تحكيم الرأي على النص وتجاوزه إذا وجد المجتهد ما يبرر ذلك. وكان أمير المؤمنين (ع) قد سعى لضبط، بل للجم، أطروحة الاجتهاد ما أمكن وهو خارج السلطة في العهود التي سبقتها والحد من تطبيقاتها وبالتالي تنافرها مع النص، وقد نجح إلى حد ما في إبقائها محصورة في بعض الموارد، ورصيده في عملية الضبط كان نفس خصوصيته وموقعه بين المسلمين، فضلاً عن علمه الزاخر الذي لا يجروء أحد على حجته، إلا أن استلامه للسلطة أفقده مباشرة دوره السابق - المراقب والضابط من الخارج لحركة تطبيق النص - ووضع أطروحته التي أشرنا إليها، في ميدان التطبيق العملي، والتي كان يتطلب منها، اختزال مدة ربع قرن من عمر المسلمين وتجربتهم في ظل أطروحة الاجتهاد، وإعادة وصل حياة المسلمين في عهد الإمام علي (ع) بحياتهم في عهد الرسول محمد (ص).

بمعنى آخر، كانت تجربة تطبيق أطروحة النص تعني إيقاف العمل بكل الأحكام والتشريعات المستجدة التي عملت بها الأمة بأمر من الخلفاء، لأنها برأي أمير المؤمنين مخالفة للسنة الشريفة. لكن تحدي أطروحة الاجتهاد كانت تقف دونه عقبات ومحاذير كثيرة كان علي (ع) يدرك حجم مخاطرها ولهذا الأمر كان (ع) يحرص على عدم التصدي مباشرة للسلطة بعد مقتل الخليفة الثالث عثمان، غير أن إصرار الثوار حينذاك حال دون استمرار رفضه للخلافة الذي اعتبره الإمام حجة عليه يوم القيامة: "أما والذي فلق الحبة وبرأ النسمة؛ لولا حضور الحاضر وقيام الحجة بوجود الناصر، وما أخذ الله على العلماء أن لا يقاروا على كظة ظالم ولا سغب مظلوم، لألقيت حبلاً على غاربها ولسقيت آخرها بكأس أولها".

لقد ساهمت حالات الخروج المتتالية على الإمام في بلبله الرأي العام وافقاده الرؤية السليمة للأمور والتالي انعكاس الضوابط الشرعية إلى حد جعله يميل بسواده الأعظم إلى معسكر الخصوم.. لقد حملت كل معركة من معارك خصوم الإمام من الناكثين والقاسطين والمارقين، الرأي العام خطوة بالاتجاه المعاكس، إلى حد جعل الإمام يشعر بضغط الأحداث عليه بعد النهروان وهجمات معاوية المتتالية عليه.

ولم يغير استشهاد أمير المؤمنين من واقع ضياع الأمة شيئاً، فالناس بقيت منبهرة بأطروحة الاجتهاد التي كان يلوح بها معاوية بن أبي سفيان، والتي كانت تعني عند الناس إعادة وصل حياتهم بتجربة الخلفاء الذين سبقوا أمير المؤمنين علي (ع)، وقد أكدت تجربة الإمام الحسن (ع) القصيرة تلك الحقيقة، حيث نجح معاوية وبسهولة في اختراق بنية جيش الإمام واستمالة قطاعات واسعة ومختلفة منه، وبالتالي إسقاطه من دون مواجهة تذكر! وإقدام الإمام الحسن (ع) على توقيع صلح مع معاوية، لم يكن في الواقع سوى موقف أملت ظروف القاهرة جداً حتمت عليه أن يقدم السيئ على الأسوأ دون أن يشكل ذلك تراجعاً عن الأطروحة الأصيلة ولا مصالحة بين الأطروحتين لصعوبة تطابقهما، بل لاستحالة ذلك.

غير أن صلح الإمام الحسن (ع) مع معاوية لم ينقل الإمام إلى دور الضابط من خارج السلطة، وبعبارة أخرى لم يسترد بخطوته هذه نفس موقع الإمام علي (ع) قبيل استلامه للسلطة، لا بسبب رفضه للموقع وإنما لتعذر العودة إليه بعد أن أدى اعراض قطاعات واسعة من الرأي العام واستشهاد الإمام علي (ع) إلى خسارة هذا الموقع، إضافة إلى تغاير ظرفي معاوية والخلفاء الثلاثة. فالأول بات يشعر بعد علي (ع) وصلاح الحسن (ع) أنه في موقع المنتصر وبالتالي ليس كـ بمقدور أحد مراقبته وضبطه، فهو الشرعية بكل معانيها وأبعادها! وكل من يعارضه يعتبر خارجاً عليه وعليها بالضرورة.

هذا المأزق الذي ابتليت به أطروحة النص انتقل بعد استشهاد الإمام الحسن (ع) إلى الإمام الحسين (ع)، الذي وضعه موقعه ومأزق الأطروحة في انعدام مؤثراتها بالتوجيه والضبط من خارج السلطة، إلى تبني أحد خيارين بعد أن آلت الأمور في عهد يزيد إلى أسوأ ما يمكن تصوره من انحراف:

أ - خيار السكوت والاذعان للواقع المتردي مع ما يمكن أن تؤول إليه الشرعية بعد تمادي الأمويين في تطبيقهم لأطروحة الاجتهاد، والتي أقل ما يمكن احتمالها في ذلك انفصام الأحكام السلطانية عن روح الشريعة وبالتالي غلبة وطغيان نهج العمل بالرأي مع كل مآسيه ومخاطره.

فيزيد بن معاوية بنظر الإمام الحسين (ع) أحد إفرازات اطروحة الاجتهاد، وسلوكه السياسي والديني والعملي لن يكون بأفضل من الأصل الذي انتجه، وإنما سيشكل أشد أنواع التردّي والسقوط في مهاوي الانحراف والخروج عن النص وبالتالي تجربة الرسول محمد (ص).

ب - خيار المواجهة المباشرة، غير أن هذا الخيار يفترض أن يؤتي ثماره الطيبة لا أن يكون مجرد عمل جهادي أني ينتقي أثره ومفاعيله لحظة الاستشهاد، فحياة الحسين (ع) مكرسة بالأساس لحمل الأمانة وأطروحة النص - المحمدي الأصل - وتعميمها، وبالتالي تكريسها كأطروحة حاكمة في ضمير ولا وعي المسلمين قبل السلطة؛ وليس من السهل التخلي عن تلك الحياة إن لم يكن انتهاؤها يؤدي المراد منها في حال وجودها. ولهذا عقد الحسين (ع) العزم على إعادة نفث الروح في أطروحة النص التي جهد الأمويون و"الهمج" من الناس الذين تابعوهم بسذاجتهم المعهودة، من أجل طمسها وانهاؤها بالكامل لاتاحة الفرصة لأطروحة الاجتهاد فقط لكي تؤدي دورها في حاكمية المجتمع.

والمهمة العظيمة والخطيرة التي أراد الإمام انجازها تتطلب في الدرجة الأولى معطيات من واقع الحياة السياسية والدينية تساعده على انجازها، إلى جانب تحضيرات من قبل الإمام (ع) ترفع بالمواجهة إلى مستوى خطورة المرحلة، وتساهم بمؤثرية أدائها في رفع قيمة الفعل وحرارته بحيث يتغلب على درجة البرودة في حركة أطروحة النص، وتعمل بنفس تلك الحرارة على اذابة كل ما علق بالأطروحة من أوهام وافتراءات وأكاذيب حالت كلها دون تواصل الأمة معها.

لهذا انتظر الإمام تحرك بعض من تحسس مخاطر المرحلة، ليجعل من هذا التحرك منطلقاً لخطوته المنعطف، وبالفعل شكلت رسائل الاستغاثة والدعم والتأييد الكوفية حافزاً جديداً عجلت في حركة الإمام باتجاه المواجهة. إلا أن المرسلين لم يكونوا، باستثناء نخبة منهم، بمستوى قيمة المنعطف ومداليه، ولعلمهم، ولأسباب مختلفة، كانوا يريدون تسجيل حضورهم كمواطنين في عاصمة سابقة غاب بريقها بعد انتقال الثقل السياسي والمعنوي والاقتصادي إلى دمشق، وربما كانوا متأثرين عاطفياً بفعل تعبئة كتلة مخلصه من اتباع اطروحة النص، ولم تكن هذه التعبئة قد ارتقت إلى مستوى تجاوز المشاعر إلى القنوات الراسخة والإيمان العميق بالأطروحة.

ولذا لم يغير تراجع الكوفيين بعد مقتل رسول الإمام الحسين (ع) مسلم بن عقيل شيئاً وبقي الإمام على خياره الثاني، وهو المواجهة، لكنه حاول التعويض عن خسارة الساحة الكوفية والتحريك الشعبي المؤيد بحشد ما يمكنه من عناصر الإثارة والتحريك المطلوبة لأداء الوظيفة التاريخية المباركة، والتي يمكن اختصارها بمهمة إعادة الحياة إلى أطروحة النص التي ساهمت عوامل مختلفة في ابقائها على هامش الحياة السياسية والفكرية. ومن هنا يمكن فهم اصرار الإمام الحسين (ع) على اصطحاب أسرته وآل بيت الرسول محمد (ص) معه ما يحمل ذلك من احتمالات القتل الجماعي والمأساوي، وكان عدد من الأصحاب قد نصحوه بالعودة وعدم متابعة المسير، وآخرون أملوا منه اعفاء من معه، إلا أن الإمام (ع) أصرّ على موقفه، مما يكشف عن رغبة أكيدة وقناعة كانت تسيطر على فكره؛ مؤداها ضرورة بذل الدم والمهج وفي شكل مؤثر من الكبار والصغار، لأن أقل من ذلك قد لا يفي بالغرض المطلوب تحقيقه وهو أحياء أطروحة النص وبعث حركتها في الأمة.

وبالفعل استطاع الإمام (ع) أن يحقق غرضه بالكامل، حيث وفر كل العناصر المطلوبة لتحريك المشاعر وإيقاظ الضمائر فضلاً عن أحداث صدمة كبيرة تبعث الحياة في عروق المسلمين؛ فكان استشهاد الطفل الرضيع

وبالصورة التي قتل فيها، والقاسم والعباس والحسين (ع)، والعطش وسبي النساء وقطع الرأس وصراخ زينب (ع) وموقفها والكلمة، كذلك الإمام المريض علي بن الحسين (ع) وبقاء الجثث في العراء، من العناصر المطلوبة، لأن واقع الانحراف وطغيانه واستكانة الناس شبه الكاملة لا يزيلها مقتل إمام أو صرخة طفل، وإنما تقتض حدوث فاجعة ونكبة ومن أناس لا يزال لهم في قلوب الناس رصيد، على المستوى العاطفي في أقل تقدير، باعتبارهم من أبناء النبي (ص) وأهل بيته، ولاشك أن للنبي (ص) قدسية خاصة ليس من السهل التخفيف من قيمتها وأهميتها.

وسرعان ما بدأ دم الحسين وآل بيته يثمر في الأمة المنحدرة، فاستحال هذا الدم حرارة وتوهجاً قلّ نظيره، لا بل يستحيل وجود نظير له في التاريخ، وشرعت أوصال الأمة المقطعة وشرابين ابنائها المتصلبة في الحركة وبصورة فاقت المتصور، وعادت الأطروحة لتحتل مكانتها في عقول ونفوس المسلمين ويتطوع للدفاع عنها آلاف المجاهدين دون كلل أو تعب.

وشق نهر الدم الذي فجر الإمام الحسين وآل بيته (ع) معينه الأول طريقه، وأخذت الروافد تغذيه على امتداد التاريخ الإسلامي، فكان التوابون أول من رقدوا بدم يمتاز بحرقة ولوعة الندم على التقصير، وتابعهم المختار الثقفي، وزيد بن علي بن الحسين، ويحيى بن زيد، وإبراهيم بن عبد الله بن الحسن، ومحمد بن عبد الله صاحب النفس الزكية، وحسين بن علي صاحب فخ.. وغيرهم الذين أحوالوا نعيم الأمويين والعباسيين الدنيوي المزيف إلى جحيم. وهكذا أصبحت كربلاء مناسبة دائمة لتذكير أتباع أطروحة الاجتهاد بضرورة العودة إلى ينباع النص والسنة الشريفة، كما أنها أصبحت أمانة في أعناق أتباع أطروحة النص يتوجب عليهم حفظ مكتسباتها والإبقاء على حرارة الدم الذي سال في عاشوراء الحسين (ع). من هنا يمكن تفسير مختلف أساليب التحرك التي ابتكرت بعيد كربلاء؛ فالأئمة عليهم السلام بدءاً بالإمام زين العابدين (ع) ومروراً بمحمد بن علي الباقر (ع) وجعفر بن محمد الصادق (ع) حتى الإمام العسكري (ع) تبنا مسلماً واحداً عنوانه "بلورة أطروحة النص وحفظه"، والذي يعني بالتالي الإمساك بمكسب كربلاء الأول "إحياء أطروحة النص" واحاطته بالناية الفائقة والاستفادة من حرارة نصرته عند اتباعه وترجمة تلك الحرارة إلى وعي حقيقي لتلك الأطروحة، فكانت جامعة آل البيت (ع) التي جهدت لحفظ تراث الرسول (ص) وآل البيت عبر بث الرواة والفقهاء والمحدثين في كل مكان، وعبر تكثير عدد هؤلاء أيضاً، ولهذا حرص الأئمة (ع) على ابقاء تلك الوظيفة كسمة ثابتة في عملهم، من دون أن يسمحوا للسلطان بامتلاك مبررات التصفية الجسدية والمحاورة، لكنهم لم ينسوا الجانب الآخر من عمل أتباع الأطروحة، وهو الإبقاء على روح الثورة متأججة في صدور المؤمنين بأطروحة النص، فكانوا يدعمون في الخفاء الثورات والانتفاضات من دون أن يشعروا بالحكام بوجود هذا الدعم. مع ذلك لم يأمن الحكام جانب الأئمة (ع) فكانوا يلاحقونهم ويترصدونهم باستمرار حتى قيل إنه لم يمض منهم أحد إلا وكان قتيلاً.. وقد تطور الحكام في محاصرة الأئمة (ع) في نهايات العصر العباسي الأول عندما ابتكروا أسلوب الإقامة الجبرية بعناوين خادعة كما حصل مع الأئمة الأربعة الرضا والجواد والهادي والعسكري عليهم السلام.

إذاً جهد الأئمة ومؤيدو الأطروحة في حماية مكتسبات دماء الحسين (ع) وآل بيته ولم يتوانوا أبداً عن التذكير بقيمة ذلك الدم من خلال الفكر والثورة والاحتفالات السنوية والدائمة بالذكرى، وسبب الحرص على بقائها - المكتسبات - أنها لا يمكن تكرارها في التاريخ لخصوصيتها من جهة ولوقعها ومؤثريتها من جهة أخرى.

ولعلّ عدم رغبة الأئمة المعصومين عليهم السلام في استلام السلطة تعود إلى مخاوف يعتد بها عندهم من مخاطر إخفاق الدولة في التصدي لحركات المعارضة التي ستحاول التصدي لأطروحة النص والتي، وبحدية عدالتها، لن يباركها ويؤيدها إلا المؤمنون بصحتها وبضرورة الالتزام بها. ومنشأ التخوف يعود إلى الاحاطة الكاملة بالظروف التي انتجت حالات الخروج المتكررة على أمير المؤمنين علي (ع) - الجمل، صفين، النهروان - والتي

كان في مقدمتها تطبيع الأمة وألفتها لأطروحة الاجتهاد وعدم استعدادها للتضحية من أجل التغيير، والأمة في عهد علي (ع) كانت لاتزال قريبة العهد من الرسول (ص)، فكيف بها يعد مرور قرن أو قرنين؟! فحالها سيكون أصعب بكثير، وامكانية اثارها ضد اطروحة الاجتهاد أو تحييدها ستكون أكبر بكثير. لهذا السبب فضل الأئمة (ع) عدم تعريض أطروحة النص لهزة أخرى في السلطة لأن ذلك سيجعلها بحاجة ماسة إلى دم جديد كدم الحسين (ع) وآل بيته، وأتى لهم ذلك؟! من هنا كان الحرص الشديد على دم الحسين ومكتسبات ذلك الدم، حتى ظلت عاشوراء طيلة حياة الأئمة (ع) عنوان صحوة الأطروحة وبقظتها.

انطلاقاً مما تقدم بات بالإمكان فهم حتمية غيبة الإمام الحجة (عج) - في بدايات النصف الثاني من القرن الثالث الهجري - الغيبة الصغرى وبالتالي الغيبة الكبرى في مطلع الربع الثاني من القرن الرابع الهجري - 329 هـ - إذ ان محذور إقامة سلطة تحكمها أطروحة النص في عهود الأئمة المعصومين قبل الإمام الحجة (ع) كانت هي نفسها لاتزال قائمة في بدايات حياته، والتي كانت تحتاج إلى تحولات كبيرة على مستوى البنية الفكرية والسياسية والاجتماعية للأمة، وهذه قد تتطلب عهوداً وحقباً زمنية طويلة تكون كافية لإحداث تغييرات تزيل من أمامها كل العوائق والصعوبات التي سبق وانتصبت في عهد الإمام علي (ع) والأئمة العشرة من بعده، ولهذا كانت وظيفة المراجع الفقهاء الذين تصدوا للفتوى بعد غيبة الإمام (عج) هي نفسها وظيفة الأئمة المعصومين لتشابه الظروف وصعوبة إحداث تغييرات كبيرة في تلك العهود، الأمر الذي يفسر تقليد هؤلاء (قدس الله أسرارهم) الدقيق لأساليب الأئمة حتى في التقية، لكن بقيت عاشوراء ووقعة كربلاء ومقتل الإمام الحسين (ع) مناسبة دائمة تعيش في روح ونفوس المؤمنين بأطروحة النص، فكانت برأي هؤلاء المراجع كافية لإبقاء تلك الروح في الأطروحة التي جانب جهودهم المضنية إلى بذلها لبلورة خط المرجعية وتطوير أصول وعلم الفقه بما يخدم أطروحة النص وعلى أساسها، وبالتحديد بدايات القرن الرابع عشر، غير أن تطورات كبيرة حصلت في القرنين الأخيرين الثالث عشر الهجري والرابع عشر الهجري، أدت إلى إحداث تحولات حادة في البنية الفكرية والسياسية للأمة، وتحديدًا حين سقطت آخر دولة إسلامية، الخلافة العثمانية، ودخلت الأمة الإسلامية في عصر الغربة عن الإسلام، وبذلت جهود مضنية من قبل الغرب لطمس هوية المسلمين وملاحمهم الحضارية، وقد نجح هؤلاء إلى حد بعيد، ولم تعد دائرة الصراع بين أطروحتين كما في السابق، وإنما عمل على تنحية الاثنتين معاً، لتحل محلها الحضارة الغربية الملحدة، الأمر الذي اقتضى وحدة جهاد الأطروحتين معاً للقضاء على الحضارة الوافدة، وبالتالي إعادة الإسلام من جديد إلى الحياة، فخفت بنتيجته المعاناة المشتركة والحساسية المفرطة التي كانت متحكمة في علاقات الأطروحتين، وبات الطريق مفتوحاً للانتلاف والتعاون، فكان لابد من أن تنصب الجهود لتحكيم إحدى الأطروحتين كخطوة ضرورية لبدء منها لإعادة الاعتبار للأمة والإسلام، وهذا يعني أن الطريق باتت ممهدة لتحكيم أطروحة النص دون أدنى اعتراض من حيث المبدأ من أصحاب ودعاة الأطروحة الثانية، الأمر الذي حفز الإمام الخميني (قدس سره) للمبادرة إلى الثورة ووضع حد لجملة محاذير كانت مبررة تاريخياً وشرعياً حالت، في السابق، دون نهضة الأئمة المعصومين، بدءاً من الإمام زين العابدين (ع) حتى الإمام العسكري (ع) وبررت غيبة الإمام الحجة (عج) وكذلك صمت المراجع والفقهاء طيلة اثني عشر قرناً.

وجملة المخاوف التي حالت دون ثورات سابقة، وفي مقدمتها ضرب أطروحة النص، أصبحت بحكم المنتهية، إذ ان معظم تلك المخاوف كانت ذاتية، بمعنى أنها وليد صراع الأطروحتين الإسلاميتين اللتين اقصيتا في مطلع هذا القرن عن السلطة، وبالتالي فإن الطريق باتت ممهدة لنهضة الإمام الحجة (عج) - والله أعلم - فكان لابد من تصدي المرجعية الرشيدة لقيادة ساحة المسلمين علّها تقوم بخطوة التحضير النفسي والعملية لظهور الإمام الحجة (عج).

وإخفاق الدولة الإسلامية - لا سمح الله - المحكومة بأطروحة النص، لن يكون له نفس الأثر السلبي كما كان في عهد أمير المؤمنين (ع)، وبالتالي لن يحتاج إلى حسين جديد ودم "كربلائي" آخر يعيد الروح للأطروحة، وإن كانت الأطروحة ستتأثر سلباً، وهو الذي يحفز أنصار "أطروحة النص" وكذلك "أنصار أطروحة الاجتهاد"

للدفاع عن الأطروحة الحاكمة بكل ما أوتوا من قوة، لأن سقوطها سيقال من فرص النهوض مجدداً، وهذا ما لا يرضى به أحد على الإطلاق.

فالإسلام عاد غريباً كما بدأ، والأطروحة التي تتقدم لإزالة عصر الغربة ستدعم نصها وخصوصيتها وستكون أصالتها وعدمها مرتبطتين بمقدرتها على التصدي السليم لمشاكل الأمة المستجدة من جهة، وحفاظها على استقلالها في مواجهة القوى الغربية عن فكر وحضارة الأمة. ولعل ضمانته الحفاظ على مكسب الإحياء للأطروحة في العصر الحاضر هو أنه سيتحقق انجاز التمهيد والاعداد النفسي والروحي لعصر الظهور.

ومما تقدم يصبح بالإمكان إدراك مغزى كلمة الإمام الخميني (قدس سره) عندما قال: "إن كل ما لدينا هو من عاشوراء". فسياق المعالجة يدعم، بما لا يدع مجالاً للشك حقيقة كون عاشوراء هي الممون الروحي والتاريخي والثوري لأطروحة النص التي بقيت تسقى من دم كربلاء وروافدها طيلة قرون مديدة إلى أن هبَّ الله لها مجددها في القرن الحالي الإمام الخميني (قده) الذي أوصلها إلى السلطة بعد رعاية وعناية فائقتين.

والاحتفال بعاشوراء بعد الثورة يخدم بشكل مباشر خصوصية الثورة ويذكر بمضمونها التاريخي من جهة، ويحمي الثورة الكرلائية من عوارض الزمن فيما لو تعرضت الثورة الإسلامية الإيرانية - حالياً - لخطر السقوط - لا سمح الله -، حيث تبقى عاشوراء على طول الخط موجهة لروح الثورة والمناعة من إماتة أطروحة النص حتى ظهور الإمام الحجة (عج). والحمد لله رب العالمين.

الفصل الثاني: الاجتهاد المتنوع في الدولة الإسلامية في فكر الإمام الخميني(ره)

كيف يطرح الإسلام مسألة التنوع في الرأي السياسي في داخل الدولة الإسلامية، وهل يملك أصحاب الآراء المتنوعة الحرية في الإعلان عنها، وهل يسمح ولي الأمر للساحة الجماهيرية العامة في الأمة أن تأخذ حريتها في التحرك على أساس التزام هذا الرأي أو ذاك، ليجتهد الناس في الانفتاح على الاجتهادات المختلفة في القضايا العامة، ليكون لكل اجتهاد فريق يؤيده ويلتزم به، وما هي الضوابط العملية التي تحفظ الأمة من الاهتزاز أمام هذا الواقع المتحرك؟

هذه علامة استفهام لابد من التوفر على الاجابة عليها، من خلال فكر الإمام (رض) فيما نريد أن نستوحيه من نظريته الإسلامية في مسألة تنوع الاجتهادات السياسية في حركة الدولة الإسلامية من خلال حركة الولي الفقيه في إدارة الأمر في هذا المجال.

وإننا إذ ننير هذه المسألة أمام الباحثين الإسلاميين، فإننا نستهدف توجيه الفكر إلى مسألة حرية الرأي في داخل الدولة الإسلامية أو في داخل المجتمع الإسلامي، باعتبارها من المسائل المهمة التي تنفتح على العنوان الكبير في مفهوم الإسلام لقضية الحرية.

فقد يطرح البعض المسألة على أساس مسؤولية "ولي الأمر" في نطاق الدولة، في طرح الرأي الإسلامي الاجتهادي في كل المسائل المتحركة في الواقع، فيما يتفرع عنها من المفردات المتصلة بالشؤون الاقتصادية أو الأمنية أو السياسية أو العسكرية.. ثم تكون المسألة في عهدة الأمة من خلال قواعدها المتقنة أو العاملة، لتلتزم بهذا الرأي في خط الطاعة للولي، انسجاماً مع الأمر الإلهي في طاعة ولي الأمر الذي يمثل رأيه فيما يأمر به أو ينهى عنه قول الله والرسول، باعتبار أنه الحجة الشرعية على ذلك، فيكون قضاؤه وقراره قضاء الله ورسوله وقرارهما فيندرج تحت قوله تعالى: {وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم}..

ويرى هذا البعض أن اتاحة الفرصة لأصحاب الرأي الآخر في اعلانه وفي الدعوة إليه، قد يؤدي إلى لون من ألوان الارباك للخط الفكري في الدولة وإلى اهتزاز داخلي في القاعدة الشعبية التي تتوزع بين الانتماء إلى الفكر الآخر الذي يتبناه هذا المجتهد أو ذاك، الأمر الذي قد يترك تأثيراً سلبياً على النظام العام الذي يحفظ قوة الأمة واستمرارها في ضوء ذلك، فلا بد من وحدة الرأي في خط القيادة، ووحدة الأمة في الانتماء والالتزام والطاعة على أساس ذلك.

الاجتهاد المعارض لولي الأمر

ويطرح بعض آخر رأياً آخر فيؤكد أن هناك مسألتين تختلفان في طبيعتهما، كما تختلفان في نتائجهما، فهناك الاجتهاد الذي يخالف القرار الرسمي للدولة فيكون معارضاً لولي الأمر ويتحول - بالتالي - إلى حركة في اتجاه المعارضة الحركية التي تثير الغبار في وجه القرار

الشرعي، مما قد يؤدي إلى لون من الوان التمرد الذي يقود إلى حالة الاهتزاز السياسي.. وهناك الاجتهاد الذي يتحرك في الساحة الفكرية أو السياسية في مواجهة الاجتهاد الآخر الذي يتبناه فريق آخر من الأمة، فيما يراد منه الوصول إلى نتيجة حاسمة في اكتشاف المصلحة الأهم والأقوى في القضايا المطروحة في ساحة البحث ليستهدي بها الولي الفقيه في اتخاذ قراراته أو للتعرف على ما هو الخطأ والصواب فيما اتخذ من القرارات، ليؤكد ما في حالة اكتشاف الصواب، أو ليغيرها في حالة اكتشاف الخطأ. فليس في الأمر أي تمرد أو عصيان، بل كل ما في الأمر أن هناك حركة في اتجاه تحقيق الرشد الفكري أو السياسي للقيادة وللأمة في إصدار القرار أو في التصويت عليه فيما يرجع الأمر إليها في طبيعة القرار.

وفي ضوء ذلك فلا مشكلة في حركة التنوع الاجتهادي في الأمة، بل ربما كان في ذلك نوع من الغنى الفكري الذي يتيح للمسألة أن تأخذ مواقعها في دائرة التطبيق في أكثر من احتمال حيث تتسع دائرة الاختيار في احتمالات المسألة لمن يملك أمر الاختيار في ذلك.

وقد نستطيع أن نستجيب في مسألة الحرية حتى للرأي المعارض للقرار الرسمي، فان هناك فرقاً بين فكر مضاد بطرحه المفكرون على أساس الشغب الذي يعمل على إرباك الواقع من موقع الاهتزاز لا على أساس الترشيح والتسديد من خلال التنبيه، وبين فكر معارض يطرحه المعارضون على أساس إثارة المسألة لدى المعنيين في الاتجاه الآخر، لأن هناك خللاً يراد لهم أن يكتشفوه، أو لأن هناك خطأ لا بد أن يصحوه، فلا مانع من الانفتاح على المعارضة في الخط الثاني، في الوقت الذي نتحفظ فيه في الخط الأول، تبعاً لما هي المصلحة العليا في الواقع. ولعل الذين يسجلون تحفظاتهم على المعارضة الفكرية في داخل الدولة الشرعية يتصورون أن الإسلام يغلق على المفكرين أبواب الاعتراض على فكر الدولة حتى في اكتشاف الخطأ لديهم في ذلك كله.

وهذا أمر خاطئ - من حيث المبدأ - لأن الدولة التي تقوم على قاعدة الحق في مواجهة الباطل لا بد أن تبحث قيادتها عن مواقع الحق حتى في مستوى الاحتمال، عندما تختزن في داخلها الفكرة التي ترفض العصمة للقيادة حتى ولو كانت بدرجة الولي الفقيه.

إن هناك حديثاً عن الطاعة العامة للدولة. وهذا حق لا ريب فيه، لأن إفساح المجال للتمرد من خلال الاعتراض على طبيعة القرار قد يسيء إلى النظام العام إذا كانت هناك فرصة معينة لكل معارض أن يأخذ حريته في عدم الطاعة للأمور التي لا يقنع بها.. ولكن لا مانع من الاعتراض الذي يرشد القيادة إلى التحفظات التي تسجلها الأمة أو بعض أفرادها على القرار على طريقة نقد ثم ناقش.

الأنصاري) يسأل والإمام يجيب

وقد أثار بعض الفضلاء هذه المسألة مع الإمام في أسلوب اعتراضي على طريقته في رعايته الاختلافات السياسية ونحوها فيما تتمثل فيه الخطوط المتنوعة للقياديين في خط الدولة وللمفكرين في خط الفكرة التي تتبناها القيادات في خلافاتهم الفكرية، فقد كان الإمام(رحمه الله) قريباً إلى المجتهدين المختلفين رفقاً بهم، مما يجعل كل واحد منهم يشعر بأن الإمام يرعى اجتهاده وفكره ويؤكد خطه، الأمر الذي يفسح المجال للكثير من القلق في تأكيد المواقف وذلك من خلال المعنى الإيجابي في موافقة الإمام على هذا الخط أو ذاك، فيما يتمثل فيها من محور سياسي أو اقتصادي مميز، وهذا ما عبر عنه الشيخ محمد علي الأنصاري في رسالته للإمام الخميني (قده) حول هذا الموضوع.

قال (ما ترجمته):منذ انتصار الثورة الإسلامية وإلى الآن وأنا في خدمتكم حيث شهدت ظهور وأقول خطوط فكرية وسياسية وعقائدية كثيرة ومتنوعة، وبحمد الله كثير من الخطوط المنحرفة والاحادية تلاشت. ولكن الآن هناك جناحان في الجمهورية الإسلامية، وكلا الجناحين إسلامي وموید ومدافع عن الثورة، وكلا الجناحين مؤيدون ومريدون ولهما شخصيات معتبرة.

ونحن نشهد الآن في الساحة صراعاً حقيقياً بين الجناحين على جميع المستويات السياسية والاجتماعية والاقتصادية، قد برز للعيان.وفي الحقيقة أن هناك مواجهة بين الطرفين أرادوا أم أبوا، وهي آخذة بالازدياد، وقد أخذت تبرز بعض الأخطار والتبعات لهذا التضاد وتترك تأثيرها الظاهر على البلاد.

والأمر الذي يزيدي حيرة أن هذا الخلاف وصل إلى حد أن كل طرف لا يرضى بوجهة نظر الطرف الآخر في كافة المجالات، ويرى كل طرف أن عمل الطرف الثاني لا يخدم المصلحة العامة.. وبهذه الحجة أخذت المواجهة بين الطرفين الطابع الحاد في انتخابات مجلس الشورى الإسلامي هذا من جهة، ومن جهة أخرى فان كلا الطرفين يدعي الدفاع عن المستضعفين والمحرومين والعداء للشرق والغرب مما يقرب من وجهات نظريهما إلى الحد الذي لا يبقى شيء اسمه الاختلاف بين الطرفين.. ويزيد على ذلك أن لكل من الطرفين ارتباطاً طويلاً وتاريخياً بسماحتكم وقد نهلوا من الفيض العلمي والأخلاقي والسياسي لحضرتكم ولكل منهما دور في نجاح الثورة الإسلامية.

ولعل الأكثر من ذلك أن الطرفين يحظيان بتأييدكم، ولم نر حتى الآن تأييداً لطرف منهما، بل نلاحظ أنكم قد تؤيدون طرفاً في مناسبة ثم تؤيدون طرفاً آخر في مناسبة أخرى.

والشواهد على ذلك كثيرة، مثلاً انكم دافعتم عن افراد جماعة المدرسين أو مؤسسة الإعلام الإسلامي، في الوقت الذي دافعتم فيه عن افراد مكتب الإعلام الإسلامي، وإذا دافعتم عن شورى المحافظة على الدستور فإنكم دافعتم عن شورى تشخيص المصلحة.

ويخلص الشيخ الأنصاري - في نهاية رسالته - إلى القول: إن هذه المسألة من الحوادث الواقعة، وهي محل ابتلاء الكثير من المؤمنين الثوريين وطلاب الحوزة والجامعات، وحلها لن يكون إلا بإبداء نظركم وتوجيهاتكم التي لا نقبل غيرها.

ونلاحظ أن مثل هذه الحيرة الفكرية والشعورية التي عبرت عنها هذه الرسالة تحمل أكثر من دلالة على الذهنية العامة الموجودة لدى الكثيرين من المؤمنين الثوريين وطلاب الحوزة والجامعات في رفضها للرأي المتنوع المتحرك بحرية تحت نظر القيادة التي تمنح الرعاية لحركة الصراع في ساحته، من دون أن تتدخل بقوة لتحسم المسألة لحساب أحد الفريقين، إذا كان الحق في جانبه - من خلال وجهة نظرها - أو لحساب الرأي الثالث إذا كان الفريقان على خطأ.. وذلك لأن القضية في رأي هؤلاء تتحرك بين الحق والباطل، أو بين باطلين، فكيف تسمح القيادة للباطل أن يبقى غامضاً في حدود المسألة، أو يتحرك بحرية في ساحة الصراع من دون حسم قوي من قبل القيادة الأمنية على الحق من حيث المبدأ والتفاصيل؟

ولكن للإمام رأياً آخر يحرك القضية بعيداً عن الاتجاه السائد في الأوساط الإسلامية

التقليدية. فكيف نفهم هذا الرأي؟

رأي الإمام في اختلاف الفقهاء وإجماعهم

لنقرأ ترجمة جواب الإمام (رضوان الله عليه) على رسالة الشيخ الأنصاري:

إني انصحك وأمثالك الكثيرين وانكركم بما يلي:

إن كتب فقهاء الإسلام العظام مملوءة باختلاف وجهات النظر، وكل منهم له رأي في المجالات العسكرية والثقافية والسياسية والاقتصادية والعبادية.

ففي بعض المسائل هناك اجماع للفقهاء، وحتى في المسائل التي فيها اجماع هناك قول أو أقوال تخالف الإجماع. وفي الماضي فإن هذه الاختلافات كتبت باللغة العربية مما جعل اطلاع أكثر الناس عليها قليلاً، والذي يعلم بها فإنه لا يتابع إلا المسائل التي تهمة.

والآن هل نستطيع أن نتصور أن هؤلاء الفقهاء عندما اختلفت وجهات نظرهم كانوا يعملون خلافاً لما يريد الله سبحانه وتعالى وخلافاً للدين الإسلامي وللحق؟! أبداً!! واليوم، والحمد لله، فإن كلام الفقهاء وأصحاب النظر يبيت في الراديو والتلفزيون أو يكتب في الصحف، لأن الناس يحتاجون إليه في حياتهم العملية.

مثلاً، في مسألة تحديد الملكية وفي تقسيم الأراضي، وفي الثروات العامة والإنفاق وفي المسائل المعقدة للأموال والعملة الصعبة في البنوك، وفي الأمور المالية والتجارة الداخلية والخارجية والمزارعة والمضاربة والإجارة والرهن واقامة الحدود والديات والقوانين المدنية والمسائل الثقافية والمسائل الفنية أمثال الرسم والتصوير والنحت والموسيقى والسينما والمسرح والخط وغيره، وفي حفظ الطبيعة سلامة من التلوث ومنع قطع الأشجار، حتى الموجودة في البيوت والممتلكات الخاصة، وفي مسائل الأطعمة والألبسة والأشربة، وفي مسألة تحديد النسل في حالات الضرورة أو تعيين فواصل بين وليد وآخر، وفي حل المشاكل الطبية وأمثال زرع أعضاء جسم إنسان لإنسان آخر، وفي مسألة المعادن داخل طبقات الأرض وفوقها وفي تغيير موضوعات الحلال والحرام وتوسيع وتضييق دائرة بعض الأحكام في الأزمنة والأمكنة المختلفة، وفي المسائل الحقوقية حسب نظر الشريعة الإسلامية، ودور المرأة في المجتمع الإسلامي، وحدود حرية الفرد داخل المجتمع، والتعامل مع الكفار والمشركيين والأفكار الالتقاطية والمعسكرات التابعة لها، وكيفية انجاز الفرائض في الرحلات الهوائية والفضائية. والأهم من ذلك حاكمية ولاية الفقيه في الحكومة والمجتمع، وكل هذه المسائل جزء من آلاف المسائل التي هي محل ابتلاء الناس والحكومة، والتي كانت مورد بحث الفقهاء واختلاف وجهات نظرهم.

وإذا كانت بعض المسائل في ذلك الوقت غير مطروحة أو ليس لها موضوع فيجب على فقهاء اليوم أن يفكروا بها.

لذا ففي الحكومة الإسلامية يجب أن يكون باب الاجتهاد مفتوحاً دائماً، لأن طبيعة الثورة تقتضي أن تطرح وجهات النظر الفقهية في مختلف المجالات، ولا يحق لأحد الحيلولة دون ذلك، ولكن بشرط أن يكون الطرح بصورة صحيحة على الأمور في نطاق الحكومة والمجتمع من أجل بناء مجتمع إسلامي يمكنه أن يخطط لصالح المسلمين ويدعو إلى الوحدة والاتحاد.

ومن هنا، فإن الاجتهاد في الاصطلاح الحوزوي وحده لا يكفي، وإذا كان هناك شخص اعلم في علوم الحوزة ولكن لا يستطيع تشخيص المصلحة العامة أو لا يستطيع تشخيص الأفراد الصالح ومن الطالح، والمفيد من غير المفيد، وبشكل عام فانه فاقد التشخيص في المجالات السياسية والاجتماعية وفاقد القدرة في اتخاذ القرار؛ إن هذا الشخص لا يعتبر مجتهداً في المسائل الحكومية والاجتماعية ولا يستطيع أن يمسك زمام أمور المجتمع بيده.

إن الاختلاف في المسائل المذكورة آنفاً وفي التصميم والتخطيط إذا كان منحصرأ في وجهات النظر فانه لا يهدد الثورة وليس فيه خطر.. وإذا كان الاختلاف أساسياً فانه يؤدي إلى زعزعة النظام. إن الاختلاف في وجهات النظر بين مختلف الأجنحة هو اختلاف سياسي لأن الجميع يشتركون في أصول وعقائد مشتركة.

تأملات في رسالة الإمام

إننا نلاحظ في هذه الأطروحة الجوابية، أن المسألة هي ضرورة افساح المجال للاجتهادات المتنوعة أن تملك حريتها في ساحة الفكر الإسلامي على مستوى الساحة الفقهية، وعلى مستوى الساحة السياسية، أو فيما تختلف فيه المسألة السياسية أو الفقهية في قضايا الحكم من حيث المبدأ ومن حيث التفاصيل، لأن هناك الكثير من الأمور التي لا بد من أن تطرح للتفكير من قبل أصحاب الاختصاص ليتوفر الناس على الاطلاع على هذه المسائل فيما استحدثته التطورات العامة للحياة من المسائل التي يبتلي بها الناس في أوضاعهم الخاصة مما لا عهد للفقهاء به، لأنهم لم يتوفروا على ادارة الرأي فيه، الأمر الذي قد يبعدهم عن تصور خصوصياته بدقة من حيث الموضوع والحكم. فإذا فرضت الدولة، أو قرر ولي الأمر رأياً محدوداً بالطريقة الرسمية، ومنعت الناس من مواجهة القضايا بطريقة علمية دقيقة، بشكل شمولي واسع، فإن من الممكن أن لا يصل الواقع الإسلامي إلى نظرة شاملة للمسألة، بينما تتحرك حرية الفكر الاجتهادي في إعطاء الفكر المتنوع لتكفل للفقه تطوره في حركة الاجتهاد، كما تمنح القيادات المستقبلية في عملية النمو العلمي الإمكانيات الواسعة للنظرة الدقيقة الصائبة من خلال المفردات المتنوعة التي تحقق للفكر ثراءً واسعاً في الموضوع. (إن طبيعة الحكومة الإسلامية تفرض أن يكون باب الاجتهاد مفتوحاً دائماً، كما أن طبيعة الثورة تقتضي أن تطرح وجهات النظر الفقهية في مختلف المجالات، ولا يحق لأحد الحيلولة دون ذلك).

وفي ضوء ذلك لا يكون التنوع مصدر ضعف واهتزاز، بل مصدر قوة وثبات، بشرط أن يتحرك الخط الاجتهادي في الحدود المرسومة له في دائرة الفكر بعيداً عن النزوات الذاتية والنوازع المعقدة، التي تتخذ من الخلاف أساساً للفضى والتخريب، ولإثارة المشاكل للدولة الإسلامية. إن هناك فرقاً بين أن تدع الرأي الفقهي أو السياسي لإغناء التجربة الفكرية فيما تحتاجه الأمة من تجارب الفكر في دائرة الحرية التي تتسع لك ولغيرك مادام الهدف خدمة الإسلام والمسلمين، وبين أن تحرك رأيك لتؤكد ذاتك فيه، ولتثير الضوضاء من حولك على أساسه ولتبتعد الأنظار عن التفكير فيما هو الأصلح للأمة كلها.

ولعل هذا الاتجاه في إدارة المسألة الاجتهادية في القضايا السياسية بالمعنى الواسع للسياسة، على طريقة حركة الاجتهاد في القضايا الفقهية، كما كان الأمر في العهود الماضية لدى الفقهاء السابقين، لعل هذا الاتجاه الذي يتحرك برعاية الولاية الفقهية الواعية يترك تأثيراته الايجابية على مستوى الذهنية الإسلامية العامة للأمة عندما تختزن في داخلها الفكرة التي تنفتح على أكثر من رأي في المسألة الواحدة لتختار الأصوب، أو تتحمل الرأي المضاد للرأي الذي تختاره، لتعيد النظر من جديد فيما اختارته أو لتدخل في حوار دقيق للوصول بأصحاب الرأي الآخر إلى ما هو الحق بعيداً عن كل الحساسيات الذاتية والانفعالات المرضية.. وبذلك تستطيع هذه التربية العملية الإسلامية التي ترتفع إلى مستوى المسؤولية العلمية عن الفكر، أن تحفظ المجتمع الإسلامي من الاهتزاز أمام الحالات الطارئة التي تختلف فيها الأفكار فيهنز الناس في أوضاعهم العامة من خلال ذلك؛ لأن المجتمع إذا اعتاد على اختلاف الفكر في دائرة المصلحة العامة على أساس البحث عما هو الأصلح، فلا تكون النظرة إلى هذه الظاهرة كحالة سلبية، بل تكون النظرة إليها كمظهر إيجابي للمستوى الرفيع الذي يرتفع إليه المجتمع في وعيه لحركة التطور في الحاضر والمستقبل.

وهذا هو الذي يمكن أن يطرح لدى الإسلاميين قضية الحرية في الدائرة الإسلامية ليناقشوا فيما هي قضية الحرية في الدائرة العامة بعيداً عن الهواجس النفسية التي ترفض مجرد المناقشة في إعطاء أي فرصة للباطل حتى على صعيد الاحتمال، لأن ذلك لا يتناسب مع الإخلاص للحق والتحرك من أجل إيجاد قاعدة ثابتة لوجوده واستمراره، لأن هذه المسألة تمثل المسألة المهمة في إعطاء الصورة المنفتحة على كل قضايا التطور الفكري في الحياة، في النظرة الإسلامية العامة، لأن الانفتاح المتركز على أساس القوة في الموقف والموقع يوحي بالثقة بالثبات، بينما قد يجد الناس في الانغلاق المتمثل بقهر الرأي المضاد، لوناً من ألوان الشعور بالخوف الذي يوحي بالضعف.

وإذا كان الإمام الخميني (قده) يقرر أنه لا يحق لأحد الحيلولة دون الانفتاح في الاجتهاد المتنوع، فإن معنى ذلك أن القضية تستحق المزيد من البحث الجدي من موقع الشعور الهادئ العميق بان ذلك لا يمثل استهانة بالإسلام في مواقع قوته وثباته.

ويتابع الإمام شرح موقفه في رسالته الجوابية فيقول - كما جاء في ترجمتها العربية - ليؤكد امكانية تأييد القيادة للفريقين اللذين يتحدثان بالرأي المتنوع، من دون أن يمثل ذلك لوناً من ألوان الابتعاد عن امانة المسؤولية: "إني أؤيد الطرفين وأدعمهما.. وهذا الجناحان ملتزمان بالإسلام والقرآن والثورة، ويريدان أن تكون البلاد مستقلة، ويرغبان في أن تتخلص إيران والشعب الإيراني من الجشعين والناهبين، ويريدان ازدهار الاقتصاد في إيران الإسلام وتحسن الأوضاع الثقافية والعملية لكي يتمكن الطلبة والباحثون من التوجه والخدمة من المراكز التربوية والعملية والفنية، ويريدان تعظيم قدرة الإسلام في العالم.

وعلى هذا الأساس فلا يوجد هناك اختلاف."

ونلاحظ - في هذا النص - أن الإمام (قده) يؤكد في نظريته الايجابية إلى الرأي المختلف في الفريقين المختلفين - اللذين تحولوا إلى محورين فكريين ومنطلقين سياسيين - طبيعة الالتزام الإسلامي للفريقين وعلى روحيتهما المنفتحة على خدمة الإسلام والمسلمين في مواجهة الاستكبار والمستكبرين.

ولذلك فلا مشكلة للتنوع الفكري في تحديد المصلحة الأهم لأن ذلك لن يؤدي إلى اختلاف، فيما تحمله الكلمة من سلبيات النتائج العملية على مستوى الأوضاع العامة للأمة في قضاياها المصيرية المستقبلية.

ولذلك فإن تأييد القيادة الإسلامية ودعمها لهما لا يمثل سلبية فيما هي مسؤولية القيادة عن سلامة الخط والهدف معاً.

الاختلاف الفكري المرضي

ويختم الإمام (رضوان الله عليه) رسالته بالحديث عن العمق السلبي للانحراف في الاختلاف الفكري عن الخط السليم ليوجه المختلفين نحو معالجة ذلك بالطريقة الإسلامية، فيقول: "هناك شيء يؤدي إلى الاختلاف - ونعوذ كلنا بالله منه - وهو حب النفس، وهذا المرض لا يعرف هذا الاتجاه أو ذلك الاتجاه ولا يميز بين رئيس الجمهورية ورئيس الوزراء أو المحامي أو القاضي أو شوري القضاء الأعلى ومكتب الإعلام ولا يميز بين المرأة والرجل.

ويوجد طريق واحد للخلاص من هذا المرض وهو الرياضة الروحية. وإذا أراد الأخوة من الجناحين المحافظة على نظام الجمهورية الإسلامية فيجب عليهم تجاوز ظاهرة الانتقاد الهدام، وضرورة الانتقاد البناء، لأن ذلك هو الذي يطور المجتمع وبيئته.. وعلى الجميع أن لا يتصوروا أنفسهم معصومين عن الخطأ.

وإذا كان هناك شخص أو مجموعة - والعياذ بالله - تفكر في ضرب الآخرين لتقديم مصلحته أو مصلحة مجموعته فإنه يجب أن يعلم بأنه قبل أن يضرب مناوئيه سوف يضرب الثورة الإسلامية المباركة.. وعلى كل حال فإن تأليف القلوب، والتخلي عن الأحقاد والضغينة، والتقارب، من الأعمال التي توجب رضى الله سبحانه وتعالى، ويجب أن تحذروا الذين يريدون إبقاء الفتنة بينكم!"

إن هذه الوصية الموعظة في نهاية الرسالة توحى بأن على القيادة أن تبقى في حالة وعي دائم وملاحقة سريعة لكل الانحرافات الطارئة التي تتدخل في الواقع الإسلامي من خلال الخصوصيات الذاتية للمجتهدين المختلفين أو للفريقين المتنوعين، لتثير المسألة الأخلاقية الروحية في ساحة المسألة العلمية والسياسية، لتستقيم الشخصية الإسلامية في الخط الصحيح، لتتعمق في دراسة مواقعها الفكرية أو العملية على أساس سلامة المواقع المصيرية للأمة الإسلامية كلها.. وبذلك تبتعد عن العنصر الذاتي الذي قد يزحف إلى المشاعر الخاصة، ليثير فيها الكثير من الانفعالات المعقدة ويحرك في داخلها الحقد والبغضاء تحت عناوين مختلفة فيما قد يخيّل للإنسان - معها - أنه يتحرك في خط الإصلاح، فيما هو أسلوب العنف والمواجهة، في الوقت الذي يكون فيه غارقاً في وحول الذات ومواقع الفساد.

وهذا ما ينبغي للحركة الإسلامية أن تنتبه إليه في حركتها الفكرية والعملية في الخط السياسي فيما تتنوع فيه المواقف وتتعدد فيه الآراء ويختلف من خلاله الأشخاص.

عصمنا الله من الزلزل ورزقنا السداد في السير على الخط المستقيم.

ملاحظة:

النصوص المذكورة في رسالة الشيخ الأنصاري وجواب الإمام عليها مأخوذة عن جريدة اطلاعات الصادرة في طهران عدد 18799 بتاريخ 9 ذي الحجة 1409 هـ (مترجمة بقلم أحد طلاب العلوم الدينية في قم). (محمد عبد الجبار

مقدمة

اعترف أنني كتبت هذه المقدمة بعد الانتهاء من كتابة الجسم الأساسي لهذه المقالة، وذلك لأنني وجدت من الضروري أن اعترف، ومن ثم اعتذر، أن هذه المقالة ليست وافية وكافية لبيان ابعاد نظرية (الخطاب الخميني) - وهو خطاب متحرك وسريع وغزير - إلى مسألة (النظام الدولي). ويعود ذلك إلى سببين، لنعتبر الأول منهما سبباً ذاتياً، وهو أن الزمن المحدد لإنجاز المقالة كان اقصر بكثير مما تتطلبه الدراسة لسعة موضوعها وتنوعه. أما السبب الثاني، وهو السبب الموضوعي، وهو ما واجهه، على ما اعتقد، كل الأخوة الذين تولوا الكتابة في موضوعات محور هذا العدد، وأعني به عدم اكتمال جمع تراث الإمام الخميني (رض) من خطب وتصريحات ومقابلات ونداءات وكتابات. لقد فوجئنا جميعاً بأن (المجموعات) التي يفترض أنها تضم بين دفتيها تراث الإمام قليلة ونادرة، بل إن الأمر أكثر من ذلك، وبكلمات قليلة ومباشرة، لنقل: لا توجد عملياً مجموعة كاملة لتراث الإمام، وعلى الأقل السياسي منه، على غزارته! وحالياً توجد باللغة العربية مجموعة مؤلفة من أربعة أجزاء باسم (مختارات من أقوال الإمام الخميني)، تضم بعض خطب الإمام في الفترة من 3 مارس 1979، إلى شباط عام 1982 (الموافق للتاسع من ربيع الثاني عام 1402 هـ)، وهي، مع ذلك، غير متوفرة بأجزائها الأربعة. وقد علمنا من الأخ المستشار الثقافي للجمهورية الإسلامية الإيرانية في لبنان أن هناك مجموعة تضم خطب الإمام، المرتبة على أساس موضوعي، ويبلغ عدد أجزائها حوالي 25 جزءاً، ولكنها لا تغطي السنوات الأخيرة من عمر الإمام من جهة، وغير مترجمة إلى اللغة العربية من جهة ثانية. إذن، فالأمر الملح الآن، ونحن في قمة المواجهة الثقافية والسياسية مع الاستكبار العالمي، هو أن يتم جمع تراث الإمام، ويرتب ضمن منهجية مدروسة تعين الباحثين والمؤمنين على دراسة خط الإمام والإحاطة به.

وإزاء هذا الواقع، أي قلة النصوص المتوفرة بالقياس إلى سعة الموضوع، كان أمامنا أحد خيارين: إما ترك الكتابة في الموضوع أساساً، أو الكتابة بالمتيسر. وبعد تأمل، تم اختيار الطريق الثاني، على قاعدة ما لا يدرك كله لا يترك جله. وهكذا كان، ولهذا فإن حركة البحث والدراسة عن نظرية الإمام وخطه ومواقفه وممارساته فيما يتعلق بمسألة النظام الدولي تدور في إطار هذا الحجم المحدود من النصوص المتوفرة، الأمر الذي قد، أو ربما بدون قد، يؤثر على بنية الدراسة ومضمونها وأفكارها واستنتاجها

ثانياً - صلة الإمام بالنظام الدولي

لا نستبعد أن يتساءل البعض: ما هي صلة الإمام الخميني بمسألة النظام الدولي؟ ولماذا نفترض أن الإمام معني بهذه المسألة؟.

وقد يكون طرح هذا السؤال غريباً بعد كل هذا (الإرباك الثوري) الذي أحدثه الإمام لبنية النظام الدولي ولآليات اشتغاله إلى الدرجة التي اعتبر فيها المراقبون الدوليون أن سنوات حكم الإمام هي (عشر سنوات هزت العالم).

وقد تكون خلفية مثل هذا السؤال كامنة في الوهم القديم القاضي بفصل الدين عن السياسة؛ هذا الوهم الذي عمل الغزو الثقافي الاستكباري على زرع في عالمنا الإسلامي لإقصاء الإسلام لأنه دين، عن الواقع لأنه سياسة! ضمن مخطط معروف ومشهور، ولا داعي للحديث عنه.

ومن الطبيعي، لسنا في مقام الرد على هذا الوهم أو مناقشته، لأن لذلك مجالاً آخر، أو ربما لم يعد هناك ضرورة للدخول في مثل هذه المساجلات والمجادلات بعد أن دخل الإسلام ورجاله في قلب السياسات المحلية والإقليمية والعالمية.

وربما تكون خلفية مثل هذا السؤال كامنة في وهم آخر، مرتبط بالوهم الأول، وهو عزل علماء الدين عن السياسة، وهذا ما سعى الاستعماريون وعملاؤهم إلى تحقيقه وفرضه في عالمنا الإسلامي، كما فعلوا بأغلب علماء الدين في العراق بعد فشل ثورة العشرين الشهيرة عام 1920.

ولسنا على أي حال في مقام مناقشة مثل هذه الخلفيات، لكن طرح السؤال يبقى مقبولاً ومشروعاً، خاصة إذا انطلق من خلفية أخرى ذات طابع (إيجابي)؛ فالسؤال يستهدف معرفة الخلفية التي كان الإمام الخميني نفسه ينطلق منها في تعاطيه مع المسألة الدولية، أو للنظام الدولي.

وكما في الأمور الأخرى، كفانا الإمام مؤونة البحث عن فهمه للعلاقة بينه وبين النظام الدولي، فقد كتب الإمام بتاريخ 22 شباط 1989، متحدثاً عن صفات وخصائص (المجتهد الجامع للشرائط) يقول:

"يجب أن يكون المجتهد محيطاً بأمور زمانه، وليس مقبولاً للناس والشباب وحتى العوام أن يقول مرجعهم ومجتهدهم أنا لا أعطي رأياً في المسائل السياسية. إن معرفة طريقة مواجهة حيل وتزويرات الثقافة المسيطرة على العالم، وامتلاك البصيرة والرؤية الاقتصادية، والاطلاع على كيفية التعامل مع الاقتصاد المتحكم بالعالم، ومعرفة السياسات وحتى السياسيين، وتعليماتهم التي يملونها، وإدراك ظروف ونقاط القوة والضعف في قطبي الرأسمالية والشيوعية التي ترسم في الحقيقة استراتيجية السلطة في العالم، كل أولئك من خصائص المجتهد الجامع للشرائط.

يجب أن يتحلى المجتهد بالبراعة والذكاء والفراسة لقيادة المجتمع الإسلامي الكبير، وحتى غير الإسلامي..).

وبرأينا، فإن هذا النص البالغ الوضوح، يقدم الإجابة الواضحة عن السؤال المتقدم.. إن الإمام الخميني، بحكم كونه فقيهاً مجتهداً، يرى أن تكليفه الشرعي هو (التصدي) لأمر الناس وقيادتهم على أساس الإسلام، فإنه يرى من مقدمات تحقيق هذا الواجب والقيام به، هو الاحاطة (بأمور زمانه) ومن هنا نشأت العلاقة بين الإمام الخميني والنظام الدولي. فالإمام الخميني كان يرى أن عليه أن يعرف العالم من حوله وطريقة عمله وآليات تأثيره على بلاد المسلمين وأسلوب مواجهته وتشخيص نقاط ضعفه وقوته، من أجل أن يتمكن من إنجاز دوره الثوري في إنهاء الأمة وتغييرها وإسقاط الوضع الظالم الذي يجثم بظلمه الثقل على صدر العالم كله.

ولذا، فليس دخول الإمام الخميني إلى النظام الدولي، بالمعرفة والمتابعة والاطلاع، ثم بالعمل والممارسة والسياسة والثورة، ليس ذلك دخلاً مفتعلاً، ولا طارئاً، وإنما هو امتداد وتجسيد طبيعي لرؤية الإمام الخميني لدور العالم الفقيه في المجتمع والدولة والعالم، وهي ذاتها الرؤية التي يقدمها الإسلام المحمدي الأصيل، الذي استوعبه الإمام، علماً وعملاً، فقهياً والتزاماً، عرفاناً وجهاداً، ونذر حياته الشريفة من أجل رفع رايته، وإعلاء كلمته، وتحقيق سيادته وسموه وانتصاره. وكان له ما أراد، وقد تحلى بالإرادة الحديدية الصلبة التي لا تلين، والإيمان الصادق العميق، فأقام الجمهورية الإسلامية، بعون الله وإذنه ونصره.

ولعله من المفيد أن نتساءل عن كيفية وعي الإمام الخميني للعالم من حوله.

نعود قليلاً إلى الوراء.. وُلد الإمام الخميني عام 1902. وإذا افترضنا أنه بدأ يعي الأحداث السياسية، المحلية والإقليمية والعالمية، ابتداءً من بلوغه الخامسة عشرة من عمره، وهو سن التكليف الشرعي، فستكون سنة 1917 هي سنة بدء تكون صورة العالم في وعي الإمام الخميني. وهذه سنة مميزة على المستوى المحلي -الإيراني، وعلى المستوى الإقليمي - الإسلامي، وعلى المستوى العالمي.

لنبدأ من المستوى العالمي، من الاطار العام للصورة. كان العالم في تلك السنة منهكاً فيما ستكون السنة الأخيرة من الحرب العالمية الأولى، التي كانت شرارتها الأولى قد اندلعت في 28 حزيران 1914، حين اغتيل ولي عهد الامبراطورية النمساوية - الهنغارية الارشيدوق فرديناند في مدينة سيراغيفو الصربية، والتي سوف تنتهي في 11 تشرين الثاني عام 1918.

وعام 1917 شهد حدثاً دولياً بالغ الأهمية، وهو قيام الثورة البلشفية في روسيا وقيام الاتحاد السوفياتي، الجار الشمالي الكبير لايران، والذي سيكون له دور كبير في صياغة النظام الدولي بوضعه الحالي.

وتتسارع الأحداث الإقليمية بسرعة لتسفر عن انهيار "الدولة الإسلامية" العثمانية، الثمرة الأكبر للحرب العالمية الأولى من جهة، ولتصاعد حدة الصراعات الدولية على أرض إيران بين الدول "الكبرى" آنذاك وخاصة روسيا وبريطانيا والمانيا، الأمر الذي "حمل إليها الخراب وإلى شعبها الشقاء خلال نصف قرن أو يزيد" [1].

في 21 شباط سنة 1921، شهد الإمام الخميني، وهو في التاسعة عشرة من عمره، بداية نشوء الأسرة البهلوية التي ستحكم إيران لغاية 11 شباط 1979، والتي سيكون الإمام الخميني عدوها الألد وخصمها العنيد، والذي لم يهادنها حتى اسقطها؛ ففي فجر ذلك اليوم دخل رضا خان، وكان قائداً لحامية تبريز، طهران، على رأس 2500 جندي من قواتها، وسيطر على العاصمة، وتمكن من السيطرة على الحكم، في أول انقلاب عسكري في تاريخ إيران الحديث، وأخذ رضا خان يواصل تعزيز نفوذه، حتى استطاع حمل الجمعية التأسيسية الإيرانية في 1925/12/15 على اعلانه ملكاً باسم رضا شاه بهلوي.

وبشهد الإمام الخميني كل تطورات العالم في فترة ما بعد الحرب العالمية الأولى، إلى أن قامت الحرب العالمية الثانية، رسمياً، بتاريخ 3 أيلول من عام 1939، لتنتهي بعد 6 سنوات، في 2 أيلول 1945 باستسلام اليابان. ولكن إيران في فترة الحرب العالمية الثانية شهدت حدثاً "دراماتيكياً"، فقد كانت الرياح الساخنة للنظام الدولي المنهار جزئياً آنذاك تهب بشدة عليها. فقد دخلت قوات الحلفاء في 1941/8/25 الأراضي الإيرانية، وضغط الانجليز على رضا شاه - المتهم بالانحياز إلى المانيا - حتى تنازل عن العرش إلى ولي عهده محمد رضا، ليكون رحيل شاه وصعود شاه لعبة يمارسها "النظام الدولي" بكل صلافة ساحقاً بذلك حتى العظم مفاهيم الاستقلال والحرية وحق الشعوب في تقرير مصيرها. لقد كان الإمام قد بلغ التاسعة والثلاثين من عمره آنذاك، ولم يكن بحاجة إلى دليل، أكثر من هذا، على حقيقة النظام الدولي من جهة، وعلى حقيقة نظام الشاه من جهة ثانية.

وظل الإمام الخميني يراقب الأحداث من حوله، ويتابع حركة النظام الدولي وأثرها في داخل إيران، حتى وصل في عام 1963 - وقد صار رجلاً كبيراً له من العمر 61 عاماً - إلى منعطف أساسي في حضوره السياسي. وفي 1963/6/3 ألقى خطابه الشهير في المدرسة الفيزية الذي كان بمثابة "البيان الأول" لثورة الإمام الخميني الأولى، والتي اعتبرها هو نفسه، القاعدة الأساسية لثورة شباط 1979، والتي أسقطت نظام الشاه، أخيراً.

ما نريد قوله من وراء هذا الاستعراض التاريخي هو أن الإمام الخميني عاصر نشوء النظام الدولي الحالي سنة بسنة، وخطوة خطوة، معاصرة من يعرف دوره في وعي العالم وتغييره، ويشعر بمسؤوليته ازاء وطنه الصغير (إيران) والكبير (العالم الإسلامي)، وشعبه الإيراني، وأمتة المسلمة. لقد نشأ النظام الدولي تحت نظر الإمام الخميني، بل أن الأمرين كانا متلازمين: تشكل النظام الدولي، ونمو شخصية الإمام الخميني السياسية. ولهذا نستطيع أن نقول أن معرفة الإمام الخميني بالنظام الدولي لم تكن معرفة خبر ورواية، وإنما معرفة ممارسة ودراية. وهذا أمر بالغ الأهمية في معرفة قيمة رؤية الإمام الخميني للنظام الدولي ومصداقية أحكامه عليه.

النظام الدولي

نشعر بالحاجة المنهجية، ونحن بصدد الحديث عن رؤية الإمام الخميني للنظام الدولي وموقفه منه، أن نضع القارئ في أجواء هذا المصطلح؛ ذلك أن مصطلح "النظام الدولي" المترجم عن الانجليزية International or global system يعتبر مصطلحاً جديداً في الأدب السياسي المعاصر، إلا أنه اليوم من المصطلحات والمفاهيم الأساسية في علم العلاقات الدولية، وتعد المكتبة السياسية الدولية المعاصرة بالعديد من الدراسات حوله قدمها علماء كبار أمثال: آرون، وبولدنغ، وهوفمان، وكابلان، ومودولسكي، وروزكرانس، وسنجر، والتز، وغيرهم.

وقد توصل الأدب السياسي، كما يقول د. عبد المنعم سعيد([2]) إلى صياغة تكوينات مفهوم النظام الدولي في نهاية الخمسينات والستينات من هذا القرن. ويكاد يكون تعريف موريس ايسن وزملائه للنظام الدولي مقبولاً إذ يقول بأنه يمثل: "أنماط التفاعلات والعلاقات بين القواعد السياسية ذات الطبيعة الأرضية (أي الدول) التي تتواجد خلال وقت واحد".

إلا أن علماء السياسة الدولية يقدمون فهماً أكثر تعقيداً من مجرد التفاعلات بين الدول القومية وحكوماتها حول الظواهر السياسية والأمنية، حيث يدخل هؤلاء فواعل أخرى إلى منظومة التفاعل التي تشكل النظام. ويؤكد هؤلاء العلماء، مثل: كوهين وناي، على الدور الذي تلعبه الفواعل عابرة الحكومات وتلك العابرة للقوميات، مثل الشركات المتعددة (أو المتعدية) الجنسيات، والمؤسسات، والاتحادات الدولية، والمنظمات الدولية الوظيفية.

ويركز علماء آخرون مثل بيرتون و كانتوري وشبيغل وبايندر على نظم اقليمية فرعية أو تابعة، حيث بينوا مواصفاتها الخاصة وتفاعلاتها الذاتية التي يمكن فصلها عن تلك العالمية.

وبناء على هذا التطور أمكن التمييز حسب جميل مطر وعلي الدين هلال([3])، بين ثلاثة مستويات لدراسة الوضع الدولي، وهي:

- 1 - مستوى النظام الدولي، ويقصد به أنماط التفاعلات الدولية على مستوى القمة بين الدول الكبرى - وخصوصاً بين الدولتين العظميين - والتي يترتب على نوعية العلاقات فيما بينها تحديد مناخ العلاقات الدولية في العالم كله. وتتردد في هذا الصدد مصطلحات مثل القطبية الثنائية، توازن القوى، تعدد الأقطاب، وغيرها.
- 2 - مستوى النظام الاقليمي التابع أو الفرعي، Regional or subordinate system ويقصد به التفاعلات الدولية التي تتم في منطقة ما، تحدد - عادة - على مستوى جغرافي.
- 3 - مستوى الفواعل غير الدولية، وهي بشكل أساسي فرعان: المنظمات الدولية، والشركات الدولية متعددة الجنسيات([4]).

الإمام الخميني والنظام الدولي

كيف يرى الإمام الخميني العالم

من نصوص الإمام الكثيرة، يمكن أن نقول ان الإمام الخميني يرى العالم ينقسم إلى عالمين: عالم المستكبرين، وعالم المستضعفين. وهو التصور الأساس للعالم عند الإمام. وهو يختلف عن الصورة التقليدية التي تقسم العالم إلى ثلاث دوائر، وهي: المعسكر الرأسمالي (العالم الأول) والمعسكر الاشتراكي (العالم الثاني) والعالم الثالث. كما تختلف هذه النظرة عن نظرة ماوتسي تونغ التي تقسم العالم إلى ثلاث دوائر هي: العالم الأول الذي يضم الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة الأميركية، والعالم الثاني الذي يضم الدول المتطورة الصناعية أي أوروبا الغربية وكندا واليابان، وأخيراً العالم الثالث الذي يضم الدول الأخرى في آسيا وأفريقيا وأميركا اللاتينية.

الدول في العالم المعاصر هي إما مستكبرة أو مستضعفة. وهذا التقسيم ينظر الإمام من فعل الدول المستكبرة ذاتها؛ فهو لا يعبر عن حالة "طبيعية" في العالم، وإنما هي حالة مفروضة، فرضتها هذه الدول المستكبرة، فقسمت العالم عملياً إلى قسمين: عالم الاستكبار، وعالم الاستضعاف.

وإذا كان الإمام قد طرح هذه الرؤية في وقت مبكر، فإنه قد صاغها بصيغتها المحكمة في أحد نصوصه المتأخرة والمهمة، ذلك هو خطابه الذي وجهه إلى المسلمين في 5 ذي الحجة سنة 1408 هـ. يقول الإمام (رض):

"الواقع أن دول الاستكبار الشرقية والغربية وبخاصة أميركا وروسيا قد قسّمت العالم عملياً إلى قسمين: قسم حر وقسم حجر سياسي. ففي القسم الحر من العالم، هناك الدول الكبرى التي لا تعترف بأي مدى، أو حد، أو قانون، وتعتبر الاعتداء على مصالح الآخرين، واستعمار الشعوب واستثمارها واستعبادها أمراً ضرورياً ومبرراً ومنطقياً، ومنطقاً على جميع المبادئ والموازين الدولية، والموضوعية من قبلها هي.

أما في قسم الحجر السياسي، الذي تحاصر وتسجن فيه للأسف معظم شعوب العالم الضعيفة وبخاصة المسلمين منها، فلا وجود إطلاقاً لحق الحياة وإبداء الرأي.

إن القوانين والمقررات والأنظمة جميعها هي القوانين المفروضة والمنسجمة مع أهواء النظم العملية والمؤمنة لمصالح المستكبرين.

والمؤسف أن معظم متولي السلطات التنفيذية في هذا القسم هم الحكام المفروضون أو اتباع النهج الاستكباري العام، الذين يعدون حتى صرخة الألم من داخل جدران هذه السجون والسلاسل جريمة لا تغتفر، فمنافع ناهبي الشعوب تمنع على أي كان حتى التلطف بأي كلمة يشتم منها إضعافهم أو تعزيز صفو راحة نومهم".

ويمكن تلخيص وجهة نظر الإمام التي يعبر عنها هذا النص كما يلي:

إن الحرية على مستوى السلوك السياسي الدولي حكر على الدول المستكبرة، وهي، بهذا المعنى، تؤلف "العالم الحر" في مصطلح الإمام، فالعالم الحر، هو ليس العالم الرأسمالي، كما في الأدبيات الغربية، في مقابل العالم غير الحر، أي العالم الاشتراكي. إنما "العالم الحر" يضم كل الدول الكبرى صاحبة الحرية "المطلقة" في التصرف والسلوك الدوليين، في مقابل عالم "الحجر السياسي" الذي يضم الدول والشعوب المستضعفة التي لا تملك من حرية السلوك السياسي الدولي شيئاً. فهي مستعبدة ومحكومة لإرادة ومصالح الدول النافذة في العالم الحر.

ولا نبعد عن الصواب إذا قلنا إن الإمام كان يضع أمام عينيهِ الدول الكبرى الخمس، بشكل أساسي، وهو يتحدث عن "العالم الحر"، أي الولايات المتحدة، والاتحاد السوفياتي، وبريطانيا، وفرنسا، والصين. وجميع هذه الدول أعضاء دائمة في مجلس الأمن الدولي، حيث "السلطة الدستورية" الأعلى في العالم، وتتمتع بحق "الفيتو"، أي الاعتراض والنقض على قرارات المجلس. وحق النقض يعني إن هذه الدول تملك "الحرية المطلقة" إزاء قرارات مجلس الأمن، بل تملك حرية تقيد حق الآخرين أيضاً. فالدول الأخرى الأعضاء في مجلس الأمن بحاجة إلى ضمان موافقة أو سكوت الدول الكبرى الخمس، مجتمعة، من أجل اصدار أي قرار عن مجلس الأمن. إن ما يسمى بالإرادة الدولية رهن، إذن، بإرادة الدول الخمس الكبرى. وليس العكس.

ومن الطبيعي أن نتوقع أن هذه الدول المستكبرة تنطلق في قراراتها وأفعالها السياسية، بما في ذلك مصادرة الإدارة الدولية وحرية الدول الأخرى، من "مصلحتها الخاصة". وهذه المصالح هي التي تشكل القانون "الدولي" العام الذي تستند إليه. ولاشك أن الإمام كان يتذكر مصطلح "المصالح الحيوية" الذي ابتكره الرئيس الأميركي الأسبق جيمي كارتر، وهو يضع مبدأه الشهير، الذي عرف باسم "مبدأ كارتر" والقاضي باعطاء الحق للولايات المتحدة الأميركية بالتدخل العسكري في مناطق الشعوب المستضعفة، بما في ذلك منطقة الخليج، لحماية ما أسماه كارتر: "المصالح الحيوية" للأمة الأميركية.

وعلى هذا الأساس، فإن الدول المستكبرة تعتبر "استعمار الشعوب واستثمارها واستعبادها أمراً ضرورياً ومنطقياً ومنطبقاً على جميع المبادئ والموازين الدولية".

ومن جهة أخرى فإن القوانين الدولية، أو ما يسمى بالقانون الدولي، هو من وضع هذه الدول المستكبرة نفسها. ومن الطبيعي أنها وضعت فيما يحقق مصالحها ويضمن سيطرتها وسلطانها وهيمنتها على باقي العالم، أي الشعوب المستضعفة. والمقصود بالقانون الدولي "مجموعة القواعد القانونية التي تحكم الدول وغيرها من الشخصيات الدولية في علاقاتها المتبادلة" ([5]).

والمعروف أن معاهدة وستفاليا الموقعة في عام 1648 تعد نقطة الانطلاق في تاريخ القانون الدولي بالنسبة لوضعه الراهن، فقد اختتمت بها حرب الثلاثين سنة التي قامت بين الدول الأوروبية، آنذاك.

ويدهي القول، أن القانون الدولي الراهن، باعتباره قانوناً وضعياً، يرفع بشكل رئيسي مصالح الدول التي قامت بوضعه وتطويره وتطبيقه. ومن هنا فإن مفهوم العدل طبقاً للقانون الوضعي مفهوم نسبي؛ فالعدل هو ما ينسجم مع مصالح واضح أو واضعي القانون. والمساواة هي حالة تسري، فقط، على العلاقة بين واضعي القانون.

ومما يزيد في سوداوية الصورة الراهنة للنظام الدولي المعاصر، أن حكام الدول المنتمة إلى العالم المستضعف هم إما "حكام مفروضون" بالقوة على شعوب هذا العالم، أو هم "أتباع" بحكم العقيدة والافتتاح والانتماء للنهج الاستكباري العام. وهذا بعض الضوء على طبيعة العلاقة بين العالم المستكبر والعالم المستضعف، وهي علاقة التبعية، التي يؤكد عليها الإمام الخميني كثيراً، وستعرض لها بعد قليل.

ظالمون قليلون .. ومظلومون كثيرون

إن التقويم العام للنظام الدولي الراهن يتلخص في كونه نظاماً ظالماً، تنقسم فيه الدول إلى قسمين: دولة ظالمة، ودول (أو بالأحرى شعوب) مظلومة.

وفي مؤتمره الصحفي الذي عقده بتاريخ 28 شباط 1979 تساءل الإمام الخميني: "هل عدد المظلومين في العالم أكثر من عدد الظالمين؟"، ويجب بنفسه عن هذا السؤال قائلاً: "إذا تأملت تلاحظون أن الأكثرية القاطنة مع المظلومين في العالم. الظالمون المجهزون بالأجهزة الشيطانية عددهم قليل، والمظلومون عددهم كثير جداً".

وهذه معادلة مجحفة بلاشك. إنها تعبير عن منطق الظالمين، منطق الاستكبار الذي قام ببناء النظام الدولي القائم. وفي مقابل هذا المنطق، يبرز "منطق المحرومين الذين يشكلون الأغلبية القصوى للعالم". والعبارة للإمام الخميني في مؤتمره الصحفي الذي أشرنا إليه قبل قليل. ويشرح الإمام الخميني "منطق المحرومين" في نفس المؤتمر الصحفي حيث يقول:

"إن منطق المحرومين (...) لابد أن يكون حراً مستقلاً وأن تصرف خيرات له لنفسه. هذا هو منطق المحرومين".

وهذا المنطق يناقض منطق الظالمين، المنطق السائد في العالم المعاصر:

"أما منطق الظالمين - والكلام للإمام الخميني - فهو أن ينهبوا هذه المنطقة. الظالمون الكبار لا يعتبروننا بشراً، ولا يحسبون المظلومين - في أي مكان كانوا حتى في أوطانهم - لا يحسبونهم بشراً. وعندما يدعون حقوق الإنسان فإن قصدهم حقوق الظالمين. حقوق البشر تعني أن يحق لهم سرقة نفطنا دون أن يدفعوا شيئاً! حقوق البشر تعني أن تكون جميع الشعوب تحت سيطرتهم دون قيد أو شرط! هذا هو منطق الأقلية الظالمة".

حتى المنظمات الدولية، وإن بدت تجمعات لدول متساوية في الصلاحيات والسلطات، إلا أنها في الحقيقة امتداد لحالة الظلم التي تطبع العلاقات الدولية بصبغتها العامة، وقد أشار الإمام الخميني إلى هذه الحقيقة المرة في كثير من خطبه، وخاصة أثناء أزمة الرهائن الأميركيين في السفارة الأميركية في طهران، التي قام الطلبة المسلمون السائرون على خط الإمام بالسيطرة عليها، وفي أثناء الحرب العراقية الإيرانية التي امتدت من 1980/9/22، حتى 1988/7/18 فقد تجاهلت منظمة الأمم المتحدة، بما في ذلك مجلس الأمن الدولي معاناة الجمهورية الإسلامية؛ بل وراح بعض المنظمات الدولية يهاجم النظام الإسلامي الجديد، تحت ذريعة الدفاع عن حقوق الإنسان، بسبب قيام الحكومة الثورية بإعدام بعض رموز النظام القديم ورجالاته.

في 1979/12/17، تحدّث الإمام الخميني عن هذه المسألة قائلاً: "إنهم يملكون حق الفيتو"، فحيثما رأى الكبار أن قانوناً ما يعارض مصالحهم فإنهم يستفيدون من حق الفيتو لرفضه. نحن لا نملك حقاً سوى تحمل المصائب دون أن ننقوه بكلمة!"

وفي 1401/11/19، قال الإمام الخميني: "إن أمثال منظمة حقوق الإنسان والهيئات الأخرى المشابهة تعمل اليوم لاستخدام العالم من أجل مصالح القوى الكبرى المستبدة، وجر الأنظمة الإلهية وعلى رأسها النظام الإسلامي نحو الاستضعاف".

وفي 1401/12/20 تساءل الإمام الخميني: "لماذا لا تظهر هذه المنظمات الدولية الفاسدة كلمة اعتراض على هذه المفاصل (التي تقوم بها أميركا)، ولكنها ترفع ضجيجها إذا اعدم في إيران مجرم مارس الإجرام طول حياته كهويدا ونصيري؟"

ولم يكن الإمام الخميني يجانب الصواب. فإن المنظمات الدولية، وخاصة الأمم المتحدة، لا تستطيع الخروج من أسر الدول الكبرى، وبخاصة الولايات المتحدة، التي تستطيع أن تمارس الكثير من الضغوط لكي توجه سياسات هذه المنظمة الدولية وقراراتها بالشكل الذي

يخدم "مصالحها الحيوية". واليوم تستطيع قوى الاستكبار أن تدفع المنظمة الدولية إلى اتخاذ قرارات، أو منع اتخاذ قرارات، متى ما شئت ذلك. وتستطيع الدول الكبرى التوصل إلى تحقيق هذا عبر ثلاث ركائز أساسية هي:

أولاً: حق الفيتو الذي تملكه في مجلس الأمن، الذي يشكل أعلى سلطة قانونية في التنظيم الدولي القائم.

ثانياً: الضغط المالي الكبير الذي تمارسه، كونها تتحمل جزءاً كبيراً من تمويل المنظمات الدولية.

ثالثاً: قدرتها على التأثير على قرارات الدول "الصغيرة" الأعضاء في المنظمات الدولية، والتي يدور أغلبها في أفلاك الدول المستكبرة.

وهذه، بطبيعة الحال، ثغرة كبيرة في التنظيم الدولي الحالي، الذي تعود جذوره إلى القرن التاسع عشر، واتخذ صيغته الراهنة، بعد الحرب العالمية الثانية، رغم أن أكاديمي "التنظيم الدولي" ومنظريه يؤكدون أنه من "الظواهر المميزة للعلاقات الدولية في القرن العشرين". ويشير إسماعيل صبري مقلد إلى "أن هذه التنظيمات قد أصبحت ركيزة أساسية وحيوية من ركائز التعامل الدولي" مبيناً أن "هناك ثلاثة اغراض رئيسية يقوم التنظيم الدولي على تحقيقها وهي: "السلام والرخاء والنظام" [6]]، ولكننا نجد اليوم من الصعوبة بمكان الاعتقاد بان التنظيم الدولي استطاع أن يحقق أيّاً من هذه الأغراض وبصورة عادلة، إن لم يكن هو السبب في كثير من حالات المعاناة التي تعرضت لها الشعوب المستضعفة باسم "القانون الدولي". اقلّم يكن "نظام الانتداب" من مبتدعات عصبة الأمم، التي كان قد وضع ميثاقها في مؤتمر باريس عام 1919؟ أوليس نظام الانتداب إلا "صيغة معدلة لأدوات السيطرة الاستعمارية التقليدية" أو لم يكن نظام الانتداب سوى تبرير شكلي زائف امكن من خلاله لبعض الدول الاستعمارية الكبرى في المجتمع الدولي أن تدير الممتلكات السابقة لحسابها وفي خدمة مصالحها، تحت اسم "عصبة الأمم". بل ألم يكن قيام الكيان الصهيوني في فلسطين، واكتسابه الشرعية الدولية، من ثمرات التنظيم الدولي الراهن؟!

مصالح المسلمين في النظام الدولي القائم

واعتبر الإمام الخميني أن موازين القوى والمعادلات السياسية في النظام الدولي الراهن لا تؤدي إلى حفظ وضمان المصالح العليا والحقيقية للمسلمين وللعالم الإسلامي، لأنها موضوعة بالأساس لحفظ مصالح الدول المستكبرة بالدرجة الأولى، والتي يندرج في إطارها فرض الهيمنة الاستكبارية على العالم المستضعف، ومن ضمنه العالم الإسلامي.

هذه هي الفكرة الأساسية التي يدور حولها تصور الإمام الخميني لأوضاع العالم الإسلامي الراهنة والمتريفة، باعتبارها نتاج النظام الدولي القائم. وقد تحدث الإمام كثيراً عن هذه المسألة؛ ففي رسالته الموجهة إلى الأمة بتاريخ 5 ذي الحجة 1408 هـ، قال الإمام:

"ويجب أن يعلم المسلمون، انه مادام ميزان القوى في العالم لم يميل إلى صالحهم فان مصالح الأجانب ستقدم دائماً على مصالحهم، وسيفتعل الشيطان الأكبر أو الروس كل يوم حادثه بحجة الحفاظ على مصالحهم.

إذا لم يحل المسلمون مشكلاتهم مع ناهبي الشعوب بصورة جدية، وإذا لم يوصلوا أنفسهم إلى حدود القوة العظمى في العالم، فهل سيكونون حقاً في أمان؟"

وكان الإمام يذكر المسلمين بهذه الحقيقة المرة بصورة مستمرة، نظراً لأهميتها في تشكيل الوعي السياسي للمسلمين.

ففي بيانه الذي أصدره في 1979/9/29م، قال الإمام: "إن القوى الكبرى الشرقية والغربية تنهب جميع ثرواتنا المادية والمعنوية، وقد جعلونا في حالة فقر وحاجة، سواء من الناحية السياسية أم الاقتصادية، أم الثقافية" وأكد: "إن الدول الأفريقية المسلمة تنن اليوم تحت وطأة أميركا وبقية الأجانب وعملائها"، وأضاف: "إن العالم الإسلامي اليوم أسير بيد أميركا".

وفي 17 تشرين الثاني عام 1980م أشار الإمام إلى أن ما يعانيه المسلمون من مشاكل إنما هو بسبب قوى الاستكبار العالمي، وقال: "إن جميع مشاكل المسلمين تنبع من القوى الأجنبية، فأولئك الذين يريدون الانتفاع من الدول الإسلامية واستغلال ثرواتها، يريدون أن تكون البلاد الإسلامية تحت نير سلطتهم".

وفي 1980/12/28، قال الإمام مذكراً بمخططات الدول الأجنبية الكبرى ضد مصالح المسلمين: "منذ سنوات طوال والقوى الكبرى تخطط لفرض السيطرة على المسلمين ونهب أموالهم والإغارة على ذخائرهم وثرواتهم".

وكان الإمام الخميني قد تحدث عن مخططات المستكبرين أثناء محاضراته حول "الحكومة الإسلامية"، التي ألقاها في النجف الأشرف، حيث قال في إحدى هذه المحاضرات:

"وقد وجد المستعمرون في العالم الإسلامي ضالّتهم المنشودة؛ وبغية الوصول إلى مطامعهم الاستعمارية، سعوا في إيجاد ظروف ملائمة تنتهي بالإسلام إلى العدم، ولم يكونوا يقصدون إلى تنصير المسلمين بعد إخراجهم من الإسلام، فهم لا يؤمنون بأي منهما، بل أرادوا

السيطرة والنفوذ، لأنهم ادركوا دائماً وفي اثناء الحروب الصليبية أن أكبر ما يمنعهم من نيل مآربهم ويضع خططهم السياسية على شفا جرف هار، هو الإسلام".

ولسنا بحاجة، كما اعتقد، إلى البرهنة على صحة تقويم الإمام الخميني لعلاقة الاستكبار العالمي بالعالم الإسلامي، تلك العلاقة القائمة على أساس الظلم والاستغلال والتبعية، لأن هذه المسألة أصبحت من الواضح بدرجة تحتاج معها إلى مزيد بيان وإيضاح، ويكفي في هذا الصدد الرجوع إلى بعض الدراسات المنشورة مثل كتاب: "النهب الامبريالي للعالم الإسلامي" تأليف الأخ ضياء الموسوي، وكتاب: "الغرب ضد العالم الإسلامي" تأليف الأكاديمي السوفياتي "بونداريفسكي"، وغير ذلك من الكتب.

الحكومات العالمية

ويعتبر الإمام الخميني الحكومات القائمة في اغلب بلدان العالم الإسلامي من مظاهر الشرور الاستكبارية، لأنها حكومات من صنع القوى الكبرى، تجسد الاستقلال الحقيقي للعالم الإسلامي، بل هي أدوات لخدمة المصالح العليا للدول المستكبرة.

يقول الإمام الخميني في خطاب بتاريخ 1981/4/9: "ومع الأسف، ان انحراف اكثر الدول الإسلامية قد تسبب في أن تظل هذه الأمة تحت ضغط القوى الشيطانية الكبرى، وأن تُساق تلك الثروة العظيمة في البلاد الإسلامية إلى الدول الكبرى".

"إن أياً من الحكومات المتسلطة على تلك البلدان (الإسلامية) لم ولن تفكر بحرية واستقلال ورفاهية شعوبها، بل ان غالبيتها شبه المطلقة؛ إما بادرت بنفسها لممارسة الظلم والقمع لشعوبها، وكل ما فعلته كان من أجل مصالحها الشخصية أو الفئوية، أو من أجل رفاهية فئة المترفين والأعيان، فيما كانت الفئات المظلومة وسكنة الأكوخ محرومين من كل مواهب الحياة حتى الماء والخبز وما يُقام به الأود، وهؤلاء المساكين مسخرون لخدمة تلك الفئة المترفة المنغمسة في الملذات، وإما أن تكون تلك الحكومات قد نصبتها القوى الكبرى لتجند كل طاقاتها من أجل ربط البلدان والشعوب بها، وتحويل البلدان بمكاند شتى إلى أسواق للشرق والغرب، وجعل الشعوب متخلفة استهلاكية، فأمنوا بذلك مصالحهم، ومازال تلك الحكومات تتحرك وفق هذا المخطط".

التبعية: وتلعب الأنظمة العميلة دوراً أساسياً ومحورياً في تكريس تبعية العالم الإسلامي (بل والعالم المستضعف كله) للعالم المستكبر، فهي حلقة الربط في هذه التبعية بين العالمين المستضعف والمستكبر.

و"التبعية" من الموضوعات الهامة التي تشغل حيزاً كبيراً في كتابات واهتمامات سياسي ومفكري العالم الثالث.

ويرى د. اسامة الغزالي حرب أن إدراج أفكار مدرسة "التبعية" ضمن المداخل المعتمدة في دراسة الظواهر السياسية في المجتمعات المتخلفة، ومنها مجتمعات العالم الإسلامي، يعود إلى اعتقاد راسخ بأهمية العنصر الخارجي في تشكيل مجمل الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية في تلك المجتمعات([7]).

وبرغم الكتابات والاسهامات الكثيرة حول التبعية، فانه من المعترف به عدم وجود "تعريف دقيق لمفهوم التبعية"، إلا أنه يجري عادة الاكتفاء بالتمييز بين "التبعية - كعلاقة" و"التبعية - كمجموع من الأبنية". ويُقر كتاب منظري التبعية، بمن فيهم "دوسانتوس"، هذا التمييز، فيقدم تعريفين للتبعية، هما:

- "التبعية هي الموقف الذي تكون فيه اقتصاديات مجموعة معينة من الدول، مشروطة بنمو وتوسع اقتصاد آخر، تخضع له".

- "إن التبعية تتعلق بتكثيف البناء الداخلي لمجتمع معين بحيث يُعاد تشكيله وفقاً للامكانيات البنوية لاقتصاديات قومية محددة"([8]).

وإذا كانت الأدبيات السياسية، وخاصة الماركسية المحدثه منها، تعطي للتبعية طابعاً اقتصادياً، بالأساس، على المستوى المعياري والبنوي والوظيفي، فإن الرؤية الإسلامية للأمر مختلفة، حيث تعتبر التبعية حالة شاملة في المجتمع. وقد عبر عن هذه الرؤية الإمام الشهيد السيد محمد باقر الصدر في مقدمة الطبعة الثانية لكتاب "اقتصادنا"، حيث كتب يقول:

"وقد عبرت التبعية، في العالم الإسلامية لتجربة الإنسان الأوروبي الرائد للحضارة الحديثة، عن نفسها بأشكال ثلاثة زمنياً، ولا تزال هذه الأشكال الثلاثة متعاصرة في أجزاء مختلفة من العالم الإسلامي:

الأول: التبعية السياسية التي تمثلت في ممارسة الشعوب الأوروبية الراقية اقتصادياً حكم الشعوب المتخلفة بصورة مباشرة.

الثاني: التبعية الاقتصادية التي رافقت قيام كيانات حكومية مستقلة من الناحية السياسية في البلاد المتخلفة وعبرت عن نفسها في فسخ المجال للاقتصاد الأوروبي، لكي يلعب على مسرح تلك البلاد بأشكال مختلفة ويستثمر مواردها الأولية ويملاً فراغها برووس أموال أجنبية ويحتكر عدداً من مرافق الحياة الاقتصادية فيها، بحجة تمرين أبناء البلاد المتخلفين على تحمل أعباء التطوير الاقتصادي لبلادهم!

الثالث: التبعية في المنهج الذي مارسه تجارب عديدة في داخل العالم الإسلامي حاولت أن تستقل سياسياً وتتخلص من سيطرة الاقتصاد الأوروبي اقتصادياً، وأخذت تفكر في الاعتماد على قدرتها الذاتية في تطوير اقتصادها والتغلب على تخلفها، غير أنها لم تستطع أن تخرج عن فهمها لطبيعة المشكلة التي يجسدها تخلفها الاقتصادي عن إطار الفهم الأوروبي لها، فوجدت نفسها مدعوة لاختيار نفس المنهج الذي سلكه الإنسان الأوروبي في بنائه الشامخ لاقتصاده الحديث"([9]).

وقد أولى الإمام الخميني اهتماماً بالغاً بمسألة التبعية، (وقد تعمداً أن نتوسع بعض الشيء في الحديث العام عن هذه المسألة لكي نضع القارئ الكريم في إطارها) لا اعتقاده، الذي مرت بعض شواهد وأدلته، بأن التبعية هي من إحدى المسببات الرئيسية لتخلف المجتمعات الإسلامية، من جهة، ولاعتقاده، من جهة ثانية، أن النهوض الحقيقي لا يتحقق إلا بالتحرر من التبعية وقبورها وتداعياتها.

فكيف كان الإمام الخميني يفهم مسألة التبعية؟ وما هو موقف منها؟

في مواضع متفرقة من خطاب ألقاه بتاريخ 5 أيلول 1979، قال الإمام:

"إن جميع مشاكلنا ومصائبنا وجميع مشاكل الشرقيين، هي أننا فقدنا أنفسنا وجلس غيرانا في مكاننا".

"... وعندما يذكرون الموضوعات يستشهدون بأقوال الغربيين، وهذا هو العيب، فأنهم متأثرون بالغرب... انهم نسوا ألفاظهم ولغتهم..."

"لقد نسي الشرقيون مفاخرهم كلها ودفنوها ووضعوا الآخرين مكانها".

"ثقافتنا واقتصادنا كانا غربيين، ولقد نسينا أنفسنا حقاً".

"لقد فقدوا وفقدنا قدرتنا وقضينا على كرامتنا ووطنيتنا، فإن لم يتحرر هذا الشعب من التأثير بالغرب فإنه لن ينال استقلاله".

"مادامت هذه التبعية موجودة فلن تحصلوا على الاستقلال".

"إذا أردتم أن تكونوا مستقلين وان تعترفوا بأنكم شعب بذاته، فعليكم أن تخرجوا من تقليد الغرب؛ فمادمت مقيدين بهذا التقليد فلا تتموا الاستقلال".

وفي حديث له بتاريخ 1981/4/2، قال الإمام الخميني:

"لقد عمل الغربيون، إنجلترا في الماضي وبعدها أمريكا وبقية الدول القوية، ليطمئنون البلدان الضعيفة بأنها عاجزة حقاً وغير قادرة على أي شيء، وذلك عن طريق الدعايات المستمرة، وعليها أن تستجدي الدول الكبرى في الشرق والغرب، في مجالات الصناعة والنظام وإدارة البلاد. إن أولئك الذين أرادوا نهب ثروات تلك البلدان الضعيفة وصلوا بعد التفكير والتخطيط إلى أن يجعلوا شعوب هذه الدول تشعر بأنها حقاً ضعيفة. إنهم أرادوا تفهيم البلدان المستضعفة حتى يعتقد الناس بأنهم عاجزون عن الصناعة، ولا يستطيعون إدارة الجيش ولا يقدرون على إدارة البلاد بأنفسهم.. ولقد أدى هذا التصور الذي طُبّق عن طريق دعايات المغتربين إلى تخلف وضياح هذه البلدان".

"هذا هو أساس المخططات التي رسمتها القوى العظمى لشعوب العالم الضعيف، وإن الكتاب الذين كتبوا في سبيلهم والمتأثرين بالغرب التابعين لهم دافعوا بشدة عن هذا الموضوع، حتى اطمأن أهالي هذه البلدان بأنهم لا يستطيعون عمل شيء وليست لهم القدرة في إدارة أي أمر من أمور البلاد أو أمور الجيش أو الصناعة أو سائر الأمور التي تدخل ضمن مظاهر حضارة الإنسان، وعليهم أن يتبعوا الغرب والقوى العظمى ويأخذوا منهم المستشارين العسكريين ومدراء لإدارة البلاد.. إنهم يبقون إلى النهاية أتباعاً خاضعين بسبب هذه العقيدة".

"المهم أن تتحرر أفكاركم... تتحرر من التبعية للقوى الكبرى، فإذا تحررت أفكاركم وعلمتم أننا نستطيع أن نكون صناعيين فسوف نكون كذلك. إن كانت أفكاركم وإيمانكم أننا نقدر أن نعيش مستقلين ودون التبعية للغير فسوف تقدرون على ذلك، إذا آمن الفلاحون بقدرتهم على التقدم في الزراعة وحتى تتمكن من التصدير وعدم التبعية للغير، بل الغير يحتاج إلينا، فإننا نتمكن من ذلك".

وفي وصيته الأخيرة، كتب الإمام: "أوصي الشعب العزيز، انطلاقاً من الحرص عليه والرغبة في الخدمة، بأن عليكم باليقظة والحذر ومراقبة محترفي السياسة المرتبطين بالشرق أو الغرب، كي لا يسوقوكم بوساوسهم الشيطانية إلى تبعية هؤلاء السراق الدوليين..".

"أوصيكم بأن تنتفضوا لقطع دابر التبعية بارادتك الصلبة وجهدكم الدؤوب، واعلموا أن الجنس الآري أو العربي لا يقل عن جنس شعوب أوربا وأمريكا وروسيا، وإذا اكتشف ذاته وأبعد اليأس عن نفسه ولم يتطلع إلى غير ذاته فإنه قادر على انجاز أي عمل وصنع أي شيء على المدى البعيد، وبذلك ستصلون إلى ما وصل إليه أمثال هؤلاء، شريطة التوكل على الله والاعتماد على النفس، وقطع التبعية للآخرين، وتحمل الصعاب من أجل تحقيق حياة كريمة والخلاص من تسلط الأجانب...".

هذا ما توفر لدينا أيام اعداد هذه المقالة، من نصوص للإمام حول مسألة التبعية؛ فماذا نفهم منها؟

قبل المضي في الإجابة عن هذا السؤال، ينبغي التأكيد ان لغة الإمام من الوضوح بمكان، بحيث أنها لا تحتاج إلى شرح، ومن أجل ذلك، فإننا سنحاول تكثيف أفكار الإمام حول مسألة التبعية كما يلي:

1 - إن التبعية بالأساس مسألة نفسية، وبالتالي ثقافية، قوامها فقدان الشعب التابع ثقته بنفسه من جهة، وانبهاره المطلق بالشعب المتبوع إلى درجة التقليد أو الاتباع الأعمى له، من جهة ثانية.

وهذا هو جوهر معنى التبعية الذي يشير إليه القرآن الكريم بقوله: {ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم يرجع بعضهم إلى بعض القول يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا انتم لكانا مؤمنين * قال الذين استكبروا للذين استضعفوا أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم بل كنتم مجرمين * وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل مكر الليل والنهار إذ تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له أنداداً} [سبأ: 31 - 33].

{إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب، وقال الذين اتبعوا لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبرأوا منا} [البقرة: 166 - 167].

فالتبعية علاقة بين طرفين: المستكبر، والمستضعف. والاستضعاف، في الأساس، موقف نفسي وفكري يسيطر على المستضعف بازاء المستكبر، يؤدي إلى خضوعه له.

فالتبعية، إذن، تبدأ من حالة ضعف نفسي عند الشعب المستضعف، وهذا ما سوف يؤثر لاحقاً على أسلوب معالجة الإمام الخميني لمسألة التبعية، كما سوف نرى بعد لحظات.

وهذا يعني ان احتكاك أي دولة مستكبرة بشعب مازال على ثقته العالية بنفسه، لن يؤدي بالضرورة إلى تبعية هذا الشعب لهذه الدولة، بل ان "العامل النفسي" حين يكون وضعه سليماً سيخلق "قوة مقاومة" عند الشعب الذي تعرضت له الدولة المستكبرة بالغزو السياسي، أو العسكري، أو الثقافي، أو الاقتصادي.. وهذه القوة سوف تؤدي بالتدريج إلى: إما تأثر الدولة الغازية بالشعب المغزو، كما حصل للمغول الذين اسقطوا الدولة الإسلامية العباسية وفتحوا عاصمتها بغداد عام 658 هجرية، فأسلم الغزاة ولم يتأثر الشعب الذي تعرض للاحتلال، أو إلى انبثاق ارادة النهوض الحضاري عند الشعب المغزو، لينصرف إلى نفسه وبناء حضارته الجديدة، كما حصل ويحصل الآن للشعب الياباني، الذي انهزم عسكرياً أمام الولايات المتحدة الاميركية في الحرب العالمية الثانية.

فبالأساس إذن، هو في هذه "المقاومة" التي يخلقها العامل النفسي القوي، أو في "السلبية" التي يخلقها العامل النفسي الضعيف، وهو ما يسميه الكاتب الجزائري مالك بن نبي "القابلية للاستعمار".

ما حصل لشعوبنا الإسلامية، حسب رؤية الإمام، هو غزو المستكبرين لها في إحدى لحظات ضعفها النفسي.. ففقدت القدرة على المقاومة، ما عدا بعض الجيوب الاستثنائية، فاستغل الاستكبار حالة "الضعف" هذه، وحولها إلى حالة "تخلف".

وفي إطار هذا الفهم لدور العامل النفسي يمكن أن نفهم علاقة التبعية بين "المركز" أو القلب، و "المحيط" أو التخوم، اللذين يترددان كثيراً في أدبيات مدرسة التبعية، منذ أن استعملها لأول مرة الاقتصادي الأرجنتيني "راؤول بريش" في تحليل نشره عام 1949 ([10]).

وبهذا "العامل النفسي" تفترق المدرسة الإسلامية، التي يمثلها الإمام الخميني، عن مدرسة التبعية، في تحليلها لحالة التخلف، وبالتالي التبعية، للرأسمالية العالمية، حيث ترى مدرسة التبعية، حسب نص اندريه فرانك، أن تغلغل السيطرة الرأسمالية لبلدان المراكز إلى البلاد

التابعة، لم يؤدّ إلى نمو الرأسمالية في تلك البلاد التابعة، مثلما نمت في المركز، ولكنها اتخذت شكلاً آخر وتبلورت أنماط إنتاجية رأسمالية، ولكنها متخلفة، وتابعة، ومشوهة([11]).

2- إن أساس الشعور بانعدام الثقة لدى الشعوب المستضعفة، مهما تكن المسببات الأخرى، هو من عمل الغربيين؛ فالغرب عمل عبر سنوات طوال، من الغزو الفكري، على خلق هذا الشعور السلبي، أو تنمية بذوره الأولى في حال وجودها في رحم المجتمعات الضعيفة، وعمل على استغلال حالة الضعف العام الموجودة في هذه المجتمعات من أجل إشاعة حالة عدم الثقة بالنفس في مقابل الانبهار بالغرب، والتي ستكون لاحقاً الأساس النفسي لحالة التخلف والتبعية في المجتمعات الضعيفة. وهنا، بالضبط، يأتي الموقع، أو الدور التخريبي إلى أقاليم العالم الإسلامي، فضلاً عن الدور الذي لا يقل خطورة عن ذلك، والذي مارسه الإعلام الغربي في هذا الخصوص. ومن غريب الصدف أن "التبعية الإعلامية" التي تعاني الآن منها البلدان النامية هي، ربما، من أشد أشكال التبعية إضافة إلى كونها شديدة الوطأة، كونها "غير منظورة" بالعين المجردة!

3- غير أن التأكيد على "العامل النفسي" لا ينفي حقيقة أن التبعية تحولت لاحقاً إلى حالة شاملة، بل إن هذا هو المطلوب، وبالتالي، فإن العامل النفسي المحاط بعوامل داخلية وظروف خارجية أخرى، انتج، في سياق المخطط الاستكباري، الأشكال المتعددة المعروفة للتبعية الصناعية، والتبعية الإعلامية، وغير ذلك.

4- وتلعب الحكومات المحلية العملية، والنخب الفكرية التابعة فكراً للاستكبار، دوراً كبيراً في تكريس التبعية للاستكبار، حسب تحليل الإمام الخميني. وهو استنتاج تدعّمه معطيات الواقع الملموس بدرجة مطلقة. وقد أوردنا أقوال الإمام في فقرة سابقة فلا نعيد، ولكننا نشير استطراداً إلى أن هذه النظرة تتفق مع قول مدرسة التبعية بأن "البرجوازية التابعة" - أي النخب العميلة الحاكمة - "تقوم بدور أساسي في تدعيم حلقة التبعية والتخلف"([12]). ولذلك، فإن الحكومات والنخب التابعة الحاكمة تلعب دوراً خطيراً في استمرارية التبعية وفي آلية اشتغالها، كونها توفر الأطر الرسمية والقانونية لدوران عجلة التبعية واشتغالها في داخل المجتمع التابع. وإذا تذكرنا القاعدة القائلة بأن الدولة أقوى من المجتمع في البلدان المتخلفة، استطعنا أن نتصور بشكل أوضح خطورة هذا الدور، الأمر الذي سيؤثر على "استراتيجية" التحرر من التبعية التي وضعها الإمام وتحرك على أساسها حتى حقق أهم بنودها، بفضل من الله تعالى.

5- والآن، ما هو الموقف من حالة التبعية؟ هل يتعين الإذعان إليها أم يجب التمرد عليها؟

كما في كل مواقفه، يبدو الإمام الخميني في هذه المسألة واضحاً وحاسماً إلى حد القطع. يجب رفض التبعية والتمرد عليها، لأنها تفتقد لأي أساس موضوعي، فليس شعباً أفضل من شعب، ولا تملك شعوب أوروبا وأميركا وروسيا مزايا تكوينية أفضل من تلك التي يمتلكها مثلاً الشعبان الآري والعربي! وأنه لأمر جدير بالملاحظة أن الكثير من أحاديث الإمام الخميني عبارة عن خطاب تحريضي يدعو الشعوب التابعة إلى التمرد على حالة التبعية، والثورة على الاستكبار، ورفض ممثليه المحليين، على مستوى الحكومات أم على مستوى النخب الثقافية.

6- والخلاص من التبعية ضرورة؛ فهو ليس مجرد رغبة "وطنية" أو "قومية" تعبر عن حالة نفسية أو شعورية، بل هو ضرورة عملية لتحقيق الاستقلال والتنمية، ومن ثم تطبيق الإسلام في آن واحد. فلا يمكن تحقيق استقلال حقيقي في ظل التبعية. وفي ظلها أيضاً، يبقى الحديث عن التنمية "هواءً في شبك" لأن القوة المستكبرة المتبوعة لن تسمح للشعوب المستضعفة التابعة بأن تحقق نمواً حقيقياً. وأخيراً فإن إقامة نظام إسلامي يبقى حليماً بعيد المنال ما لم تتحرر الشعوب الإسلامية من أسر التبعية للغرب أو الشرق. وفي هذا السياق ينبغي صرخة الإمام مدوية وبأفق كوني طاع، وهو يخاطب الشعوب المستضعفة في وصيته قائلاً: "فانتفضوا يا مستضعفي العالم، وأبته البلدان الإسلامية، ويا أيها المسلمون، وانتزعوا الحق بقوة.. لا تهربوا ضجيج دعايات القوى الكبرى وعملائها، واطردوا من بلدانكم الحكام الجناة الذين يسلمون حصاد كدحكم لأعدائكم وأعداء الإسلام العزيز، وامسكوا أنتم والمؤمنون العاملون لخدمة الشعب بزمم الأمور والتفوا جميعاً حول راية الإسلام المجيدة، وانتفضوا مدافعين في مواجهة أعداء الإسلام... وتقدموا باتجاه تأسيس حكومة إسلامية في جمهوريات حرة مستقلة، وبتحقق ذلك ستكبحون جماح مستكبري العالم كافة، وسيصل المستضعفون كافة لامامة ووراثة الأرض، على أمل تحقق ذلك اليوم الذي وعد الحق تبارك وتعالى"

7- والإمام يرى أن التحرر من التبعية أمر ممكن، وربما يختلف في نظريته هذه عن مقولات مدرسة التبعية التي ترى صعوبة تحقيق ذلك في ظل النظام الدولي الراهن. ولكنها غير قادرة على سلب إرادة التحرر من هذه الشعوب بصورة كاملة. والأصل في الفعل، عند الإمام، هو الإرادة. فالإرادة الحرة تصنع الفعل الحر، والإمام يتخذ من "التجربة الإسلامية في إيران" دليلاً على إمكان ذلك، حيث يقول في خطاب 1981/4/2، مخاطباً الشعب الإيراني: "لقد فهمتم وأفهمتم الدول والشعوب المستضعفة خلال هذه المدة التي انقضت من ثورتكم وقيامكم أنه يمكن الوقوف أمام أمريكا المتجبرة وروسيا الطاغية. لقد ثرتم ثورة الرجال منذ سنتين ووقفتم أمامهم وقطعتم أيدي الجميع عن بلادكم، ورأيتم كيف كان ذلك أمراً ممكناً تقدرون عليه، بالرغم من أنكم لا تماثلونهم في القوة العسكرية والقوة الصناعية، ولكنكم صمدتم، وكل شعب عزم على أمر واعتقد أنه يستطيع إنجازه فإنه سيحققه حتماً، فالأساس هو الثقة بالنفس".

8- وحين يكون الإمام بصدد تحديد بداية الطريق للسير الثوري من أجل التحرر من التبعية، فانه يعود إلى اصل تحليله لمسألة التبعية، أي إلى العامل النفسي، وبالتالي الإنسان نفسه. والإمام يرى "إن منشأ جميع الهزائم والانتصارات هو الإنسان نفسه. الإنسان أساس الانتصار وأساس الهزيمة". وإن فالخطوة الأولى لفك أسر التبعية تتجسد، وتتلخص، بتحرير الإنسان نفسه من التبعية للشرق أو الغرب.. وتحرير نفس الإنسان من التبعية، يعني:

- عودة الثقة بالذات... العودة إلى الذات..

- القضاء على الانبهار الفكري والنفسي بالغرب أو الشرق.

- الإيمان بالقدرة الذاتية على الخلاص من التبعية، والإيمان بإمكانية ذلك.

وتم إقصاء الحكومات والنخب العميلة.

ويتحدث الإمام في مواضع كثيرة ومناسبات مختلفة عن الخطوات العملية الواجب اتخاذها بعد إقصاء الحكومات العميلة للقضاء على التبعية وتكريس الاستقلال، يخرجنا الحديث عنها عن منهجية هذه المقالة.

البراءة من النظام الدولي القائم

في السنة التاسعة للهجرة، أي بعد تسع سنوات من قيام الدولة الإسلامية الأولى في المدينة المنورة، بقيادة الرسول محمد (ص)، نزلت سورة براءة، أو التوبة([13])، التي يقول مطلعها:

{براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين}.

وفي عام 1407هـ، اصدر الإمام الخميني "بيان البراءة" أي بعد حوالي 8 سنوات من قيام النظام الإسلامي في إيران بقيادة الإمام. وقد تضمن بيان البراءة التاريخي، اعلاناً قطعياً ونهائياً ببراءة الإمام، ومعه النظام الإسلامي، من النظام الدولي القائم، جسدت الاتساق الطبيعي والموضوعي لنظرة الإمام إلى هذا النظام ودوره البشع في إلحاق الأذى بالنسبة للشعوب الإسلامية والمستضعفة كافة. ومما جاء في بيان البراءة:

"إن صرخة براءتنا من المشركين والكفار اليوم هي صرخة البراءة من الظلم والظالمين، وصرخة أمة ضاقت ذرعاً باعتداءات الشرق والغرب وعلى رأسها أميركا وأذنابها، وغضبت من نهب بيتها وثرواتها".

"إن صرخة براءتنا هي صرخة الشعب الأفغاني المظلوم، وإنني لأسف لعدم استجابة الاتحاد السوفياتي لنصحي وتحذيري بشأن أفغانستان فهاجم هذا البلد الإسلامي".

"كذلك فإن صرخة براءتنا هي صرخة الشعوب المسلمة في أفريقيا، صرخة إخواننا وأخوانتنا في الدين الذين يكتون بسياسات ظلم الظالمين العنصريين بسبب لونهم الأسود".

"إن صرخة براءتنا هي صرخة الشعبين اللبناني والفلسطيني وجميع الشعوب والبلدان الأخرى التي تنتظر إليها القوتان العظميان الشرقية والغربية خاصة أميركا وإسرائيل بعين الطمع، وتقوم بنهب ثرواتها وفرض عملائها ومرترقتها على شعوبها، وتهيمن على أراضيها من على بعد آلاف الكيلومترات وتحتل حدودها المائية والبرية".

"إن صرخة براءتنا هي صرخة جميع الذين ما عادوا يتحملون تفرعن أميركا وتواجدها السلطوي، ولا يريدون أن تخمد صرخة غضبتهم وتذمرهم، وتخفق في حناجرهم إلى الأبد، وعقدوا العزم على العيش حياة حرة كريمة والموت أحراراً وأن يكونوا هم الصرخة المدوية للأجيال".

"إن صرخة براءتنا هي صرخة الدفاع عن الشعوب والكرامات والنواميس، صرخة الدفاع عن الثروات والرساميل، انها الصرخة المؤلمة للشعوب التي مزقت قلوبها خناجر الكفر والنفاق".

"صرخة براءتنا هي صرخة الفقراء والجياع والمحرومين، الذين نهب الجشعيون والقراصنة الدوليون حصيلة كد يمينهم وعرق جبينهم، أولئك الذين امتصوا دماء الشعوب الفقيرة والفلاحين والعمال والكادحين باسم الرأسمالية والاشتراكية والشيوعية، وربطوا العصب الحيوي لاقتصاد العالم بأنفسهم وحرموا شعوبه من استيفاء أبسط حقوقها المشروعة".

ولن نملك بلاغة أقوى وأوضح من كلمات الإمام في بيان موقفه العام، أو هناك كلمة ابلغ في التعبير عن هذا الموقف من كلمة "البراءة". إن الإمام يرفض الاعتراف بالنظام الدولي، بمعنى الاعتراف بمشروعته وحقيته ومصداقيته، فهو نظام ظالم، وبالتالي غير مشروع،

والدفاع عن مصالح المسلمين ومصالح المستضعفين يستدعي رفض هذا النظام والتصدي له. ويرفع الإمام مسألة صراعه السياسي والتاريخي مع النظام الدولي إلى درجة الشأن الشخصي الخاص، حين يقول، في بيان البراءة:

"ولتكن القدرات والقوى الكبرى وعملاتها على ثقة بأن الخميني سيواصل طريق الجهاد ضد الكفر والظلم والشرك وعبادة الأصنام حتى لو ظل وحيداً، وسيسلب بعون الله تعالى، وبمؤازرة متطوعي العالم الإسلامي الحفاة الراحين تحت نير، الدكتاتوريين، سيسلب النوم من أجفان السلطويين والعملاء الذين يتمادون في ممارسة الظلم والاضطهاد".

وإذن، فنحن بصدد دعوة صريحة، ولكن ساخنة جداً، إلى الثورة على النظام الدولي الظالم وتغييره. والإمام لم ينفك يكرر هذه الدعوة، وكأنه يسعى إلى ثورة عالمية، تقوم بها الشعوب المستضعفة، لتأسيس نظام دولي جديد. وبصدد دعوة الإمام إلى الثورة العالمية على النظام الدولي، سوف نجد أنفسنا في بحر من النصوص والكتابات والخطابات الثورية، التي ترفع نداء الثورة، ولذا فسوف نكتفي بإيراد نماذج منها خشية الاطالة (رغم أننا نعتقد أن كلام الإمام لا يُمل)!

- من نداء بتاريخ 29 رمضان 1401هـ:

"ينبغي للمسلمين في كل بقاع العالم أن يخلصوا أنفسهم من أسر وعبودية الشياطين الكبار والقوى العظمى".

"انهضوا وخذوا زمام مقدراتكم بأيديكم. إلى متى تقعدون لتعين واشنطن وموسكو مقدراتكم؟".

- من نداء تاريخ 1979/12/23:

"يا مستضعفي العالم، انهضوا وتحالفوا واطردوا الظالمين من الميدان، فإن الأرض لله ووراثتها المستضعفون".

- من البيان التاريخي بتاريخ 1 ذي الحجة 1407هـ:

"يتحتم على جميع المسلمين والمستضعفين في العالم أن يستغلوا الفرصة المتاحة ويتكاتفوا ليحرروا أنفسهم من قيود الدول العظمى".

- من خطاب الإمام بتاريخ 5 محرم 1408هـ:

"أيها المسلمون في جميع اقطار العالم، لا تفكروا في الابقاء على الوضع القائم، بل فكروا في التخلص من الأسر وفي التحرر من العبودية والثورة على أعداء الإسلام".

"لم يبق أمامنا إلا الجهاد، ويجب تهشيم مخالب الدول العظمى وأسنانها، وبخاصة أميركا".

وينبغي أن نلاحظ أن أميركا تحتل حصة الأسد من دعوة الإمام إلى الثورة؛ فأميركا هي "أم الفساد" (خطاب بتاريخ 1402/2/21هـ). والنظام الدولي هو، في التحليل الأخير، يخضع في جزء كبير منه إلى الهيمنة الأميركية، بل "إن العالم الإسلامي اليوم - كما قال الإمام في 79/9/29 - أسير بيد أميركا". ولذا نجد أن الإمام يحدد موقفه "الاستراتيجي" من أميركا في نداء تاريخ 1981/6/6، قائلاً: "يجب أن تعلم أميركا أن الشعب العزيز والخميني لن يسمح لها بالراحة حتى القضاء التام على مصالحها، ويستمران في النضال الإلهي حتى قطع يديها".

وكما انطلق الإمام في دعوته إلى التحرر من أسر التبعية، فانه هنا ينطلق في دعوته إلى تغيير النظام الدولي من إيمانه بإمكانية ذلك أيضاً، حيث يقول في بيانه التاريخي بتاريخ 1 ذي الحجة 1407هـ: "إن قصور الاستكبار العالمي وقدراته العسكرية والسياسية لهي أشبه ببيت العنكبوت، سهل التمزق".

بل إن الإمام لا يتحدث فقط عن الامكانية؛ انه يبشر بالوقوع، يبشر ببزوغ فجر النظام الدولي الجديد، فيقول في خطابه بتاريخ 5 ذي الحجة 1408 هـ: "لقد شارف عهد القنوط واليأس في منطقة الكفر على الانتهاء وازدهرت حدائق الشعوب".

أهداف استراتيجية التغيير الثوري للنظام الدولي القائم:

في سياق أحاديته عن ضرورة تغيير النظام الدولي الراهن، حدد الإمام أهداف عملية التغيير التي يمكن تكثيفها بما يلي:

أولاً: القضاء على الفساد، بمختلف أنواعه وأشكاله، في العالم:

وتحدث الإمام عن هذا الهدف في وقت مبكر؛ ففي تصريح بتاريخ 1979/2/28، قال: "نحن نريد أن نعرف أصل الفساد ونعرفه للعالم لكي نقضي على الفساد في العالم".

وفي خطاب 5 ذي الحجة 1408 هـ، قال الإمام:

"إننا نعتزم إيباس الجذور الفاسدة للصهيونية والرأسمالية والشيوعية في العالم، لقد قررنا أن نستأصل - بعون الله العظيم وعنايته - الأنظمة القائمة على هذه القوائم الثلاث".

"إننا سنمنع بكل وجودنا وطاقتنا توسع الابتزاز الأميركي وتوسع حصانة عملاء أميركا، حتى لو اقتضى الأمر منا الكفاح بالثورة".

ثانياً: تحرير العالم الإسلامي وتوسيع النفوذ السياسي للإسلام:

لقد شغل العالم الإسلامي، كله، ومظلومية شعوبه، وخضوعه لهيمنة الدول الكبرى، حيزاً كبيراً جداً من اهتمام الإمام وجهاده. وكان الإمام ينظر إلى العالم الإسلامي كوحدة حضارية سياسية وتاريخية وجغرافية وبشرية واحدة، وقد جعل من أهداف الثورة الإسلامية العمل على تحرير العالم الإسلامي من سيطرة المستكبرين، والانطلاق من عالم إسلامي متحرر، إلى توسيع النفوذ السياسي في كل مناطق العالم.

وفي هذا الصدد قال الإمام في خطاب 5 ذي الحجة 1408 هـ:

"إننا مع اعلاننا البراءة من المشركين، كنا وما نزال مصممين على تحرير الطاقات المكبوتة للعالم الإسلامي".

"إننا كنا وما نزال نسعى لتوسيع نفوذ الإسلام في العالم".

"لقد قررنا (...) أن نشيع في عالم الاستكبار نظام اسلام رسول الله (ص) وستشهد الشعوب الأسيرة ذلك عاجلاً أم آجلاً".

إن مجموع كلمات الإمام حول هذه المسألة تسمح بالاعتقاد أن الإمام الخميني كان يفكر، فضلاً عن تغيير العالم بأكمله، بإقامة نظام دولي اقليمي يشمل العالم الإسلامي كله، وربما تكون إيران مركزه، لكي يكون بإمكان المسلمين مقارعة النظام الدولي الاستكباري. فقد كان الإمام يتحدث عن تحول المسلمين إلى "أمة لا تقهر وبنيان مرصوص، لا تستطيع معه القوى العظمى الشرقية والغربية الوقوف بوجهها" (البيان التاريخي في الأول من ذي الحجة عام 1407 هـ).

وقال الإمام الخميني كلمته التاريخية والقاطعة بهذا الصدد في خطاب 5 ذي الحجة 1408 هـ:

"إنني اعلنها بصراحة أن الجمهورية الإسلامية الإيرانية تؤسس وتعمل بكل وجودها لحياء الشخصية الإسلامية لمسلمي العالم كله، ولا ترى سبباً لأن تمتنع عن دعوة مسلمي الدنيا إلى تأييد مبدأ امتلاك السلطة في العالم".

وقال: "علينا بكل وجودنا أن نبذل ما في وسعنا، من أجل التعاون مع شعوب العالم وحل مشكلات المسلمين وقضاياهم، والدفاع عن المكافحين والجائعين والمحرومين، وان نعد هذا الهدف من مبادئ سياستنا الخارجية".

"إننا نعلن أن الجمهورية الإسلامية الإيرانية هي إلى الأبد حامية المسلمين الأحرار في العالم وملجأهم، وأن دولة إيران - بصفتها قلعة عسكرية منيعة - ستؤمن لجنود الإسلام احتياجاتهم، وستعرفهم بالأسس المعنوية والتربوية للإسلام، وكذلك بمبادئ الكفاح وأساليبه ضد أنظمة الكفر والشرك".

واعتقد أن هذه المسألة، أي مسألة "النظام الاقليمي الإسلامي" في الفكر السياسي للإمام الخميني بحاجة إلى بحث أوسع وأعمق، لأهميتها الخاصة، الأمر الذي ينوء بحمله هذا المقال.

ثالثاً: إقامة العلاقات الدولية، أو النظام الدولي الجديد، على أساس العدل والمساواة ورفض الظلم:

حدد الإمام الخميني هدفاً آخر لاستراتيجية التغيير الثوري للنظام الدولي القائم، وهو إقامة العلاقات الدولية، التي هي التعبير الأكثر شمولية عن آلية اشتغال النظام الدولي، على أساس العدل والمساواة ورفض الظلم. ويستند الإمام في هذا - كما في غيره - إلى الإسلام الذي "لا يظلم أحداً ولا يقبل الظلم" (خطاب بتاريخ 1979/5/19).

وقد شرح الإمام هذا المفهوم من حديث بتاريخ 1979/12/17، قال فيه:

"وأما العلاقات فيجب أن تكون متقابلة، وأما العلاقات التي على أساس الظلم والاعتداء فاننا في غنى عنها".

"لا تكون العلاقات على أساس أن يجلس شخص في القصر الأبيض ويأمرني بأن أعيش في الكوخ أو أن يكون هو الحاكم، وأكون أنا المحكوم!"

وفي الذكرى الثانية لانتصار الثورة الإسلامية، أي في شهر شباط 1981، قال الإمام:

"إن الأمة الإسلامية تعتنق مبدأ يمكن تلخيصه في كلمتين: لا تظلمون ولا تُظلمون".

ويحرص الإمام الخميني على تأكيد حقيقة أساسية مفادها أن تغيير النظام الدولي القائم، الظالم، وتحقيق الأهداف المحددة للجهاد الإسلامي على الصعيد العالمي، ومن ثم إقامة النظام الجديد، العادل، يتطلب ثمناً باهظاً على الإسلاميين الرساليين والدولة الإسلامية دفعه؛ لأن تحقيق الأهداف الكبيرة لا يتم بدون مقابل، والمقابل المقصود هو التضحيات التي يتعين على الإسلاميين تقديمها.

يقول الإمام الخميني (البيان التاريخي): "لقد أدركنا تماماً أن علينا دفع الثمن باهظاً من أجل تحقيق الهدف الإسلامي الكبير، وأن نقدم ضحايا أعزاء من أجل ذلك الهدف الإلهي".

ويؤكد: "ليعلم الشعب الإيراني الشريف وجميع مسلمي وأحرار العام بأننا لو أردنا الوقوف على أقدامنا من دون الاعتماد على قوى اليسار واليمين فإن علينا دفع ثمن باهظ من أجل الحرية والاستقلال".

السلوك السياسي على الصعيد الدولي

بناءً على هذه النظرات المبدئية المنبثقة من الأسس الإسلامية أو المنسجمة معها، صاغ الإمام، إما عبر التنظير البحث، أو من خلال الممارسة العملية، خط السلوك السياسي للدولة الإسلامية، والإسلاميين عموماً، على الصعيد الدولي، ويمكن تلخيص قواعد هذا السلوك بما يلي:

1 - إن الرفض المبدئي للنظام الدولي القائم لا يعني رفض التعامل السياسي مع مقرراته المختلفة، بالشروط وضمن المبادئ التي يضعها الطرف الإسلامي. إلا أن مبدأ التعامل يتحرك من المنع إلى الجواز، بناءً على المصلحة الإسلامية العليا التي يراها القائد الأعلى للدولة الإسلامية.

وقد قدّم الإمام الخميني مثلاً عملياً على هذه المسألة، وهي قضية رفض ومن ثم قبول القرار الدولي رقم 598، القاضي بإيقاف الحرب العراقية الإيرانية. فقد فسر الإمام قبوله بالقرار القول:

"وافقت على القرار الدولي وعلى وقف النار، وأرى ذلك في المرحلة الحاضرة في مصلحة الثورة والجيش". (خطاب 5 ذي الحجة 1408هـ).

2 - لمبدأ الأساس والقاعدة العامة التي يتحرك فيها الطرف الإسلامي على الصعيد الدولي هي: "لا شرقية ولا غربية". وقد شرح الإمام هذا المبدأ عدة مرات، فقد قال في 79/7/11:

"لا شرقية ولا غربية" - معنى ذلك أننا لا نسمح لأحد بالتدخل في شؤون إيران".

وقال في بيانه التاريخي (1 ذو الحجة 1407هـ).

"إن شعارنا اللامشرقية واللاعربية هو شعار الثورة المبدئي في عالم الجياع والمستضعفين، والذي يجسد السياسة الحقيقية والنمط الحقيقي لعدم انحياز الدول الإسلامية، والدول التي ستقبل في المستقبل القريب، وبعون الله، الإسلام كرسالة منقذة للبشرية".

3 - كما وضع الإمام عدداً من المبادئ الحاكمة للسلوك السياسي للطرف الدولي الإسلامي، منها:

- "إن الأمة الإسلامية تعتنق مبدأ يمكن تلخيصه في كلمتين: لا تظلمون ولا تُظلمون".

- "ولا نريد الاعتداء على أي بلد طبقاً لما أمرنا به الإسلام ولا نريد الاعتداء على أحد، ولا ينبغي لنا ذلك".

- "تحتزم الاتفاقيات".

والحمد لله رب العالمين

-
- [1]) طلال مجذوب، "إيران"، ص281.
- [2]) اقرأ: "العرب ومستقبل النظام الدولي".
- [3]) اقرأ: "النظام الاقليمي العربي".
- [4]) كنا قد نشرنا هذا المقطع، ضمن مقالة بعنوان: "النظام الدولي القائم وخيارات الإسلاميين" في جريدة السفير بتاريخ 1988/7/4.
- [5]) د. محمد عزيزي شكري، "المدخل إلى القانون الدولي العام"، ص3.
- [6]) د. اسماعيل صبري مقلد؛ "العلاقات السياسية الدولية"، ص669 - 670.
- [7]) د. اسامة الغزالي حرب؛ "الأحزاب السياسية في العالم الثالث"، ص63.
- [8]) المصدر السابق، ص65 - 66.
- [9]) الإمام الشهيد السيد محمد باقر الصدر؛ "اقتصادنا"، ص9.
- [10]) د. اسامة الغزالي حرب، مصدر سابق، ص64.
- [11]) المصدر السابق، ص67.
- [12]) المصدر السابق، ص68.
- [13]) السيد محمد حسين الطباطبائي، "الميزان في تفسير القرآن"، الجزء 9، ص161.

الفصل الرابع: الإمام الخميني(ره) ومشكلة التبعية

مصطفى الحاج علي

قبيل الشروع في تفاصيل البحث المقرر لهذه الصفحات نجد من الضروري الإشارة إلى ملاحظتين أساسيتين حول فكر الإمام وشخصه بغية الإمساك بالفهم الممكن لما تركه لنا من ارث فكري وجهادي: أولى هاتين الملاحظتين تتعلق بالمازئ النوعي الذي امتاز به الإمام، وهو قدرته على اصطناع لغة عرفانية إسلامية أصيلة تتجاوز حالات الوجد الصوفي المنعزل والفردى إلى مقام الجمع بين الوحدة والكثرة في الوجود. بكلام أوضح، استطاع الإمام، وعلى نحو فذ وفريد في تاريخ العرفان الإسلامي الأصيل، أن يمزج بين روحية العرفان ومشاكل وقضايا الناس والمجتمع. والحقيقة، أن هذه القدرة لدى الإمام ما كانت لتكون لولا ذوبانه المطلق في الإسلام فكراً

وممارسة وتاريخاً ونصاً وروحاً وشهادة وغيباً. فتعلقه المطلق بعالم الغيب على ما فيه من جلال وجمال لم يدفعه إلى الاندكاك الفنائي في ذلك العالم والغياب عن عالم الشهادة، بل كان التلاحم والدمج بين الاثنين ينساب برفق وعذوبة في كل كلمة يتقوه بها حتى في المسائل التي تبدو وكأن لا صلة لها مع ذلك العالم كالمسائل السياسية والاقتصادية. فرويته الله في كل شيء جعلت كل شيء عنده وليد هذه الرؤية. ومن الواضح أن هذه الملاحظة تجعلنا وجهاً لوجه أمام حاجز من الصعب تجاوزه لدى التصدي لفكر الإمام وشخصه وجهاده بالقراءة أو التحليل؛ هذا الحاجز يتمثل بحاجة كل من يريد التصدي لمثل هذه الشخصية قراءة وتحليلاً إلى القدرة على تمثيل تلك الروحية، لكن هيهات لمن هو مثلاً، وعلى حد تعبير الإمام نفسه، الذي لم يأت بعد "من طي العدم إلى الوجود" [1] أن يفي حق هذا الرائد الحق من رواد "قافلة الوجود" الحق.

وثانية هاتين الملاحظتين تلك التي يمكن استفادتها من جوهر الملاحظة الأولى؛ إن الإمام لم يكن رجل فلسفة أو فقه أو عرفان أو أدب أو أخلاق أو سياسة وحكم.. بل كان رجل الإسلام، وبهذا الاعتبار فقد كان رجلاً بمستوى الوجود الإنساني ينبسط مع مداه الربح وينبض مع كل خلجة من خلجاته، وبهذا الاعتبار فقد كانت اهتماماته لا تقف عند حد محدود أو نعت منوعات، بل كانت تتمثل كل القضايا والمشاكل والمسائل التي تواجه الإنسان المظلوم والمستضعف والمقهور لتصوغ منها رأياً ثاقباً وموقفاً متماسكاً. ففكر الإمام نسيج مفرد من العضوية والانتظام والشمولية والتماسك، بحيث قلما نجد له نداءً أو خطاباً أو وصية لم يضمها رأياً أو موقفاً من مجمل المسائل التي تتحدى عالم المستضعفين والمقهورين. ومن هنا، فإن أي معالجة لأي ناحية من نواحي فكر الإمام لا تصيب مرادها ما لم يؤخذ موقعها في منظومة منطق ومنهجه ومفاهيمه بعين الاعتبار.

والآن، وبعد هاتين الملاحظتين، فإن النقطة المركزية التي سنتصدى لها في هذه العجالة هي مسألة التبعية بكل تجلياتها عند الإمام. ومن المعروف أن مشكلة التبعية هي مشكلة المستضعفين والبلدان المقهورة في كل مكان وتحديدًا منذ عام 1945، أي منذ برزت إلى الوجود قوتان عظيمتان شكلتا مركزي استقطاب على كافة الصعد والمستويات، هما الولايات المتحدة الأميركية والاتحاد السوفياتي. فافتاقية "يالطا" التي وقعت في المرحلة الختامية للحرب العالمية من عام 1945، أرست نظاماً عالمياً جديداً يقيد الهيمنة، وهو ما عرف بنظام الاستقطاب الدولي من قبل مركزين رئيسيين: الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي. هذا النظام الذي جعل العالم مناطق نفوذ وهيمنة مقسمة بين هذين المركزين. ومع هذا التقسيم وازدياد حدة التنافس والصراع الدولي على مناطق النفوذ "الاستراتيجية"، والتي منها المناطق الإسلامية على نحو مخصوص، أخذت تبرز مشكلة التبعية كإحدى المشاكل الرئيسية، إن لم نقل المشكلة الأم لباقي المشاكل، التي مُني بها عالم المستضعفين والمقهورين في كل مكان؛ فقد أدت مشكلة التبعية إلى تصدع البناء الحضاري والتاريخي للشعوب، كما أدت إلى فقدان الهوية والشعور بالانتماء الأصل، كما أدت إلى التخلف والتقهقر إلى الوراء، فضلاً عن السلسلة الطويلة من الحروب الداخلية والخارجية المهلكة للحرث والنسل، كما أفقدت الشعوب القدرة على الابداع والانفعا إلى الأمام في حياة حرة وكريمة.

وقد أدرك الإمام بعمق خطر استمرارية الشعور بالتبعية والرزحان تحت وطأتها، لذا كان أول شعار مركزي لثورته هو "لا شرقية ولا غربية". وقد يتبادر إلى الذهن أن هذا الشعار ليس بجديد وأنه مستوحى من سياسة عدم الانحياز التي سقطت مع وفاة مؤسسيها الكبار من أمثال نهر في الهند وعبد الناصر في مصر وتيتو في يوغسلافيا، وهي سياسة حاولت أن توحى بالوقوف خارج فلك التجاذب الدولي المشار إليه آنفاً، لكنها، وكما أثبت التاريخ المعاصر، لم تفلح لأكثر من سبب. صحيح أن هذا الشعار يدعو إلى عدم الانحياز للشرق أو للغرب، وبالتالي، للخروج من دائرة الاستقطاب الدولي، بيد أنه يدعو أيضاً إلى الاختيار، كما يدعو للخروج على النظام الدولي السائد. بكلام أوضح، أن الإمام برفعه لهذا الشعار لم يستخدم مفردات سبق استخدامها، إنما استوحى الشعار من القرآن الكريم، ومن إحدى آياته المباركة، وبالتحديد الآية (35) من سورة النور، حيث وردت على الشكل التالي: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّي يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يَضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾. فعدم الانحياز هنا ليس مجرد موقف سلبي، وإنما هو اختيار وانتماء في نفس الوقت انتماء إلى تلك الشجرة المباركة إلى تلك الزيتون التي يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار. بل إن محض هذا الانتماء هو الذي يشكل المضمون الفعلي للموقف من عدم الانحياز، كما يشكل المحدد المسبق لهذا الموقف. فللشعار أصالة لا محالة، وأصالته تشكل جوهر عملية إعادة تشكيل الوعي بكل مستوياته ومفرداته ومفاهيمه ومصاديقه؛ فالادراك - ادراك الذات - لدى الأمة والأفراد وفق هذا الشعار، لا يتم من خلال الآخر، وليس وفق ما يشتهي الآخرون وما تملي مصالحهم، بل يبدأ من الذات لنفسها ومن تاريخها وحضارتها وتراثها ومن خلال تجديد انتمائها التاريخي والحضاري والثقافي لمبادئها ومعتقداتها. وبهذه الخطوة الأولى تبدأ عملية الانسحاب من دائرة الإنسان الدمية إلى دائرة الإنسان الفاعل والحر، ومن دائرة التمزق والتشتت والتناحر، إلى دائرة الوحدة والانسجام والوئام. إن هذا الشعار - المبدأ - هو على حد تعبير الإمام بمثابة "هجرة إلى الله تعالى ورسوله الأعظم (ص)" وهو "إعلان الحب والوفاء تجاه الحق والإعراب عن السخط والبراءة تجاه الباطل أبداً؛ فالخلاص عشق الموحدين لا يثبت إلا بتجلي النفرة من المشركين والمنافقين تجلياً كاملاً" [2]. ويذهب الإمام أكثر من ذلك ليؤكد أن جوهر مبدأ "لا شرقية ولا غربية" إنما يقوم على كونه نوعاً من "تجديد لميثاق الكفاح، وتمارين لتنظيم صفوف المجاهدين من أجل مواصلة الصراع ضد الكفر والشرك والوثنية. ولا ينحصر أيضاً بالشعار، إذ هو بداية الإعلان عن ميثاق الكفاح وتعبئة جنود الله أمام جنود إبليس واتباع إبليس، وهو يعتبر من الأصول الأولية للتوحيد" [3]. هذا المبدأ ونداء البراءة الذي كان الإمام يحض عليه دائماً في موسم الحج بمثابة الشيء الواحد، بل إن الثاني يشرح عملياً

ويوضح المراد من الأول. ومما جاء في أحد النداءات: "ندأونا اليوم بالبراءة من المشركين والكافرين إنما هو صرخة ألم من ظلم الظالمين، وصرخة أمة ضاقت صدرها مما عانتها من اعتداءات الشرق والغرب وعلى رأسهم أميركا وأذئابها، وسلبت أوطانها وثوراتها"([4]).

إذن، هذا المرتكز السياسي لدى الإمام ليس مجرد موقف نظري - سلبي وإنما هو موقف عقائدي يضرب بعيداً ليبلغ الجذر الأول للإسلام ألا وهو جذر التوحيد، وهو الجذر الذي لا يرى موقفاً وعزة وكرامة للإنسان خارج الهدف الأسمى وهو السلوك إلى الله تعالى؛ فالله هو الهدف المركزي لرحلة الإنسان في هذه الحياة، ويقدر ما يطوي من خطوات القرب منه بقدر ما ينجز من كماله الممكن، وأما خارج المسير إلى الله فلا يوجد إلا الكفر والشرك والنفاق والفسوق والعصيان. كما أن وحدة هذا الهدف هي التي تكفل للإنسان وحدته الداخلية والخارجية، وأما خارجه فلا يقع إلا عالم الكثرة الذي يسوده التششت والتناحر. ومن الواضح، أن الترجمة العملية لهذا المبدأ تقتضي التخلص والخلوص من كل ما ينافيه. وبهذا الاعتبار، فإن لهذا المبدأ فاعلية سلبية نافية بالقدر الذي لديه فاعلية إيجابية ومثبتة. وبلا اعتبار الأول، فهو يقتضي جهاد وكفاح كل أنواع الشرك أو ما يمكن أن يؤدي إليه في الداخل والخارج. باختصار، أن لهذا المبدأ فاعلية التحرر من كل القيود التي يمكن أن تكبل مسيرة الإنسان التوحيدية نحو الله، سواء أكانت قيوداً طبيعية أم سياسية أم اقتصادية أم ثقافية... الخ.

وبهذا الاعتبار، فإن هذا المبدأ لابدً واصل إلى الاحتكاك مع القوى المنافسة له من الشرك والكفر والنفاق. فنحن لو لم نسع إليها لابد هي ساعية إلينا، ولعل "حرب الخليج" أصدق دليل في هذا المجال.

واستناداً إلى إسلامية مبدأ "لا شرقية ولا غربية" ونداء البراءة من المشركين يمكن القول أن هذين المبدأين لا يمكن أن يقفا عند حدود إيران، بل إن اهتمامات الإمام وهمومه كما أشرنا بادئ ذي بدء تستوعب كل قضايا الإسلام والمسلمين فضلاً عن المستضعفين والمظلومين إلى أي دين انتموا، ولذا فإن الإمام سعى إلى تعميم هذا المبدأ وتصديره لكن ليس عن طريق القوة العسكرية أو الارهابية كما حاول الأعداء أن يوهمو الشعوب المقهورة ليصدوا عن دين الله، وإنما عن طريق القناعة الذاتية والإرادة الحرة لهذه الشعوب نفسها، فعندما نردد القول بتصدير الثورة إلى كل مكان لم يكن المقصود افهام الآخرين بأن الإمام ومعه الجمهورية الإسلامية "دعاة فتح وتوسع، لأننا نعتبر جميع الأقطار الإسلامية منا، ومكان كل من هذه الدول محفوف، وكل ما نريده هو أن يحصل لهذه الدول وشعوبها ما حصل في إيران، فيقطعوا تبعيتهم للقوى الكبرى، ويرفعوا أيدي هذه القوى الكبرى عن مصادر ثرواتهم. هذا هو أمننا وهذا معنى تصدير الثورة، وهو أن تستيقظ جميع الشعوب والدول ويحرروا أنفسهم مما هم فيه، ويحرروا أنفسهم من الفقر"([5]). فالتصدير لا يتجاوز حدود التمني وتوجيه الانتباه، وأما الباقي فمطلوب من الشعوب، شعوب البلدان الإسلامية، أن تبادر إليه. فالإمام يرفض فكرة التغيير من الخارج، ويساند فكرة التغيير من الداخل، ولذا حث في أكثر من مناسبة على عدم انتظار أن تأتي المساعدة من الآخرين في مثل هذه القضايا، ودعا إلى أخذ المبادرة والنهوض فرادى ومتنى وثلاث. والجمهورية الإسلامية بهذا الاعتبار لا تعدو أكثر من نموذج وقوة تدعو إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، ولا تسعى كالقوى الاستكبارية إلى فرض نفوذها وسيطرتها بالقوة على الآخرين. وهذا ما أكدته الإمام في وصيته الأخيرة حيث جاء ما يلي: "أما وصيتي للشعوب الإسلامية فهي: أن اتخذوا حكم الجمهورية الإسلامية والشعب الإيراني المجاهد نموذجاً وقوة لكم، وضعدوا حداً بكل قوة لممارسات حكوماتكم الجائرة إن هي رفضت الانصياع لمطالب الشعوب وهي مطالب شعب إيران، فالحكومات التابعة للشرق والغرب هي علة مسكنة للمسلمين؛ أشدد الوصية لكم بأن لا تصعدوا لدعايات أبواق أعداء الإسلام والجمهورية الإسلامية، فهم جميعاً يسعون لعزل الإسلام، لتضمن مطاعم القوى الكبرى"([6]). وفي البند (باء) من الوصية ورد التالي: "ووصيتي إلى شعوب البلدان الإسلامية، أن لا تنتظروا أن يأتاكم أحد من الخارج ليعينكم على الوصول إلى الهدف والإسلام وتطبيق أحكامه، يجب عليكم أن تنتفضوا من أجل هذا الهدف الذي يحقق الاستقلال والحرية"([7]).

وفي مطلق الأحوال، فإن حرص الإمام على الخروج من وعلى النظام الدولي السائد، كان يبدو بوضوح لديه أنه لا يمكن انجازه بدون ضرب كل أشكال التبعية، فكان مبدأ "لا شرقية ولا غربية" أو مبدأ "التوحيد"، وبالتالي، مبدأ إعادة الإسلام إلى الحياة بكل تفاصيلها، ومن ثم استرجاع الحضور التاريخي والحضاري والثقافي للإسلام في الحياة، تشكل مجتمعه المبادئ الأم، سواء للخط السياسي الداخلي أو للخط السياسي الخارجي في إطار العلاقات مع الآخرين، وفي هذا الإطار الخارجي لابد من إشارة سريعة إلى أن الإمام لم يكن ليوقف كثيراً عند العلاقات مع الدول وأجهزتها الرسمية بقدر ما كان همه مُنصبّاً على بناء أحسن العلاقات مع الشعوب. ولذا لم يكن ليتوانى عن اتخاذ الموقف المناسب من أي دولة كانت إذا ما صدر عنها أي موقف مناوئ للإسلام والمسلمين. فضرب التبعية بكل تفاصيلها وجذورها كان يشكل جوهر جهود الإمام وجهاده. ومنذ اللحظة الأولى للثورة أظهر الإمام حساسية مفرطة اتجاه أي شعار يرفع لا يكون إسلامياً أصيلاً، رافضاً أي محاولة للشروط من خلال المزاجية بين المفردات الإسلامية والمصطلحات الحديثة أو المعاصرة من قبيل اشتراكية إسلامية" أو "ديمقراطية إسلامية"، بل كان يصير على رفع شعار وحيد هو المطالبة بالجمهورية الإسلامية، هكذا وبدون أي إضافات أخرى. فمحاربة التبعية بدأت من الشعارات الأولى للثورة واستكملت لاحقاً في كافة المجالات. فالإمام رأى بوضوح "إن مخطط نزع البلدان المستعمرة عن هويتها، وتغريبها وتشريقها، هو من المخططات التي كان لها - مع الأسف - تأثير بالغ على البلدان وعلى بلدنا العزيز، وقد بقيت نسبة كبيرة من آثارها حتى عادت هذه البلدان لا ترى نفسها ولا ثقافتها وقوتها بشيء، وترى في القطبين القويين الغرب والشرق، العنصر الأفضل وثقافتها هي الأسمى وانهما فيلقا العالم، وصوروا التبعية لأحدهما بانها من الفرائض التي لا مناص منها!

وقصة هذا المخطط مؤلمة وطويلة، والضربات التي وجهها إلينا هذا المخطط وما زال مهلكة قاصمة، والأكثر المأ هو انهما ابقيا على الشعوب المظلومة المستعبدة متخلفة في جميع الأمور، وجعلنا بلدانها استهلاكية، وأوجدنا في انفسنا حالة عميقة من الرهبة تجاه مظاهر تقدمهما وقواهما الشيطانية، حتى لم تعد لنا جرأة على المبادرة إلى أي ابداع، فعندنا مسلمين لهما كل امورنا حتى مقدراتنا ومقدرات بلداننا ومنفادين لهما انقياداً تاماً" [8]]. ويتضمن هذا النص اشارات لطيفة ودقيقة لمركزات التبعية وآثارها والتي يمكن اجمالها بالتالي:

أولاً: تعميق الإدراك من خلال الآخر، والآخر هنا هو دولتنا الاستكبار العالمي: الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة. وأي إدراك لا يمر من خلال قناة الشرق أو الغرب لن يكون له أي قوام أو تشكل منتج.

ثانياً: تداعيات هذا الإدراك:

أ - فقدان الهوية والانتماء الأصل.

ب - تعطيل قوى الابداع بفعل السقوط أمام هيبة ثقافة وحضارة دولتي الاستكبار، وبالتالي، الشعور بالنقص والدونية ازاءهما، فضلاً عن الشعور بالعجز.

ج - تحول البلدان المستضعفة إلى بلدان استهلاكية مما يترتب عليه خسران امكانياتها المادية وثرواتها الطبيعية وبقاؤها في حالة تخلف وفقر مدقعين.

ومن ثم يتوقف الإمام بدقة أمام سمات دقيقة أخرى لطبيعة المشروع الاستكباري للإبقاء على حالة التخلف لدى الدول الإسلامية المستضعفة؛ يقول الإمام: "إننا عَرَضْنَا للحرمان من أي تقدم طوال التاريخ الحديث خاصة في القرون الأخيرة... ومراكز الدعاية لمنجزاتنا، وكذلك عامل الشعور بالنقص، كل هذه العوامل حرمتنا من أي مسعى للتقدم؛ فاستيراد البضائع من كل نوع والهاء النساء والرجال وخصوصاً الشباب بالكماليات كموايد التجميل، وباللعب الصببانية، وجر العوائل إلى التباري في مظاهر الروح الاستهلاكية - وهذا الأمر بحد ذاته يحكي قصصاً محزنة - وجر الشباب وهم العناصر الفاعلية إلى اللهو والضياع، باشاعة مراكز البغاء والفحشاء، وعشرات من أمثال هذه المصائب التي أوجدتها مخططات مدروسة بهدف الإبقاء على تخلف تلك البلدان" [9]].

من البين أن الإمام في هذا النص يجمال اعتبارات كثيرة تواجه دول العالم الثالث قاطبة كمشاكل حادة تعترض نموها وتقدمها، منها:

أ - سيادة مظاهر الروح الاستهلاكية من السعي وراء الكماليات وسواها، في الوقت الذي تعاني منه هذه الشعوب، شعوب بلدان العالم الثالث، من فقدان المقومات الرئيسية للحياة الكريمة، وهذا ما يدخلها مع مفارقة حساسة وتناقض داخلي مع انفسها، من شأنه أن يحفظها بعيداً عن المسار الصحيح للنهوض.

ب - الإشارة إلى ضعف المناعة الأخلاقية لدى هذه الدول بفعل مظاهر اللهو والمجون؛ ضعف المناعة هذا الذي من شأن أن يطيح بالشعور بالمسؤولية، وبالتالي، يفقد المجتمع إحدى المرتكزات الذاتية الأساسية للصحة النفسية السليمة للفرد والمجتمع، والتي تلعب دوراً مميزاً في عملية النهوض والتقدم.

وفي مطلق الأحوال، فإن الفرد يخضع ومعه المجتمع، لإعادة تشكيل منظومة قيمه ومبادئه بشكل مباشر، وبشكل غير مباشر، بغية تحقيق الانسجام مع مصالح وأهداف الدول المستكبرة، ومن دون أن يشعر هؤلاء بالحالة المرضية التي هم فيها.

استناداً لهذا الإدراك من قبل الإمام، ولكي لا يبقى هناك ثمة تبعية على الصعيد الاقتصادي، أوصى قائلاً: "وأوصيكم بأن تنتفضوا لقطع دابر التبعية بآرادتكم الصلبة وجهدكم الدؤوب، واعلموا أن الجنس الآري أو العربي لا يقل عن جنس شعوب أوربا وأمريكا وروسيا، وإذا اكتشف ذاته وأبعد اليأس عن نفسه ولم يتطلع إلى غير ذاته فإنه قادر على انجاز أي عمل وصنع أي شيء على المدى البعيد، وبذلك ستصلون إلى ما وصل إليه أمثال هؤلاء، شريطة التوكل على الله تعالى والاعتماد على النفس وقطع التبعية للآخرين وتحمل الصعب من أجل تحقيق حياة كريمة، والخلاص من تسلط الأجنبي. وينبغي على الحكومات والمسؤولين في الحاضر والمستقبل أن يكرموا خبراءهم ويشجعوهم على العمل بالدعم المادي والمعنوي، ويمنعوا استيراد البضائع المدمرة الموجهة للروح الاستهلاكية ويكتفوا مع ما عندهم، لكي يتمكنوا بأنفسهم من صنع كل شيء وأطلب من الشبان الفتية والفتيات أن لا يبيعوا الاستقلال والحرية والقيم الإنسانية بما يعرضه عليهم الغرب وعملاؤه الخونة من زخرفة الدنيا وتحلل وانغماس في مراكز الفحشاء والبغاء ولو كلفكم ذلك تحمل الأذى والألم. فالغرب وعملاؤه.. لا يريدان لكم سوى الضياع والغفلة عن مصير بلدكم لينهبوا ثرواتكم ويجرّاكم إلى ذل التبعية والأسر الاستعماري وتحويل شعبكم وبلدكم إلى سوق استهلاكية. وهم بما يعرضونه عليكم بأمثاله إنما يريدون الإبقاء عليكم متخلفين وأنصاف وحوش كما يصطلحون" [10]!

إذن، للخلوص من ذل التبعية وآثارها لا بدّ:

أولاً: من استعادة الثقة بالذات والتخلص من اليأس.

ثانياً: تمرين الإرادة والنفس على الصبر وتحمل الصعاب، لأن الانتقال من حالة التخلف والاستهلاك إلى حالة التقدم والانتاج دونها مشاكل كثيرة.

ثالثاً: ضرورة وضع حد للروح الاستهلاكية بغية الافساح في المجال أمام مجتمع الحاجة، انطلاقاً من كون الحاجة أم الاختراع. فالحاجة زائد الثقة بالذات من شأنهما أن يحررا طاقة الابداع لدى الشعوب.

رابعاً: إيجاد الحافر المعنوي والمادي للابداع، وفي هذا الإطار لا بد من أن يلعب كل من الدول والمجتمع دوراً مهماً في إيجاد مثل هذه الحوافر.

خامساً: ضرورة التمتع بالصحة الأخلاقية المناسبة لتفجير الطاقات والجهود البناءة، وهذا ما يتطلب إيجاد الظروف الاجتماعية الملائمة فضلاً عن الاستعدادات الذاتية لدى الأفراد.

ولا يقف الإمام عند هذه النقاط بل يتعداها إلى مسائل أخرى رئيسة أبرزها المراكز التعليمية والتربوية من مدارس ومعاهد وجامعات وحوزات، وفي هذا الإطار، يشير الإمام إلى خطر تسلل المناهج غير الإسلامية إلى المراكز التعليمية المتنوعة معتبراً: "قضية المراكز التعليمية والتربوية من دور الحضانة إلى الجامعات هي من القضايا المصيرية المهمة (...). ليعلم الشعب المنهوب أن الجامعات كانت مصدر القسم الرئيسي من الضربات القاصمة التي وجهت إلى إيران الإسلام، خلا العقود الخمسة المنصرمة، فما كان لوطنا أن تستغله إنجلترا وبعدها أمريكا وروسيا لو كانت الجامعات وسائر مراكز التربية والتعليم تدار وفق مناهج إسلامية وتسير باتجاه مصالح البلد في تربية الأطفال والأحداث والشباب..." ([11]). ولا يخفى ما للمراكز التعليمية والتربوية من أثر في اعداد وتوجيه الناشئين فضلاً عن تشكيل المحتوى الداخلي من فكري وأخلاقي ونفسي. كما تشكل هذه المراكز المعامل الرئيسية التي يصنع فيها القادة والمسؤولون. وبالتالي، فانه مع صلاح هؤلاء يصلح الكثير من شؤون المجتمع، ومع فسادهم وانحرافهم يفسد الكثير من شؤونهم أيضاً. هذا في جانب، وفي جانب آخر، فإن المراكز التعليمية والتربوية التي يسودها مناهج تابعة ستخرج قادة ومسؤولين تابعين بالضرورة بأفكارهم وتوجهاتهم، وهذا من شأنه إبقاء البلاد في دوامة التبعية أطول فترة ممكنة. من هنا ضرورة توجيه الاهتمام إلى هذه المراكز وإعادة النظر في مناهجها، بحيث تسودها المناهج التي تضمن اصالة المجتمع واستقلاله وحرية. وبدلاً من أن تكون التربية ويكون التعليم لخدمة أهداف غريبة وبعيدة عن مصالح المجتمع الحقيقية، يصبح بالإمكان إيجاد مناخ تربوي وتعليمي ينسجم في أهدافه مع تطلعات المجتمع الصحيحة والتي تدفع به إلى الأمام بدلاً من إبقائه في بوتقة التخلف والتبعية. فالأهداف التربوية والتعليمية يجب أن تكون مستمدة من المثل العليا للمجتمع التي ينشد تحقيقها، والتي هي على تواصل عضوي مع تاريخه وحضارته وهويته الثقافية الأصيلة.

ولضمان التأصيل الثقافي والعملية التربوية في المجتمع لم يفت الإمام التنبيه إلى ما في "إثارة العداوة بين الجامعيين وعلماء دين" من مخططات استكبارية لنيمة داعياً "أن لا تصيب الغفلة الجيل المعاصر والأجيال الآتية وان يسعى الجامعيون والشباب الراشدون الأعزاء إلى تعزيز أواصر الود والتفاهم أكثر من ذي قبل مع العلماء وطلبة العلوم الدينية، وان لا يغفلوا عن مخططات ومؤامرات العدو الغادر..." ([12]). فتعزيز الود والتفاهم بين مراكز التعليم الحديثة من جامعات ومعاهد وبين مراكز التعليم الدينية من شأنه أن يقيم ضرباً من التواصل والانسجام الفكري والروحي، كما من شأنه أن يقيم ضرباً من الحوار وتبادل المعلومات والخبرات، أو بكلام آخر، نوعاً من التبادل الثقافي، بحيث يزود كل منهما الآخر بما يحتاجه. ولا يخفى ما في التقارب والحوار بين الحوزات والجامعات من اغناء واثراء للطرفين على الصعيد الفكري والمنهجي، فضلاً عما تشكله الأولى من مراقبة مباشرة أو غير مباشرة على سير عمل الثانية، بحيث تضبط عملية اسلمة الفكر والمنهج فضلاً عن المصطلحات والمفاهيم.

إزاء كل ما تقدم - وهو غيض من فيض الإمام(قده) - نرى موقع التبعية بتجلياتها الرئيسية في فكر الإمام، وهو موقع اختصره بوصيته للمسؤولين عندما دعاهم إلى "أن يجتنبوا اجتناباً تاماً كل أمر تشتم منه رائحة التبعية بكافة أبعادها"، إدراكاً منه بأنها منبع "تفسخ جذور الدولة" ([13])، لأنها الخروج بالدولة والمجتمع والفرد عن جادة التوحيد وشعار "لا شرقية ولا غربية" وادخالهم مجدداً في دوامة الكفر والشرك؛ فالإمام رسم التوجهات الرئيسية للتصدي لهذا الخطر، وحدد مصالحه الرئيسية أيضاً، ولا نغالي إذ نقول: إنه خارج هذا الإدراك لن نجد سوى سياسة الدوران حول الذات. ومع وفاة الإمام(قده) لا يبقى من مجال سواء إحياء الإمام في اتباع وصاياه، فنسأل الله أن نكون من هؤلاء.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

[1]) لقد جاء في حرفية تعبير الإمام كما ورد في إحدى خطبه المشهورة بالخطاب التاريخي ما يلي: "أنا الغافل الذي لم آت بعد من طي العدم إلى الوجود... كيف يمكنني أن أقدم وصفاً لرواد قافلة الوجود". ولا يخفى ما في هذا التعبير من تواضع رفيع فضلاً عن المحتوى الفلسفي الدقيق الذي يختصره للموقف الإسلامي من الحياة والوجود.

[2]) هذا النص مختار من النداء التاريخي الذي وجهه الإمام بمناسبة الحج من عام 1407 هـ ص 54 مؤسسة الفكر الإسلامي.

[3]) م. ن، ص7.

[4]) م. ن، ص9.

[5]) من كلمة له (قده) أمام سفراء الدول الإسلامية في طهران الذين وفدوا لتقديم التهاني بمناسبة عيد الأضحى المبارك لسنة 1400 هـ الموافق 1980/10/21.

[6]) الفقرة ج من وصية الإمام ص 9. وفق الملحق الذي نشرته ووزعته مجلة الوحدة الإسلامية.

[7]) م. ن، ص114.

[8]) م. ن ص10، البند هـ.

[9]) م. ن، ص11.

[10]) م. ن، ص11.

[11]) م. ن، ص15.

[12]) م. ن، ص 9-10.

[13]) م. ن، ص14.

الفصل الخامس: الحوزات العلمية في فكر الإمام الخميني(ره)

الشيخ محسن عطوي

عندما ندرس الإمام الخميني رضوان الله تعالى عليه فإننا لا نتلمس انجازات فرد لنبرزها ونضيف عليها بريقاً مستحدثاً كانت تفقده، بل إننا ندرس ظاهرة قوية الوهج لنساعد أنفسنا على استيعابها والاعتبار بها، لأن الخميني هو أمل الأولياء الطاهرين التاريخي الذين أثلج صدورهم الاطمئنان إلى نهوضه بعبء التوطئة لدولة الحق العالمية، والموطى لا بد أن يكون ظاهرة مميزة في مسلكه وظاهرة مميزة في

انجازاته. وليس أجدر، ولا أولى من الوقوف عند منبت هذه الظاهرة وموطن تكاملها، ألا وهي (الحوزة العلمية) لنرى كيف يريد لها وما هو رأيها فيها، بما اختزنه من تجربة ومعاناة وفكر ملهم، كي تنهض الحوزة بدورها في التوطئة لظهور الحجة المهدي (عج) فتنسجم مع الخميني الظاهرة وتحقق الغاية منها.

الحوزة مكان

نعم، فهي معهد في بلد أو قرية أو مدينة يسكنها جمهرة من أهل العلم والفضل يديرون فيها حلقات التدريس المنعقدة من طلاب المعرفة المتعددي المواطن عادة.

وقد توافقت في ظهورها مع بزوغ فجر الإسلام عندما كان يتحلق المسلمون حول رسول الله صلى الله عليه وآله ليزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة، واستمرت في مختلف العهود الإسلامية وفي العديد من المدن والقرى... في مساجدها غالباً.. وفي معاهد خاصة كثيراً، حيث صارت تتطور تدريجياً لتأخذ لنفسها كياناً مميزاً له خصائصه وسماته، ولتخرج عن مجرد كونها حلقة درس حول شخص لتصبح ظاهرة ثقافية وسياسية ذات أثر بالغ.

والذي يبدو أن معظم الحوزات في العالم الإسلامي قد نشأت في ظلال مقامات المعصومين والأولياء التي يرغب العلماء والناس في مجاورتها وإحياء أمرها والاستفادة من أوقافها مواطن للسكن وقاعات لاقاء الدرس في زمن كان الفقر سمة له، مضافاً لكونها ملتقى جماهير الناس في زيارتهم لصاحب المقام، الأمر الذي يساهم في تيسير الاتصال بالناس وإفادتهم وقيادتهم، وهو أمر جلي في حوازت الشيعة في النجف الأشرف وقم ومشهد وكربلاء وغيرها، وفي حوازت السنة أيضاً.. مثل الأزهر الشريف المجاور لمقام السيدة زينب والإمام الحسين عليهما السلام، ومقام الإمام البخاري في بلاد طشقند، ومقام النبي (ص) في المدينة المنورة وغيرها.

وإن كانت هذه الحوزات مدينة في ازدهارها وبقائها إلى توطن عالم عظيم فيها يستقطب وجوده الكثير من الراغبين في الاستفادة منه، وتسبب ذلك في سكن اكابر تلامذته فيها ووراثتهم لأستاذهم بنحو يكفل استمرار ذلك المكان كحوزة علمية، حتى إذا هجرها الفضلاء والاكابر ضمرت واضمحل دورها تدريجاً حتى تصبح مدينة عادية مثل باقي البلاد.

وهذا الأمر هو الذي ساهم في بروز كثير من المدن والقرى كحوزات علمية نتيجة توطنها من قبل علماء كبار.. دون أن يكون فيها مقامات مشهورة معروفة.. مثل "شقراء" و "جزين" في بلاد جبل عامل.. ومثل غيرها في عموم أنحاء العالم الإسلامي.

كذلك فإن مكان التدريس في هذه الحوزات - سيما الكبيرة منها - موزع على مساجد المدينة وغرف مقابرها وبيوت أساتذتها، ومرات قليلة في مدارس خاصة.. مثل المدرسة النظامية في بغداد والأزهر في مصر.. وكذا في النجف وإيران، الأمر الذي ترتب عليه نمط خاص في الدراسة والتربية والأمزجة وصعوبات في التطوير وتوحيد البرامج، وعقبات في النهوض بالدور المطلوب، اللهم إلا في حالة وجود زعيم للحوزة مهاب مطاع يفرض عليها نمطاً معيناً وموحداً بدرجة معقولة.

وهكذا فإن خصوصية المكان تساهم مباشرة في الكثير من شؤون الحوزة العلمية والسياسية والاقتصادية والتبليغية، كما تساهم مباشرة في تحديد مدى قدرة الحوزة على النمو والتطور، وإذا أخذنا الوضع السياسي الصعب الذي عاشته المناطق الشيعية خلافاً لمناطق السنة رأينا أن مواطن الحوزات وظرفها السياسي قد ساعد بعض الحوزات على النهوض بدور سياسي لا بأس به مقابل حوزات أخرى حافظت على دورها العلمي بشق الأنفس.

وبذلك تكون هذه الفلزكة المكانية ذات أثر في بحثنا هنا.

الحوزة إنسان

إذ من الصعب أن نفضل بين رأي الإسلام في العالم الديني وبين المكان الذي يعيش فيه هذا العالم استاذاً كان أو طالباً، تماماً مثلما لا يمكن الفصل بين الوطن والمواطن. وإن الحديث عن الحوزة بآمالها وآلامها هو حديث عن الإنسان الذي به صارت (الحوزة) مكاناً يحوزه ويحتويه ليمارس فيه نشاطه؛ فشخصية الحوزة المميزة في دورها العلمي والسياسي والروحي والتبليغي هي نفس شخصية أناسها الذين يفعلون فيها وينفعلون بها، وإن كان ثمة تجريد في لغة البحث فهو اعتباري لتسهيل التناول والمعالجة.. مع عدم غرض النظر عن خصوصية المكان المشاركة للإنسان في انتزاع عنوان (الحوزة) والمساهمة في معالجة بعض المشكلات المساعدة للإنسان في النهوض بدوره.

العمل قرين العلم

ومن الضروري الإشارة هنا إلى أن الإسلام لم يقدس العلم منفصلاً عن العمل، بل إن العلم في منطق الفطرة هو صورة ما ينبغي أن يعمل، والتي يختزنها الذهن ليدفع بها الإرادة إلى العمل، بل إن كينونة الحياة قائمة على العمل وخالية من التجريد لأن الحياة فصل مستمر ما دام الوجود.

كذلك فإن دور العالم الديني لا بد أن ينسجم مع هذا التوجه الشرعي والطبيعي ليكون عاملاً بعلمه مجسداً له في حياته، ومقياساً لمدى إنسانيته وتقواه، وحافزاً له على دعوة الناس إلى الحق ومحاورتهم فيه وحملهم عليه باللين والحكمة ثم بالقوة إذا لم تجد الأولى، وكذلك كان الأنبياء الذين ورث العلماء أدوارهم وشابهم في مواقعهم.. حيث لا بد أن يصل الأمر إلى مرتبة تحمل الأذى والقتل في سبيل نصرة الإسلام والدفاع عن قضايا المسلمين، فيكونون من "الذين واصلوا الزحف حتى اكتشاف حقيقة التفقه، وصاروا بذلك منذرين صادقين لقومهم وشعبهم، تشهد بصحة كل فقرة من حديث صدقهم قطرات دهمهم والقطعات المنتشظية من أبدانهم"([1]).

وإن من المفارقات العملية الشاذة أن لا تكون غاية العلم والتفقه دعوة الآخرين إلى الخير وحملهم على العمل به بعدما استنفر الله تعالى المسلمين لذلك، {فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون}([2]). وحينئذٍ فلن يتحكم في جهاد العالم الديني وعمله إلا مدى مطاوعة الواقع لحركة الفقيه وتأثيره فيه طبقاً للظروف المتجددة المساعدة أو المعيقة لتحقيق الأهداف التي يوجبها الإسلام ويفرضها الانسجام مع الحق، وهو أمر شامل لكل حركة الحياة لا تتفصل فيه عبادة عن سياسة، ولا جهاد عن علم، دون أن يسمح بنمو ثقافة ولا شخصية أحادية الاهتمام بجانب دون جانب، حيث التجزئة خطأ علمي وخيانة عملية، ولن يكون الإسلام غير ذلك ولا علماؤه غير ذلك، مادام المنحرف ليس مسلماً بالمعنى الشامل ولا (عالماً) بالمعنى الدقيق للعلم الذي لا يفترق عن العمل.

تعارض العلم والعمل

ونظراً لأهمية العمل وحاكميته على العلم يجب تقديم العمل جهاداً وتضحية وتبليغاً إذا وجدت الأمة في ظرف مميز يقتضي توظيف كل الطاقات من أجل تحقيق أهداف الإسلام، وحينئذٍ لا يصح القول إن واجب العلماء والحوازم هو الدرس والمباحثة وعدم تركه والانصراف إلى العمل السياسي والجهادي المتسبب في هجران الدرس وترك تحصيل العلم، لأن الغاية من تحصيل هذا العلم هي تحقيقه في مقام العمل وجعله حياة عامرة بالحق خالية من الأشرار، فإن حضرت الغاية وحان قطافها وكان في طليعة القاطفين ورثة الأنبياء والعارفون بالله والعلماء العاشقون للحق فإن التأخر عنها وتركها مغاير لمقام العلم والعلماء ومفوت للغرض الذي نسعى له جميعاً، حيث المجد والاجلال لشهداء الحوزة والروحانية الذين قطعوا في حمى الصراع علانق الدرس والبحث والمدرسة وأزاحوا من طريق حقيقة العلم عقال تمنيات الدنيا.. ومضوا خفافاً إلى ضيافة أهل العرش...([3]).

الدور السياسي

لم يدر جدال حول الدور العلمي للحوزة لأن ذلك هو عنوانها وأصل وجودها، وعلى مر التاريخ نهضت الحوزات بدورها وقامت به خير قيام، حيث "لم يكن من السهل جمع علوم القرآن وآثار النبي الأعظم وسنة المعصومين وسيرهم عليهم السلام وتبويب ذلك وتنقيحه، في الظروف التي كانت الامكانيات فيها قليلة جداً، وكان السلاطين والظلمة يبذلون كل ما في وسعهم لمحو آثار الرسالة. وبحمد الله فإننا اليوم نرى نتيجة تلك الجهود متجسدة في الآثار المباركة كالكتب الأربعة والكتب الأخرى للمتقدمين والمتأخرين في الفقه والفلسفة والرياضيات والنجوم والأصول والكلام والحديث والرجال والتفسير والأدب والعرفان واللغة وسائر الاختصاصات العلمية المتنوعة.. وإذا لم نسلم كل هذه الأتعاب والمرارات جهاداً في سبيل الله فماذا نسميها..؟"([4])

لكن الذي دار الجدل فيه هو الدور السياسي للعلماء ومن ثم - وتبعاً لهم - للحوزات العلمية، وما كان ينبغي أن يدور الجدل في ذلك في وقت يشهد كل ما في الإسلام على أنه دين الحياة والعدل، وعلى أن أولى الناس بقيادة الحياة ووراثتها وحكمها هم الصالحون والمؤمنون، وعلى أن الجهاد في الإسلام لم يشرع إلا من أجل استئصال شأفة الباطل وإقامة كيان الحق والعدل مكانه ليسعد الناس في ظلال الحق الوارفة.

وكيف يدور جدل في ذلك وسيرة الرسول(ص) والأئمة الذين حكموا وثاروا على الظلم شاهدة بكل قوة على أن السياسية عين الدين وأصل بقائه واستمراره ونهوضه بدوره وغايته.. لم تدع لبساً في ذلك أبداً..؟!!

وعليه فإن هذا الأمر ليس مدار جدل بين أهل العلم على شتى مذاهبهم وأوطانهم، بل إن الذي حصل أن عدداً "من المتظاهرين بالقداسة الأزدال كانوا يرون كل شيء حراماً، ولم يكن أحد يجزئ على التصدي لهم.. إن الغصص التي تجرّعها أبوكم الشيخ من هذا النوع المتحجر لم يتجرّع مثلها أبداً من غيرهم عندما انتشر مفهوم فصل الدين عن السياسة، وأصبحت الفقه في منطق الأغبياء تعني الغرق في الأحكام الفردية والعبادية..

كان تعلم اللغة الأجنبية كفرة، وكانت الفلسفة والعرفان شركاً..!

لا شك أبداً في أن هذا الوضع لو كتب له الاستمرار لآل أمر الروحانية والحوزات إلى ما كانت عليه الكنائس في القرون الوسطى...([5]).

فهي لا تعدو كونها انحرافاً ولوثة ناتجة عن الجهل والغباء والتحجر، تأثراً ببعض النصوص التي أسيء فهمها وتفسيرها، من قبيل "كل راية تخرج قبل راية قائمكم فهي راية ضلال"، وأنه كيف يخرج صاحب العصر والزمان إذا لم يملأ الفساد الأرض، وأنه يصعب على الأمة الضعيفة مواجهة الباطل وإزالته وإقامة دولة الحق، وغير ذلك من التعليقات والأفكار التي يبررون بها قعودهم وتقاعسهم.. أو جهلهم عند حسن الظن بهم. وحتى هؤلاء لا يمكنهم أن ينكروا أهمية السياسة وارتباطها بالدين على مستوى النظرية والنصوص، ولكنهم يجدون المعاذير لانفصالها عنه في زمن الغيبة.. وبالأخص في هذا العصر وخاصة في إيران على عهد الشاه.. وعشية بداية الثورة الميمونة للإمام الخميني رضوان الله عليه.

ناهيك عن وجود مندسين يروجون لذلك هم عملاء حقيقيون لأمريكا والقوى الكافرة، وهم يستغلون هؤلاء المقدسين الحمقى لتحقيق أغراضهم، سيما وأن هذه الفكرة من أهم الأفكار التي يروج لها الاستعمار والكفار لمنع النهضة الإسلامية وتثبيت نفوذهم في بلادنا.

ويؤكد الإمام(قده) أن هذا كان رائجاً في الحوزات العلمية في عهده، وبلغ درجة أن "بعضهم اليوم عبر التظاهر بالقداسة يعملون على اجتثاث جذور الدين، وكان لا مهمة لهم غير ذلك"([6])! حتى كادوا يطيحون بالثورة ويجهبونها قبل ولادتها.

ومادام العلماء بشراً بصيرون ويخطئون فإنه لن تخلو حوزة علمية من أمثال هؤلاء، بل قد لا تخلو من مبتدعين وهراطقة مدعين للنبوة أو المهديّة أو غيرها من الأفكار والبدع الفاسدة، وقد لا يكون الإمام الخميني(قده) مضطراً للعناية الفائقة بهؤلاء لو ظلوا مجرد "موضة" ثقافية في ظل ركود سياسي ضاغط، لكنهم يبرزون في الفتن ولدى الأحداث الجليّة الكبرى فيكونون العوبة بيد الخصم وسلاحاً حاداً يشهره العدو من الداخل، فيصبح مؤلماً أكثر، ومن هنا كان تشديد النكير عليهم والتحذير منهم.

كيف نتحاشى خطر هؤلاء المقدسين:

إذا لم يمكن منع بروز أمثال هذه الانحرافات في الحوزات العلمية.. شأنها في ذلك شأن أي مجتمع بشري، فإنه لا بدّ من معالجة الأمر بطرق متعددة:

1- استعمال أقصى حالات الحيلة والحذر منهم فإن "على الطلاب الأعزاء أن لا يغفلوا لحظة عن التفكير بهذه الأفاعي الرقشاء، هؤلاء مروجو الإسلام الأمريكي واعداء رسول الله ص"([7]).

2- لدى الصدوع بالثورة ينبغي عدم الاهتمام بهم وتجاوزهم، فإنه لما كانت الاشكالات التي يثيرها هؤلاء مشكلات كبرى لا تطاق، "لم يكن بالإمكان أن تواجه بال نصيحة والجهاد السلبي والتبليغ، كان الحل الوحيد هو الإيثار والدم، وقد هيا الله أسباب ذلك؛ وقف العلماء وطلاب العلوم الدينية يستقبلون بصدورهم كل سهم مسموم يرمى به نحو الإسلام، وتقدموا إلى مسلخ العشق..."([8]).

3- استئصال نفوذ الأجانب من مراكز الحوازات وثقافتها، ولن يتأتى ذلك إلا بحفظ وحدة العلماء ومنع تأثير اختلاف الأذواق الاجتهادية على استشعار الوحدة الحقيقية، ذلك أن "أول واجب شرعي وإلهي هو حفظ وحدة الطلاب والعلماء الثوريين وانسجامهم، وإلا فإن أماننا ليلاً مظلماً وموجاً مخيفاً وإعصاراً مرعباً"([9]).

و"إذا لم يكن الطلاب ومدرسو الحوزة العلمية متحدين فلا يمكن التنبؤ بالرابح، وإذا صارت الحاكمة الفكرية - ولنفرض المحال - للروحانيين المزيفين والمتحجرين فما هو الجواب الذي تقدمه الروحانية الثائرة لله والناس..."([10]).

مضافاً إلى مسألة الوحدة ودورها في استئصال نفوذ الأجانب من الحوزات العلمية.. هناك موضوع الاجتهاد ومؤهلات المجتهد، فانه بالقدر الذي ينجلي هذا الموضوع لا يبقى لهؤلاء المتحجرين دور في التأثير على الناس.

لذا فإنه "يجب أن يكون المجتهد محيطاً بأمور زمانه وليس مقبولاً للناس والشباب وحتى العوام أن يقول مرجعهم ومجتهدهم أنا لا أعطي رأياً في المسائل السياسية".

"يجب أن يتحلى المجتهد بالبراعة والذكاء والفراسة لقيادة المجتمع الإسلامي الكبير، وحتى غير الإسلامي، وبالإضافة إلى الخلوص والتقوى والزهد المناسب للمجتهد.. ينبغي أن يكون واقعاً مديراً ومدبراً"([11]).

التاريخ له حرمة:

انطلاقاً من هذا وعلى أثر انتصار الثورة الإسلامية في إيران، بل وحتى قبلها، سرت موجة من التشكيك في أهمية دور العلماء والحوزات السياسي والجهادي على مر العهود التي سلفت، وظن البعض أن السمة الغالبة في الماضي هي العزوف عن العمل السياسي والجهادي للحوزات وكبار العلماء، مسترشدين في ذلك بشذرات ذكرها التاريخ عن سيرة العلماء، ومن المؤسف أن ذلك هو عقيدة نخبة من المثقفين المؤمنين.

والرأي الذي يمكن قوله بقدر كبير من الثقة إن تاريخ علمائنا وحوزائنا حافل بالتضحيات والبطولات والشهداء، وإن نهضتنا الحديثة - سيما في إيران - مدينة في عمقها للتراث الفكري والنماذج النيرة لعلمائنا الذين سلفوا، ومن البديهي أن الشعوب لا تولد نهضتها ولا فكرها بين عشية وضحاها، ولا نتيجة تضحيات فرد أو أفراد محدودين، بل إنها تولد بعد تراكم التراث الفكري والسلوكي وعبر انفعال الناس المتطاوّل به، فيتجمع في ظرف تاريخي معجز ومعاصر ليولد النهضة ويوجد.. من خلال قائد هو تجسيد هذا التاريخ وتجليه الحاضر.. وهكذا دائماً.

ويمكن التأكيد على ذلك من خلال الأمور التالية:

أولاً: عدم التأريخ الدقيق لجهاد العلماء والحوزات واسلوب عملهم، الأمر الذي حرمانا من حصيلة ضخمة كان يمكن تقييمها والخروج منها بنتائج أكثر وضوحاً، وإنه إذا كان تاريخ أئمتنا المعصومين وأصحابهم لم يكتب بنحو دقيق، فما بالك بمن عداهم من العلماء.

ثانياً: إن شدة التضيق عليهم ومطاردتهم والتكيل بهم حدّ من دورهم كثيراً وسبب غموض الكثير من نشاطاتهم التي اتسمت بالسرية وأحيطت بالكتمان.

ثالثاً: إن الذي وصلنا من سيرتهم يكشف بنحو عام عن حرصهم على مواجهة السلطة وعدم الركون إليها.. والتصدي لقيادة الناس عندما تسنح الفرص لذلك.

رابعاً: إن التراث الفقهي والفكري والأدبي قد تضمن العديد من المعالجات السياسية التي هي أصل لفكرنا السياسي المعاصر.

خامساً: إن الثورات والحركات السياسية الكبرى لا تحصل إلا عند اكتمال المعادلة الثورية وحلول وقتها المناسب، وحدثها في عصر لا يعني إدانة الذين سلفوا لأنه لم تحصل عندهم نفس الحالة، وأظن أن هذا نسق حضاري وقانون اجتماعي ثابت.

ولقد أدرك الإمام الخميني(قده) هذا الأمر فتحدث عن الماضين من العلماء وأشاد بهم قائلاً:

"منذ مئات السنين وروحانية الإسلام سند المحرومين، ولقد ارتوى المستضعفون دائماً من كوثر المعرفة الزلال للفقهاء الأجلاء، وعندما نتجاوز مجاهداتهم العلمية والثقافية، التي هي بحق - من جهات - افضل من دماء الشهداء، نجد أنهم في كل عصر من الأعصار قد تحملوا الغصص والمرارات في الدفاع عن مقدساتهم الدينية والوطنية، وبالإضافة إلى الأسر والنفي والسجن والأذى والمضايقات وجراحات الألسنة.. فإنهم قدموا بين يدي الحق تعالى شهداء أجلاء".

"ولا ينحصر شهداء الروحانية بشهداء الجهاد والحرب في إيران، وبقيناً فإن عدد الشهداء المجهولين للحوزات والروحانية الذين استشهدوا غرباء على أيدي العملاء والمنحطين.. كبير"([12]).

"علماء الإسلام الأصليون لم يخضعوا أبداً للرأسماليين وعباد المال والاقطاعيين، وقد احتفظوا بهذا الشرف لأنفسهم باستمرار، وانه لظلم فاحش أن يقول أحد ان يد الروحانية الأصيلة الملتزمة بالإسلام المحمدي الأصل كانت مع أيدي الرأسماليين في إناء واحد. إن الله لا يغفر للذين ينشرون هذا أو يفكرون هكذا"([13]).

بل إن الإمام(قده) يؤكد أن "معارضة الروحانية لبعض مظاهر التمدن في السابق كان سببها الوحيد الخوف من نفوذ الأجانب"([14]).

من قبيل معارضتهم لبعض الاختراعات الحديثة كالإذاعة والتلفزيون ونحوها مما كان له علاقة بالاستعمار ومساعدة في تثبيت نفوذه، ومن هذا القبيل أيضاً تحريمهم للعمل عند الظالمين.. وفي وظائف الدولة.

"وأي عزة تفوق، أن الروحانية استطاعت - رغم قلة الإمكانيات - أن تبسط سلطة الإسلام الأصل في عالم الفكر الإسلامي لتنتفتح براعم غرسة الفقاهة المقدسة في روضة الحياة والمعنويات عن آلاف المحققين.

حقاً.. أليس من السذاجة أن يعتقد أحد أن الاستعمار لن يلاحق هؤلاء العلماء رغم كل هذا المجد والعظمة والنفوذ"([15])!

وهكذا نلاحظ أن الدور السياسي للحوزات وعلمائها ما كان ليغيب عن البال وجمهرة العلماء منكبون على تحصيل العلوم، هذا التحصيل الذي لابد أن يقترن بالقوى والالتزام والأصالة، ومن ثم يجعل الحوزة بعلمائها مهوى الأفئدة ومحط الآمال لعامة الناس يلجأون إليهم في الشدائد منقادين وفي الرخاء متعلمين ومستفتين.

وهي إذا ازدهرت فبأناسها العلماء الذين يسمون بها في مراتب الرفعة، وإذا تراجعت وانحطت فبفعل الزمن وعادياته التي تأتي على هؤلاء العلماء موتاً أو تشريداً، فيأفل نجم حوزة في مكان ليرتفع في مكان آخر.. ربما بنحو أكثر سطوعاً، وهي سنة الله في أرضه، ولن تجد لسنة الله تبديلاً.

ولا شك أن الإمام الخميني (قده) عندما تزعم الحوزة العلمية في قم ورعى الفضلاء والعلماء ثم قادهم في نضاله السياسي ضد طاغوت عصره، كان بذلك الرمز الإنساني الذي أحيا الأمة وحقق لهم أهم إنجازاتها بعد ثورة الإمام الحسين (ع).. بوصفه قيساً من تلك الشعلة التاريخية التي حافظ عليها السلف متوهجة لتصل إليه فيزيدها توقداً وانتشاراً، ولتصبح حوزة قم حجة على الناس ومهوى أفئدتهم في هذا الزمن الذي تسطع فيه أنوار الظهور وبركات الحجة صاحب العصر والزمان.

وبذلك لا يمكن أن تنفك الحوزة المكان عن الحوزة الإنسان، في الوقت الذي يكون فيه الإنسان هو الباني والفاعل.

الحوزة الكيان

تعتبر الحوزة من أهم المعاهد العلمية عبر تاريخ المسلمين العلمي الطويل وحتى وقتنا الحاضر، وهي إذ تنتشر في طول البلاد الإسلامية وعرضها فإنها تغطي مساحة واسعة من حقل الحاجة العلمية وتخرج الآلاف من العلماء والمبلغين وتساهم في اغناء التراث العلمي للمسلمين وتخلق جواً دينياً مميزاً في الموطن الذي توجد فيه، وبالفرد الذي نعى فيه بها يساهم ذلك في دفع المسيرة العلمية والثورية إلى الأمام، ونسير قدماً باتجاه حكومة الإسلام العالمية.

من هنا فإن الواجب يحتم بذل الجهد والعناية التامة بها على مختلف الصعد، وبالأخص زيادة عددها ورصد الأموال لها.. وقبل ذلك تركيزها على أسس متينة من حيث التنظيم والبرامج، وإن عناية الإمام(قده) المميزة بالحوزات تنطلق من استشعاره لعظيم دورها البناء والفاعل.

ولعل أهم ما ينبغي حصر الكلام فيه أمور خمسة:

الأول: الدور المطلوب:

إذا كان دور المعاهد العلمية الأساس هو الاعداد العلمي فإن للحوزات ميزة هامة تضاف إلى ذلك هي: إعداد النماذج الحسنة التي سوف يقتدي بها الناس ابتداءً من شؤونهم العادية وانتهاءً بالجهاد ومواجهة الظالمين، وإذا كانت الغاية هي حفظ الإسلام وحكم الناس به.. فإن

العلماء العارفين بالله هم الذين سوف يتولون ذلك، وهو يستدعي حيازة العالم على أعلى الدرجات الممكنة في علمه وتقواه ووعيه لينال ثقة الناس به ويكون تجسيدا لما يسعى إليه، وعلى الحوزة تقع عبء ايجاد العلماء الأصليين وإعدادهم إعداداً ممتازاً وجيداً.

مضافاً إلى ذلك فإنه لما كانت المرجعية تتخذ - عادة - من الحوزات مقراً لها فإن ذلك يعني ضرورة تنظيم شؤون المرجعية من حيث علاقتها بالناس من خلال مؤسسات متطورة تيسر اتصال الناس بالمرجع في شؤونهم المالية والعلمية، وهو جزء مهم من دور الحوزات العلمية، سيما مع ملاحظة المشاكل الكثيرة التي يعاني منها الناس في مراجعاتهم لمن يقدون، وفي عجز المرجعية عن الحضور الفاعل والمؤثر في المؤسسات العلمية العالمية وإنشاء العلاقات المميزة مع كثير من المواقع التي يمكن التأثير فيها.

وأهم دور للحوزات العلمية هو التبنّي والمشاركة الفاعلة في تخفيف الظلم والألام عن الناس، الذي هو في الحقيقة غاية التعليم ومقتضى الموقع القيادي الذي يشغله العالم في الأمة، و"إن علماء الدين الملتزمين بالإسلام تقيّدوا دائماً عبر التاريخ الطويل، وفي أفسى الظروف وبقلوب مليئة بالأمل وطافحة بالحب بتعليم الأجيال وتربيتها وهدايتها، وكانوا دائماً رواد الجماهير ومجتها الحامي من البلايا.."([16])، وكيف لا يكون هذا هو دور الحوزة الأساس في الوقت الذي تعتبر فيه حصن الإسلام وموئل الناس ومركز قيادتهم التي يرون فيها تجسيدا لنهج النبي وآله الأطهار في الحمية والمروءة والحرص على خدمة الفقراء والمستضعفين، وأي شيء هو الإسلام إذا لم يكن هذا؟! "إن على علماء وطننا أن يعدوا انفسهم لصنوف أكثر من الفداء، وأن يستخدموا في مواقع الحاجة والضرورة كرامتهم واحترامهم لحفظ كرامة الإسلام وخدمة المحرومين والحفاة.."([17]).

"يجب على الروحانيين والعلماء والطلاب أن يعتبروا المهام القضائية والتنفيذية أمراً مقدساً بالنسبة لهم، وان يعتبروا أن لهم امتيازاً، وهو أن لا يجلسوا في الحوزة، بل أن يتركوا راحة الحوزة لإجراء حكم الله ويتصدوا لأعمال الحكومة الإسلامية".

"إذا لم نخدم نحن النظام اليوم، وأضعنا فرصة إقبال الناس على الروحانية إقبالاً لم يسبق له مثيل، فلن نجد يوماً فرصة كهذه الفرصة على الإطلاق"([18]). إن تحصيل العلم إذا لم يقترن بالعمل وخدمة الناس يحول أهله إلى جماعة مترفة مسترخية بعيدة عن الشعور بالآلام الناس ومستعلية عليهم، ويحول العلم إلى تنظيرات قد تكون بعيدة عن الواقع كثيراً في بعض الأحيان؛ وانه "ما لم يكن للروحانية حضورها الفعّال في جميع المسائل والمشكلات فلن تستطيع أن تدرك أن الاجتهاد المتعارف لا يكفي لإدارة المجتمع"([19]). كذلك فإن البعد عن العمل السياسي يسبب تصدي غير العلماء لهذه الأمور من الذين لا يؤمنون كثيراً ولا تضمن استقامتهم واخلاصهم، وهو الأمر الذي حذر منه الإمام(قده) بقوله: "ولكنني أشهد موقناً أنه لو كان في مركز القرار وقيادة حركة الثورة أحد غير الروحانية لما كان بقي لنا اليوم شيء غير الفضيحة والذل والعار في مقابل أمريكا وناهبي العالم"([20]).

كذلك فإن على الحوزة العلمية أن تنهض بواجب الدعوة والأمر بالمعروف وتبليغ أحكام الله سبحانه وتعالى، فإن ذلك هو واجبها الأساسي والأمر الذي تقدر عليه أكثر من غيرها والمعنية به مباشرة، وإن من الضروري تنظيم العمل التبليغي في الوطن وخارجه وإقامة المؤسسات النافعة في هذا المجال والتعاون المثمر مع المرجعية الرشيدة أو مع الجهات الرسمية في البلاد التي يحكمها الإسلام.

وهكذا فإن هذه الأمور هي ملامح الدور الذي ينبغي أن تنهض به الحوزات العلمية والذي يمكن اختصاره بأنه: إعداد العلماء الممتازين، والنهوض بعبء المرجعية وتنظيم شؤونها في حال وجود المرجع في واحدة منها، العناية بالآلام الناس والتصدي لخدمتهم وقهر ظالمهم، والدعوة إلى الإسلام في داخل الوطن وخارجه.

فهل ثمة دور أعظم من هذا..؟!!

الثاني: البرامج الدراسية:

تتميز الدراسة في الحوزة انها خاضعة لنظام الكتب المصنفة في كل مادة والمتدرجة في مستواها من حيث التعقيد والشمول إلى أن يصل الطالب إلى مرحلة البحث الخارج حيث يقتصر على استماع المحاضرات التي يلقيها الأستاذ ارتجالاً.

وليس ثمة مشكلة كبرى في بقاء الأمر على هذا النحو الذي أثبتت السنوات جدارته وصلاحيته حتى لعصرنا هذا، نظراً لما فيه من حيوية وتحرر يضع الطالب أمام مسؤوليته وكفاءته ومدى رغبته في الجد والتحصيل، ويبدو أن ثمة اجماعاً أو شبهة على بقاء الأمر على ما هو عليه من دون عناية بدعوى البعض إلى تحديث الحوزات العلمية لما يشبه الجامعات الحديثة، وهي دعوة لم يتحمس لها معظم العلماء ونتج عنها في النجف (كلية أصول الفقه) التي سرعان ما انحرفت عن هدفها وصارت كلية عادية خارجة عن روح الحوزة العلمية وهدفها. وفي ايران ثمة تجربة قال عنها بعض الفحول إنها رشيدة ويؤمل منها الخير هي (جامعة الإمام الصادق عليه السلام)، ولكن يستبعد أن تصبح هي حوزة المستقبل ولاغية لهذا النمط القديم المعتمد، والأكثر فشلاً هي تجربة الأزهر في مصر التي ساهم بفشلها تدجينها من قبل السلطة أكثر من نفس تحديثها، وإن كان القبول بتحديثها هو الذي ساعد على تدجينها.

وليس في كلام الإمام الخميني(قده) ما فيه دعوة إلى التحديث بمعنى اعتماد ما يشبه النظام الجامعي في الحوزات وإلغاء النمط القديم القائم على دراسة الكتب المتعارفة حتى الوصول إلى درجة الاجتهاد، بل إن في بعض كلامه ما يشبه التصريح بضرورة البقاء على النهج القديم؛ فقد ورد في وصيته قوله: "وعلى العلماء والأساتذة الموقرين أن لا يسمحوا بالانحراف عن طريقة المشايخ العظام في الدروس والمباحث الفقهية والأصولية، فهي الطريقة الوحيدة لحفظ الفقه الإسلامي.."([21])، ولا شك أنه(قده) يعني جوهر الطريقة وروحها القائمة على التحرر من القيود المعيقة للإبداع والاعتماد على النفس وظهور الكفاءات بنحو طبيعي وصريح، وهو لا يعني عدم تهذيب بعض الأمور المزجة التي قد تصل حد الفوضى والتي يعني تحديثها مساعدة الطالب على مزيد من الجد والتفرد، وذلك من قبيل اعتماد بعض الكتب التي تثبت التجربة أنها أفضل من القديم، ومن قبيل اعتماد دورات لكل دفعة من الطلاب الجدد، أو إدخال التقنية الحديثة لتكون في خدمة الطالب، ونحو ذلك مما لا يمس الجوهر.. من الأمور الكثيرة التي يمكن اقتراحها.. سيما للطلاب المبتدئين والأجانب.

ولما كانت الغاية من طلب العلم في مرتبتها العليا هي الوصول إلى درجة الاجتهاد فإن الإمام يوليها العناية ويشرح رأيه فيه قائلاً: "إنني أعتقد بالفقه القديم والاجتهاد الجواهري؛ أي على طريقة أصحاب الجواهر المرحوم الحجة الشيخ حسن النجفي - المشتهر بالجواهري نسبة إلى كتابه جواهر الكلام في شرح شرائع الإسلام - التي اعتمدت الطريقة المشهورة المعروفة في الاجتهاد وطريقة الاستدلال، ولا أرى ترك ذلك صحيحاً.. الاجتهاد بتلك الطريقة صحيح، إلا أن هذا لا يعني أن فقه الإسلام ليس متجديداً.. الزمان والمكان عنصران فاعلان في الاجتهاد.. المسألة التي كان لها قديماً حكم، نفس هذه المسألة في ظاهرها يمكن أن يكون لها حكم جديد بحسب الروابط التي تتحكم بالسياسة والاجتماع والاقتصاد لنظام ما.."([22]).

"يجب أن يكون المجتهد محيطاً بأمور زمانه (...) ومعرفة طريقة مواجهة حيل وتزويرات الثقافة المسيطرة على العالم، امتلاك البصر والرؤية الاقتصادية.. معرفة السياسات وحتى السياسيين وتعليماتهم التي يملونها.. كل ذلك من خصائص المجتهد الجامع"([23]).

"الحكومة - أي الأمور السياسية - تبلور البعد العملي للفقه في التعامل مع جميع المعضلات الاجتماعية والسياسية والعسكرية والثقافية.

الفقه هو النظرية الواقعية والكاملة لإدارة الإنسان والمجتمع من المهد إلى اللحد"([24]).

وفي وصيته يوصي الإمام العلماء وأساتذة الحوزة "أن يسعوا دائماً لأثرائه - الفقه - بالمزيد من الدقة والبحوث والآراء والابداع والتحقيق، لحفظ الفقه العريق، وهو إرث السلف الصالح الذي يؤدي الانحراف عنه إلى اضعاف دعائم التحقيق والتتقيق..."([25]).

ومن الطبيعي أن لا تغفل الحوزة العلمية عن الكثير من العلوم التي لها علاقة بالاجتهاد والفقه من قبيل علم السياسة والاقتصاد والاجتماع والنفس والأخلاق والفلسفة والقوانين الوضعية وغيرها، سيما وأنها تساهم في صياغة وبناء العالم الديني العارف بثقافة عصره وشؤون المجتمع الحديث ليتأتى له التبليغ بعد الوعي والقيادة الحكيمة الرشيدة.. من هنا نرى الإمام (قده) يقول في وصيته للحوزات العلمية: "وطبيعي أنه ستعد خطط في الفروع الأخرى من العلوم بما يتناسب مع احتياجات الدولة والإسلام، ويجب اعداد رجال في هذه الفروع، ومن أهم وأسمى العلوم التي يجب تعميم تدريسها ودراستها هي العلوم المعنوية الإسلامية، كعلم الأخلاق وتهذيب النفس والسير والسلوك إلى الله - رزقنا الله وإياكم ذلك - ففيه الجهاد الأكبر"([26]).

الثالث: ضرورة الوحدة:

الوحدة بين أفراد الحوزة العلمية ضرورية جداً لنهوضها بدورها، شأنها في ذلك شأن جميع فصائل المجتمع، بل إنها أولى وأهم في الحوزة منها في غيرها، نظراً لموقعها القيادي المميز وانعكاس وحدتها إيجاباً على عموم أفراد الأمة.

وقد لا تكون الوحدة مهمة لأجل التحصيل العلمي لأنه قد يحصل مع الفقرة، ولكنها مهمة لأجل تحصين الحوزة من النفوذ الاستعماري ودخول عملائهم في سلوك علماء الدين ووصولهم إلى المناصب الرفيعة ومن ثم السيطرة على الأمة عن طريق الخداع والمكائد وتثبيت النفوذ الأجنبي الكافر على وطننا الإسلامي، أو على الأقل افساح المجال أمام المتحجرين من العلماء المتظاهرين بالقداسة الذين يروجون لأفكار تدعو للخنوع والباطل وعدم الثورة عليه، كما حدث عشية الثورة الإسلامية المباركة في إيران.

"إن محل البحث الآن هو: ما العمل للحيلولة دون تكرار تلك الحوادث المريعة - التي افتعلها عدد من العلماء المتظاهرين بالقداسة - والوصول إلى الاطمئنان باستئصال نفوذ الأجانب في الحوزات، صحيح أن الأمر صعب، ولكن ما الحل، لابد من مخرج، أول واجب شرعي وإلهي هو حفظ وحدة الطلاب والعلماء الثوريين وانسجامهم، وإلا فإن أمامنا ليلاً مظلماً وموجاً مخيفاً وإعصاراً مرعباً، لا يوجد الآن أي دليل شرعي أو عقلي يجيز أن يكون الاختلاف في السلائق والفهم والاستنتاج.. وحتى ضعف الإدارة.. مبرراً لضرب وحدة الطلاب والعلماء الملتزمين، من الممكن أن يكون لكل - في حدود - جوه ذهني وأفكاره، إلا أن لحن القول والخطاب يجب أن لا يحرف أفكار المجتمع والأجيال القادمة عن مسار معرفة الأعداء الحقيقيين الذين هم سبب كل المشاكل والاحتياجات.. باتجاه المسائل الفرعية، وإلقاء كل تبعات نقاط الضعف والمشاكل - لا سمح الله - على عاتق الإدارة والمسؤولين لنستنتج من ذلك المحورية، حيث إن هذا العمل

ليس منصفاً على الإطلاق، وهو يسقط اعتبار المسؤولين ويمهد الطريق لدخول غير المبالين الذين لا يتحسسون أي ألم إلى ساحة الثورة"([27]).

ويبدو أن الذي يشير إليه الإمام (قده) هو ارتفاع أصوات كثيرة بين علماء الحوزة تنتقد المسؤولين وتتحذر عليهم باللائمة نتيجة بعض الأخطاء أو بسبب تقصيرهم في بعض الجوانب، الأمر الذي جعل الحوزة فريقين، فريقاً مولعاً بالنقد وتتبع العثرات، وفريقاً يتحمس للدفاع عن الدولة ومسؤوليتها، ويبدو أن هذه الظاهرة قد تفاقمت حتى صارت مدعاة للفرقة والخصومة بنحو يهدد الوحدة ويفسح المجال أمام المصطادين في الماء العكر أن ينفثوا سمومهم ويكيدوا للنظام الإسلامي، ولذا فغن الإمام (قده) يدافع عن الإدارة بقوله: (أنا اليوم أعتقد لو أن أكثر الأشخاص قدرة واجهوا كل هذه المؤامرات والعداوات وإشعال الحروب الموجودة في العالم ضد الثورة الإسلامية.. فليس من المعلوم أبداً أنهم كانوا يوفقون أكثر من المسؤولين الحاليين)([28]).

أما المسألة الأخرى التي كانت تهدد وحدة الحوزة العلمية فهي انتقاد جماعة من العلماء للعديد من القوانين المستحدثة التي فرضها منطق الدولة، والتي وضعت لها أحكام على خلاف الذوق الفقهي المتعارف لدى علماء الحوزة، عندما كان يتم النظر إليها بوصفها مشكلات فردية أو اجتماعية محدودة، فلما قامت الدولة اقتضى قيامها التشريع للعديد من الأمور الشائكة والمعقدة في إطار أجهزة الأمن والدفاع والاقتصاد والعلاقات الخارجية وغيرها، ولاشك أن كثيراً منها قد فاجأ جملة الفقهاء البعيدين عن مجريات الأمور في الدولة.

هذا الأمر أوجد ظاهرة أسماها (الفقه القديم والفقه الجديد) ولكل واحد منهما أنصاره الذين يتحمسون في الدفاع عنه، الأمر الذي هدد وحدة الحوزة العلمية وأربكها، وقد سلف منا القول أن الإمام (قده) يناصر الفقه القديم ويدعو إلى التجديد في علاج الكثير من المسائل الجديدة، ثم إنه يطلب من الحوزة أن تكون متحدة وغير متأثرة بهذا اللون من الخلاف والحوار، ويقول الإمام (قده): "طبعاً، لست أبداً منزعاً من المباحثات الحوزوية الساخنة في فروع الفقه وأصوله، إلا أنني منزع من تقابل الأجنحة المؤمنة وتعارضها، خوف أن تؤدي إلى تقوية الجناح المرفق الذي لا يحس بألم.. وكل همه النقيض"([29]).

ويظهر أن مدرسي الحوزة هم الذين كانوا ينقدون هذه القوانين باخلاص، فيتصدى لهم الطلاب الثوريون متوهمين أنهم يجرحون بالثورة ويشوشون عليها، فرى الإمام (قده) ينصف مدرسي الحوزة، ويطلب منهم غض النظر عن الطلاب.. قائلاً: "جماعة المدرسين يجب أن تعتبر الطلاب الأعداء الثوريين الذين تحملوا المشاق وتعرضوا للضرب وذهبوا إلى الجبهات - تعتبرهم - منها"([30]).

ثم يؤكد الإمام (قده) جهاد مدرسي الحوزة ودورهم المشرف.. قائلاً:

"هل المدرسون المحترمون الذين كانوا العمود الصلب للثورة في الحوزات العلمية قد تنكروا - والعياذ بالله - للإسلام والثورة والناس...؟! ألم يدعم المدرسون الأعداء الجبهة والمقاتلين"([31]).

وإذا كان الأمر كذلك.. وكان الإخلاص سيد الموقف فإن النتيجة تكون أنه "ليس هناك اختلاف بين جامعة المدرسين والطلاب الثوريين، وإذا كان، فعلى ما، على المبادئ أم على السلائق؟"([32]).

أما الحل المعقول والواجب فهو ما يأمر به الإمام (قده): "اعتدوا جلسات معهم حتماً، واستمعوا إلى طروحاتهم وآرائهم، وعلى الطلاب الثوريين أن يجلسوا المدرسين الأعداء المؤيدين للثورة، وأن ينظروا إليهم بعين الاحترام، وأن يكونوا يداً واحدة في مقابل طيف التافهين الانتهازيين أهل النقيض، وليحرصوا على مزيد من الجاهزية للإيثار والشهادة في طريق هداية الناس.."([33]).

"والخلاصة أن الاختلاف مدمر.. بأي شكل كان، وعندما تصل القوى المؤمنة بالثورة إلى التخاصم.. ولو باسم الفقه القديم والفقه المتجدد، فإن ذلك سيكون بداية فتح طريق الفرصة للأعداء"([34]).

الرابع: تنظيم الحوزة:

لا يخفى على العارفين بشؤون الحوزات أن ثمة توجهاً عاماً لدى أهل العلم إلى عدم ضرورة تنظيم الحوزة العلمية، وإن كان في هذا الموقف قدر كبير من الغموض حول حدود التنظيم المحمود أو المذموم، الأمر الذي فسح مجالاً لقبول ألوان من التنظيم لدى جملة من أهل العلم في الوقت الذي يرفضون ألواناً أخرى منه.

والحق أنه لم يتح لي مجال الاستقراء المستوعب لآرائهم لفرزها ومنهجتها، ولكن يمكن الاطمئنان إلى سيادة عرف بين أهل العلم مفاده: ضرورة المحافظة على النمط التدريسي المعتمد، إن في الكتب الدراسية أو في أسلوب التدريس أو في مراحل النمو العلمي، وعدم ضرورة التحديث في هذا الجانب.

أما تنظيمها في إطار الأمور الإجرائية العائدة إلى وضع شروط لقبول الطالب على أساسها، أو وضع نظام امتحانات لاستكشاف نمو الطالب، أو ضبط موضوع الدوام والعطلة، أو التدقيق في مسلكية الطالب من الناحية الأمنية، أو اعتماد مباني حديثة مزودة بالتقنية المريحة للطالب في تحصيله وسكنه، أو تنظيم شبكة مبلّغين تغطي احتياجات الأمة، أو غير ذلك من الأمور، فإن التنظيم بهذا المعنى لا أعلم وجود من يعترض عليه؛ وصحيح أن الحوزة قد تكون في مدينة كبيرة.. ومن ثم يصعب ضبط بعض الأمور التي ذكرت، ولكن ذلك لا يعني تركها سائبة يدخل فيها من شاء فيحسب على علماء الدين وهو ليس منهم، سيما وأن الأمور التي تعز على الضبط قليلة.. وبالأخص لدى وجود دولة إسلامية قادرة على ترتيب الأمور بدرجة كبيرة من الدقة.

والحوزة عندما تتوحد تصبح قاردة على ترتيب أمورها في أحلك الظروف ودون أن يكون للظالمين سلطان عليها.

إن الإمام الخميني (قده) يشدد في وصيته على ضرورة تنظيم الحوزات العلمية، ويذكر هذا الوجوب في سياق تخوفه من مكائد أعداء السلام، فيقول (قده) مستعرضاً ذلك والمخاطر الناجمة عنه: "وإحدى وسائلهم المؤثرة في تحقيق نواياهم المشؤومة.. الخطرة - للغاية - على الإسلام والحوزات الإسلامية، هي إعداد أفراد منحرفين جناة للتوغل إلى الحوزات العلمية، والخطر الكبير لهذا التوغل على المدى القريب هو تشويه صورة الحوزة العلمية بأعمال المتوغلين غير اللائقة وأخلاقهم وسلوكياتهم المنحرفة، والخطر الأكبر لهذا التوغل على المدى البعيد هو وصول واحد أو بعض الدجالين إلى المقامات العليا في الحوزات باطلاعهم على العلوم الإسلامية، وتكوين موقع اجتماعي لأنفسهم بين الجماهير، واستغلال حسن ظن طيبي القلب منهم واستغلال مودتهم، ليكونوا مصدر توجيه ضربات القاصمة في الوقت اللازم للحوزات الإسلامية والإسلام العزيز".

"... يجب على الجميع أن يحبطوا ببقطة هذا القسم من المؤامرة، ويتأكد هذا الواجب أكثر من الجميع على الحوزات العلمية، وتقع مسؤولية تطهير وتنظيم هذه الحوزات على الأساتذة الموقرين والأفاضل ذوي السابقة الحسنة، بتأييد من مراجع كل عصر".

"ولعلّ مقولة: "إن نظم الحوزة في عدم نظمها" من الإيحاءات المشؤومة لنفس المتأمرين ومخططي المؤامرة"([35]).

فهاجس الإمام ودافعه الأساس إلى الأمر بتنظيم الحوزات هو وجوب تحصينها من الأعداء كي لا ينفذوا منها في حال بقائها فوضى، وإنما يكون التنظيم محققاً لذلك في جانبه الاجرائي لا التدريسي، سيما وأنه (قده) بعد ذلك يوصي باعتماد طريقة القدامي في التحصيل والاجتهاد.. ربما ليوحى أن هذا الأمر لا ينبغي أن يمس.. إلا مساً خفيفاً.. كما سبق القول منا في هذا البحث.

لذا تراه يعود ليؤكد البعد الأمني لهذا الإجراء في قوله (قده): "على أي حال، فوصيتي هي: ان المبادرة في تنظيم الحوزات ضرورة واجبة في كافة العصور، وفي هذا العصر بالذات، حيث تسارع واشتداد المؤامرات وتنفيذ المخططات"([36]).

الخامس: الفرار من الظالمين:

إن من واجب الحوزة العلمية أن لا تنشئ علاقة مع السلطة الظالمة أبداً، سيما في إطار التحديث لبرامجها الدراسية أو في إطار احتياجاتها المادية، ولقد شدد الإمام الخميني (قده) على ضرورة بُعد العلماء عن الارتهان للسلطين والقيام بخدمتهم، وعلى ضرورة بعد الحوزات العلمية بعداً تاماً عن الدخول في ركب السلطان الجائر تحت أي ذريعة من الذرائع. ولما كان الأصل في الحوزات وعلماء الدين هو خدمة المحرومين والحفاة وتخليصهم من براثن المستكبرين فإنه لن يتأتى لهما النهوض بهذا الواجب عندما يكونان على علاقة به توجب لهما مداراته والسكوت عنه، أو تغريه بالمزيد من الظلم أو أن تقره عليه.

وقد يكون من الضروري لعالم ثقة أن يقضي بعض حاجات المؤمنين لدى هذا الظالم.. أو بعض الأمور المتعلقة بقانون الدولة التي توجد فيها الحوزة، ولكن لا بد من اعتماد العالم المؤمن.. والاقتصار في العلاقة على مقدار الضرورة.. وتجنب كل ما من شأنه الإيهام بالركون إلى الظالمين، دون أن يعني ذلك جوازه لجميع العلماء أو للحوزة بما هي كيان، بل من يتأدى به الواجب.. ولدى الضرورة فقط.

في هذا الموضوع.. للإمام (قده) العديد من الفتاوى التي ضمنها كتابه (تحرير الوسيلة) ([37])، وهي لا تخرج في مجملها عن هذه الفكرة التي عرضناها، مضافاً إلى ما ضمنه خطبه تكراراً من الحديث عن علماء سوء ووعاظ السلاطين.

وبهذا نكون قد استعرضنا ما وقع تحت أيدينا من آراء للإمام (قده) في موضوع الحوزات العلمية.. وهو موضوع حيوي وهام جداً، ومن المؤكد أنه يمكن التوسع أكثر من ذلك.. ولكن هذا ما وفقنا إليه الآن.

نسأل الله تعالى العفو والمغفرة.. وأن ينفعنا بتعاليم إمامنا الفقيد رضوان الله عليه.. وقبلها بتعاليم آبائه الأطهار البررة، إنه سميع الدعاء.
وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

[1]] من خطاب للإمام الخميني (قده) بتاريخ 22/ شباط/ 1989م، عقيب اعلانه الحكم بقتل سلمان رشدي صاحب كتاب (آيات شيطانية)، والمخصص في معظمه للحديث عن الحوزات والعلماء - هدية العهد.

[2]] سورة التوبة: 122.

[3]] من خطاب للإمام الخميني (قده) في 22/ شباط/ 1989م.

[4]] من خطاب للإمام الخميني (قده) في 22/ شباط/ 1989م.

[5]] من خطاب للإمام الخميني (قده) في 22/ شباط/ 1989م.

[6]] من خطاب للإمام الخميني (قده) في 22/ شباط/ 1989م.

[7]] من خطاب للإمام الخميني (قده) في 22/ شباط/ 1989م.

[8]] من خطاب للإمام الخميني (قده) في 22/ شباط/ 1989م.

[9]] من خطاب للإمام الخميني (قده) في 22/ شباط/ 1989م.

[10]] من خطاب للإمام الخميني (قده) في 22/ شباط/ 1989م.

[11]] من خطاب للإمام الخميني (قده) في 22/ شباط/ 1989م.

[12]] من خطاب للإمام الخميني (قده) في 22/ شباط/ 1989م.

[13]] من خطاب للإمام الخميني (قده) في 22/ شباط/ 1989م.

[14]] من خطاب للإمام الخميني (قده) في 22/ شباط/ 1989م.

[15]] من خطاب للإمام الخميني (قده) في 22/ شباط/ 1989م.

[16]] من خطاب للإمام (قده) بمناسبة مرور عام على مجزرة مكة - 1408هـ.

[17]] من خطاب للإمام (قده) بمناسبة مرور عام على مجزرة مكة - 1408هـ.

[18]] من خطاب للإمام (قده) في 22/ شباط/ 1989م.

[19]] من خطاب للإمام (قده) في 22/ شباط/ 1989م.

[20]] من خطاب للإمام (قده) في 22/ شباط/ 1989م.

[21]] وصية الإمام (قده) ص 33 - هدية العهد.

[22]] من خطاب الإمام (قده) في 22/2/1989.

[23]] من خطاب الإمام (قده) في 22/2/1989.

[24]] من خطاب الإمام (قده) في 22/2/1989.

[25]] وصية الإمام (قده) ص 33 - هدية العهد.

- [26]) وصية الإمام (قده) ص 33 - هدية العهد.
- [27]) من خطاب الإمام (قده) في 1989/2/22م.
- [28]) من خطاب الإمام (قده) في 1989/2/22م.
- [29]) من خطاب الإمام (قده) في 1989/2/22م.
- [30]) من خطاب الإمام (قده) في 1989/2/22م.
- [31]) من خطاب الإمام (قده) في 1989/2/22م.
- [32]) من خطاب الإمام (قده) في 1989/2/22م.
- [33]) من خطاب الإمام (قده) في 1989/2/22م.
- [34]) من خطاب الإمام (قده) في 1989/2/22م.
- [35]) وصية الإمام (قده) ص 33 - هدية العهد.
- [36]) وصية الإمام (قده) ص 33 - هدية العهد.
- [37]) انظر المسائل: 13 - 14 - 15 - 16 - 17 - 18 - 19 من مسائل الشرط الرابع من شروط الأمر بالمعروف ص 427 - 428 ج1، تحرير الوسيلة - طبعة سفارة الجمهورية الإسلامية في بيروت - سنة 1987م.

الفصل السادس: التغيير السياسي والفكري في نهج الإمام الخميني(ره)

مهدي نصّار

الحديث عن نظريات التغيير في المجتمع الإنساني لا يختص بالمسلمين فحسب، وإنما هو من إبداعات مختلف المصلحين في كل مكان وخلال العصور التاريخية، لكن وجه الاختلاف بينهم يعود بالأساس إلى المنطلقات الفكرية والعقائدية التي يستلهمون منها الآراء والنظريات، واتفاق عدد كبير من المصلحين على المبدأ أو الفكرة المراد إيصالها، لا يعني بالضرورة الاتفاق على أساليب وطرق الوصول إلى مرحلة التبني الكامل للفكرة في المجتمع الإنساني، وما يميز بعض تلك الأساليب عن البعض الآخر قدرتها الفعلية على التأثير وإيصال الفكرة بأقل مجهود وعقبات وإشكالات ممكنة، وهذا ما يفسر اخفاق الكثيرين ونجاح قلة قليلة من المصلحين في محاولاتهم الرامية إلى إصلاح أو تغيير مجتمعاتهم بالفكرة التي يتبنونها.

وإذا أمعن المراقب والمطلع النظر في عدة نماذج لمحاولات تغييرية أو إصلاحية فسيجد أن تلك التي اقترب خطابها التغيير من هموم الناس وآلامهم وآمالهم هي الأكثر قدرة على الاستقطاب وعلى قيادة المجتمع باتجاه التغيير، بخلاف تلك التي تختار الأساليب غير الملائمة بشكل مباشر لتلك الهموم، فإنها وإن كان بعضها ذا جدوى في مداه البعيد لكن قيمة الزمن في العملية التغييرية لا يجب أن تغفل، خاصة وأن عملية التغيير القائمة ليست حركة في فراغ، بل على العكس من ذلك فهي معارضة بواقع قائم وبحركات وقوى أخرى تتحرك باتجاهات مختلفة لإحداث التغيير بصيغ واطروحات مختلفة.

وإذا كانت مقتضيات التطور الاجتماعي والحضاري للأمم تستدعي وجود حركة دائمة متغيرة، فإن الأمة الإسلامية التي ابتليت بعارضي التبعية والانحطاط، هي الأكثر حاجة لاحتضان الحركات التغييرية فيها، وذلك لانقاذها من واقعها الغريب عن فكرها وحضارتها. فالأمة تعيش غربة حقيقية على مستويات عدة، ورفع هذه الحالة يستدعي حركة تغييرية تطالها جميعاً. وبما أن الوسائل لتحقيق ذلك الهدف متنوعة، فقد اختلفت التيارات والحركات والشخصيات الإسلامية تبعاً لها؛ فالبعض كان يرى في العنف أنجع وأفضل وسيلة لإحداث التغيير فأمن بالجهاد المسلح، معتبراً ذلك يعجل في إسقاط السلطات القائمة، وآخرون ذهبوا إلى أن الانحراف الحاصل اليوم يستدعي ممارسة الدعوة إلى الله تعالى من جديد، وأن الأمة تعيش الغربة شبه الكاملة عن الإسلام، تماماً كما بدأ الإسلام غريباً في الأيام الأولى للبعثة، والتشابه في الظروف يقتضي التشابه بالأسوب؛ فكما أن الرسول محمد (ص) انتهج المرحلية كأسلوب لدعوة الناس إلى الإسلام فكذلك الدعاة اليوم يفترض بهم تبني المرحلية أيضاً.

وهناك نظريات ورؤى أخرى مخالفة لوجهتي النظر السابقتين، ومهما يكن فإن تشخيص الخطوط العامة يبرز الأساليب التي اتبعت، وبالتالي لأكثرها قدرة على تحقيق المشروع المتوخى بالسرعة والدقة المطلوبتين.. يفترض استعراض مختلف التيارات المحركة لمعالجة نقاط القوة ونقاط الضعف، مما يسهل على الباحث معرفة عوامل الاخفاق والنجاح المختلجة في كل منها.

وللإنصاف والموضوعية، ينبغي الالتفات إلى حقيقة أخرى لا شك بمؤثريتها على النتائج النهائية لأساليب التغيير، وهي دور القيادة وخصائصها ومميزاتها؛ فهي بحد ذاتها قد تصبح مبعثاً للتحريك والاستقطاب لما لها من نفوذ وقوة تأثير لا تتوفر في مثيلاتها في الحركات الإسلامية الأخرى. وهذه الخاصية ربما تظهر أرجحية بعض الأساليب من دون أن يكون للأسلوب مدخلة في نفس الترجيح، اللهم إلا إذا قيل إن منشأ ارتباط الأمة بالقيادة وتعلقها به كان بسبب الأسلوب الذي اختاره القائد، وأن تماهي الاثنين أدى إلى اللبس، فبدا وكأن الأثر الفاعل هو لنفس القائد. لكن حتى هذا لا ينفي بأي شكل من الأشكال خصوصية شخص القائد، وأدنى تأمل في المسألة يكشف هذه الحقيقة؛ فلو افترضنا أن الأسلوب نفسه مارسه قائد آخر مختلف عن ذلك القائد الذي تحقق على يده التغيير، فهل النتيجة التي يحصل عليها الأول يمكن أن يحصل عليها الثاني؟ بالطبع لا.

ما تقدم لا يكفي للحكم على صلاحية الأسلوب، فالأطروحة ونظرية التغيير والقائد كلها عناصر أساسية لا تكفي وحدها للحكم على التجربة؛ فالأمة أيضاً عنصر آخر في غاية الأهمية، يجدر بالباحث دراستها والاطلاع على خصوصياتها، فلعلها كانت من أبرز العناصر التي تعضد عملية التغيير وتدفعها إلى النتيجة المتوخاة.

إذاً عملية التغيير ليست، ببساطة، مجردة قيادة، ولا أمة دون قيادة، ولا حتى أطروحة عقائدية وأخيراً ليست أسلوباً متقناً، فهي باختصار مجموع هذه العناصر. وقد يكون الأسلوب المستخدم من أبرز تلك العناصر، ولهذا كان البحث، الذي بين أيدينا، يهدف أساساً إلى دراسة أساليب العمل في الحركات الإسلامية وصولاً إلى تشخيص أسلوب الإمام الخميني الذي استخدمه في معركته القاسية والطويلة مع النظام الإيراني الشاهنشاهي. وبما أن الإخوان المسلمين هم أول من اضطلع على مستوى الحركات التغييرية المعاصرة على أساس الإسلام، كان لا بد من تناول تجربتهم، على أن يتم تناول مختلف التجارب الأخرى وفق ترتيبها الزمني.

الإخوان المسلمون

اعتمد المرشد العام للإخوان المسلمين([1]) في بداية عمله التغيير في الأمة على التنظيم الحزبي، والنظام الخلوي الحلقي في مسيرة أعداد الأمة للنهوض بأعباء التغيير، وقد اعتمد لهذا الأمر "مبدأ الانتساب إلى جماعة الإخوان المسلمين وجعلها للعضوية ستة مراتب:

مساعد - منتسب - عامل - مجاهد - نقيب - نائب" [2]) ويرى سعيد حوى "أن الارتباط بجماعة منظمة أمر لا مندوحة عنه للمسلم شرعاً وذلك لأسباب كثيرة منها:

- 1 - أهداف الإسلام لا تتحقق إلا بهذا الانتساب، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب...
- 2 - أول صفات المسلمين أنهم يوالون بعضهم (...) والولاء الكامل في عصرنا لا يتحقق إلا ضمن جماعة...
- 3 - لابد للمسلم من أن يعطي طاعته لجهة {أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم} وأولى من يقدم له المسلم طاعته في عصرنا هي الجماعة، لأن قرارات الجماعة أسلم وأحكم وأبعد من الهوى وأكثر بركة: "يد الله مع الجماعة ومن شذَّ شذَّ في النار"...
- 4 - الانتماء لابد منه ليحقق الإنسان الإسلام في ذاته... وكثير من المعاني الإسلامية لا يذوق طعم التحقق بها إلا داخل الجماعة.
- 5 - لا يستطيع الإنسان تحقيق كماله إلا داخل الجماعة (...) وهناك أمور غير ممكنة التحصيل إلا داخلها.
- 6 - قال (ص) لحذيفة: "أن تلزم جماعة المسلمين وإمامهم، قال: فإن لم يكن للمسلمين جماعة ولا إمام: قال (ص): اعتزل تلك الفرقة كلها ولو أن تعض على أصل شجرة حتى يدركك الموت وأنت على ذلك" و"الجماعة أن تكون على الحق ولو كنت وحدك"...
- 7 - التنظيم يدفع الإنسان إلى العمل في أطواره الدنيا والعليا (...) بالتنظيم يضم المسلم قوته إلى قوة إخوانه، وبالتنظيم يكمل الجيل اللاحق عمل الجيل السابق... [3]).

هذه المبررات التي أطلقها (الإخوان المسلمين) للعمل الحزبي أصبحت فيما بعد بمثابة مبررات حفزتهم لاعتبار أنفسهم الجماعة القدوة التي ينبغي أن يضم المسلم يده في يدها [4])، ونمت الفكرة التنظيمية تدريجياً بحيث أخذت تتشكل على أساسها ثقافة خاصة يختار لتحصيلها جماعة من المسلمين [5])، والشعور بالتمايز ما انفك ينمو عند الإخوان إلى حد وصف التجمعات الإسلامية الأخرى بالقصور، "عن أن تكون الجماعة التي ينبغي أن ينخرط فيها المسلمون" [6]). صحيح أن الإخوان لم يدعوا الأمة بالكامل وانشغلوا بالكتلة أو الجماعة باعتبار أن "التكوين النموذجي (...) يقتضي - بنظرهم - أن تقسم مناهج التكوين إلى قسمين: مناهج التكوين الموجه ومناهج التكوين العام" [7]) غير أن الاهتمام بقي منصباً بشكل أساسي على التكوين الخاص؛ يقول الأستاذ البنا في مذكراته: "مقررات المؤتمر الثالث" وتحت عنوان: "التكوين العملي للإخوان المسلمين":

"1 - على مكاتب الهيئات الرئيسية لدوائر الإخوان المسلمين أن تعنى بتربية الإخوان تربية نفسية صالحة، تتفق مع مبادئهم وتميز هذه المبادئ في نفوسهم، وتحقيقاً لهذه الغاية يكون الانضمام للإخوان على ثلاث درجات:

أ - الانضمام العام.

ب - الانضمام الأخوي.

ج - الانضمام العملي" [8]).

ولعل نظام الكتائب هو المعبر بدقة عن الثقافة الحزبية الخاصة، التي لا يستفيد منها إلا المنتسبون، وقد يكون الأستاذ البنا قد استلهمه واشتقه - كما عبر محمود عبد الحليم - "من اجتماعات دار الأرقم بن أبي الأرقم (...) وكان في نية الأستاذ المرشد أن يتدرج في انشاء الكتائب حتى يسلك فيها كل اخوان المركز العام، على أن يقوم هو بنفسه فيه بدور التوجيه والتربية..." [9]).

ولم تنحصر المسألة بالجانب الثقافي وإنما أضفى الإخوان على حركتهم طابع الشمول والتفرق، ولم يكن هذا الشعور كامناً في النفوس أو مترجماً بسلوكيات الأعضاء وإنما كان يترجم بالقول وبصريح العبارة. يقول سعيد حوى: "إن أعظم ما تمثل به حزب الله كاتجاه في عصرنا وفي منطقتنا هو دعوة الإخوان المسلمين، في الإطار الذي صاغها فيه الأستاذ البنا، وهي بنفس الوقت أقدم الحركات الإسلامية الشاملة المعاصرة تأسيساً (...) ولو أننا تتبعنا الفئات التي قامت في المنطقة العربية، وكان لها دور فيها، لم نجد فئة إسلامية أخذت من أخلاق الإسلام كما أخذ الإخوان المسلمون، في الإطار الذي أقامهم به الأستاذ البنا. كما أن التيار الإسلامي الذي أحدثه الإخوان لا يشبه تياراً آخر. إن المكان الذي لم تصله دعوة الإخوان المسلمين قد لا تجد فيه فئة محور تركيبها الأخلاق الأساسية لحزب الله، والثقافة الإسلامية المتكاملة، لذلك أصبحت حركة الإخوان علماً على إرادة الإسلام الشامل الكامل تحقيقاً لقوله تعالى: {يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة} [10]).

وبناء الكتلة - النخبة - لم يقتصر على المسألة الثقافية فحسب، وإنما بذلت جهود على المستوى التربوي وحتى الشكلي لإظهار الخصوصية في قبال عامة الناس، ولهذا كانت فكرة الشارة المميزة والمجلة المعبرة عن هذه الكتلة [11]) عدا عقد المؤتمرات الحزبية والتنظيمية

كمؤتمر أسويط والمنصورة [12])، من علامات الروح الحزبية في التنظيم.. وبناء الأفراد وإعدادهم في تنظيم الإخوان كان يلحظ مقومات الجماعة، ولهذا كانت مفاهيمها - الجماعة - حاضرة في مناهج وبرامج التكوين الخاص، وقد أفرد للحديث عن الجماعة ومواصفاتها الكثير من المواد التثقيفية، وكان الهدف الواضح المتوخى هو أن يصبح الإخوان ممثلي الأمة وحكامها مستمدين شرعيتهم من اعتبارهم الجماعة صاحبة الحق في الولاية "إخوان مسلمون، وما داموا على الحق فهم الجماعة، وقد قال ابن مسعود رضي الله عنه: (الجماعة أن تكون على الحق ولو كنت وحدهم) [13])". وهذا الطرح لم يبق مجرد غاية بطمحون للوصول إليها، بل على العكس صرح البعض بأن الإخوان قد أصبحوا الجماعة أو هم الأقرب ليكونوا جماعة المسلمين، بعد أن صنفهم عدد من فقهاء الدعوة في التنظيم بأنهم جماعة من المسلمين لكن ليسوا جماعة المسلمين [14])، والبعض الآخر اكتفى بوصف حركة الإخوان بأنها تسير في الطريق الصحيح، بعد أن شخّص الأهداف التي ينبغي تحقيقها ويتوقف اعداد مستلزمات الجماعة "الجماعة التي يفترض على كل مسلم أن يضع يده بيدها هي الجماعة التي تحمل على عاتقها تحقيق الأهداف الإسلامية، التي هي فروض: كتكوين الشخصية الإسلامية، وإقامة الدولة الإسلامية، وإعادة الوحدة الإسلامية، وإعادة منصب الخلافة (...) وواضح أن جماعة الإخوان هي الجماعة الوحيدة التي حملت على عاتقها هذا العبء كاملاً، وسارت في الطريق العملي والصحيح لتحقيقه..." [15]).

يتضح مما تقدم أن "الإخوان" اختاروا العمل الحزبي المتعارف عليه في العصر الحديث وسيلة لتغيير الأمة بالإسلام، وأن الشكل الحلقي - من حلقة - هو المعتمد في عملية اعداد وتربية الأفراد، غير أن "الإخوان" لم يكتفوا بالتكوين الخاص - كما يعبرون هم عن الاعداد الحزبي - بل لاحظوا الأساليب التي كانت متبعة في عهد الرسول محمد (ص) في تكوين الأمة وتربيتها واستخدموها، وإن بقي هاجس "صناعة الرجال" أو الكتلة هو الغالب؛ يقول حوى: "نلاحظ أن المسلمين في حياة رسول الله (ص) كان لهم ارتباطان: ارتباط عام بمؤسسات الإسلام وحلفائه، وارتباط خاص بالجماعة الإسلامية وقياداتها - يظهر ذلك في الولاء الكامل والطاعة الكاملة - كان لهم ارتباط عام في المسجد في الصلاة، وحلقات العلم، وحلقات القرآن، وحلقات الوعظ، وفي كونهم مسلمين، وفي خطبة الجمعة. وكان لهم ارتباطهم الخاص بنبينهم (ع)، وكان مظهر كمال إيمانهم قوة ارتباطهم بالقيادة الإسلامية والجماعة الإسلامية طاعة وولاء (...) إن الجماعة الإسلامية - العاملين فيها - لا يصح أن يستنفذوا طاقاتهم في الابتداء إلا في تكوين الرجال، ريثما يتكون الصف العريض الذي يمكن أن يعمل في تكوين الرجال..." [16]).

إذاً كان للأمة نصيب من اهتمام "الإخوان" بقي فترة طويلة منحصرأً بالجانب التربوي والتثقيفي، بينما تُركت الأمة تختار ولأهـ السياسي أو مشدودة بهمومها السياسية والاجتماعية للسلطة الحاكمة. غير أن اللافت في البيت غياب الدور العلماني في مسيرة الإخوان والأزهر بالتحديد، وهو وإن كان لا يخلو من المبررات لكنها ليست كافية لأقصائهم أو للتفكير بتأهيلهم بالمستوى المطلوب حتى يؤدوا وظيفتهم الشرعية الطبيعية. ومحدور ارتباط الأزهر وقيادته بالسلطة وخضوعهما لأوامرها وبالتالي لتوجيهات الانكليز، يفترض أن يتحول إلى حافز لانتزاع الورقة من أعداء الإسلام بدلاً من الخوف والحذر. وحين نتحدث عن الجماعة لا ننفي محاولات التأثير في الفئات المستنيرة والمخلصة، لكن ذلك لا يكفي، لأن تأثير هؤلاء يمكن أن يزول فيما لو واجهه علماء وطلبة الأزهر الباقون [17])، وما رشح من صيغ التمني بأداء الأزهريين ودورهم دون بذل أدنى جهد في انتزاع هذه المؤسسة الحساسة والمهمة من مخالب المستكبرين وأذنانهم يعكس إما ذهولاً عن حجم أثر هؤلاء أو عدم الرغبة في التعاون معهم على الصعيد التنظيمي. يقول سعيد حوى: "ما أجود لو أن جمعيات العلماء شكلت فرقاً تعليمية من أهل العلم، ليطوفوا بالمساجد مسجداً مسجداً، ويطلبوا من أهل كل مسجد أن يعطوهم بعض الأوقات خلال أسبوع واحد، يقيمون خلاله دورة علمية على جانب من الجوانب العلمية، ثم ينتقلون منه إلى مسجد آخر، ثم بعد فترة يعودون إلى المسجد الأول ليقوموا دورة جديدة على علم آخر لمن شارك في الدورة الأولى، وعلى العلم نفسه للجديد، وهكذا..." [18]).

وبالرغم من وضوح الأهداف عند المرشدية العامة والقواعد والتي لخصها سعيد حوى بالتالي:

1 - أن يتحرر الوطن الإسلامي من كل سلطان أجنبي.

2 - أن تقوم في هذا الوطن الحر دولة إسلامية حرة تعمل بأحكام الإسلام، وتطبق نظامه الاجتماعي وتعلن مبادئه القويمة (...) وما لم تقم هذه الدولة فإن المسلمين جميعاً أئمون مسؤولون بين يدي الله عن تقصيرهم في إقامتها وقعودهم عن إيجادها" [19]).

مع وضوح هذه الأهداف وإبداء الرغبة بالتعاون مع أي مسلم "يعمل لإقامة الإسلام" [20]) وعدمه مع أي كتلة "تعارض أن يكون دين الدولة الإسلام" [21])، غير أن الوسائل والأساليب لم تكن بمستوى تلك الغايات العظيمة، فمن خلال استعراض مجمل مسيرة الإخوان لم نصادف أي شكل من أشكال المواجهة مع الحكام، بل على العكس يظهر من جملة مواقف وممارسات إن دعوة "الإخوان" كانت تفصل بين السياسة والتربية، فترى أن إعداد الأمة وتأهيلها يحتاج إلى الثقافة والوعي السياسي دون الممارسة السياسية، ولهذا كانت تصدر ممارسات من قبل المرشد وأبرز الدعاة في قيادته توحى بالمهادنة أو التعاطي الإيجابي مع حكام مصر. ويروي محمود عبد الحليم قصة لقاء المرشد العام مع الملك فاروق وعلي ماهر وهي توحى بوجود شعور وميل واضح للمهادنة كما هو ظاهر من نص الرواية: "حضر الركب الملكي يتقدمه الملك وبجانبه علي ماهر - وكان في ذلك الوقت رئيساً للديوان الملكي فيما اذكر - فحييناه هاتفين له وللإسلام، فأخذ علي ماهر بيد الاستاذ المرشد وقدمه للملك فسلم عليه الاستاذ مصافحاً باحترام دون تقبيل يده، كما كان العرف في ذلك الوقت، ودون

انحناء" [22]). ولعل المراهنة علمكانية قبول الملك، المدعوم من الانكليز، بفكرة تطبيق الشرعية، توحى وكما صرح محمود عبد الحليم بالسذاجة [23]). وهذا الأمر يعكس طبيعة التربية السياسية الخالية من الاثارة والحدية في مواجهة الأنظمة التي تحكم بغير الإسلام، واللافت أن سعيد حوى يجاهر بقناعة "الاخوان" في رفض "الثورة" بقوله: "وأما الثورة فلا يفكر الاخوان المسلمون فيها، ولا يعتمدون عليها ولا يؤمنون بنفعها ونتائجها، وإن كانوا يصارحون كل حكومة في مصر بأن الحال إذا دامت على هذا المنوال، ولم يفكر أولو الأمر في اصلاح عاجل وعلاج سريع لهذه المشاكل، فسيؤدي ذلك حتماً إلى ثورة ليست من عمل الاخوان المسلمين ولا من دعوتهم، ولكن من ضغط الظروف ومقتضيات الأحوال وإهمال مرافق الاصلاح..." [24])، ويعتقد أن المنهج المشار إليه كان سبباً لتشكيك الكثير من المستيرين، في مراحل دعوة الاخوان الأولى، بالمرشد والحزب في آن، وقد تطورت حلة التشكيك إلى حد دفعت بكتلة من هؤلاء إلى الانشقاق عن القيادة بزعامة احمد رفعت سنة 1938 [25])، وكانت مبررات هؤلاء تطال المنهج الذي أشرنا إليه بالكامل، حيث انحصرت مطالبهم في بنود ثلاثة:

1 - انه يرى أن الاخوان تامل الحكومة وتتبع معها سياسة اللف والدوران، ويجب على الاخوان أن يواجهوا الحكومة بالحقبة التي قررها القرآن في قوله: {ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون}.

2 - موضوع المرأة وإلزامها حدود الإسلام في عدم التبرج، والاحتشام.

3 - موضوع فلسطين: يرى أحمد أن وقوف الاخوان في مساعدة مجاهدي فلسطين عند حد الدعاية لهم وجمع المال لهم هو تقصير في حق هذه القضية وقعود عن الجهاد وتخلف عن المعركة... [26])، وإحساس أحمد رفعت برتابة خطوات التحرك في مسيرة "الاخوان" لم يكن يتيماً وإنما كان يعكس شعوراً عاماً مكبوتاً كان يحتاج لمتنفس، ولا يجد المرء حيل هذا الأمر سبباً للاندحاش كما كان واقع محمود عبد الحليم [27]). والذي يلقي على تلك الصورة المزيد من الضوء، خطة المرشد العام حسن البنا في ترشيح نفسه لدائرة الاسكندرية [28])، وهي وإن كانت تنقل الصراع إلى أجهزة الدولة، التشريعية منها تحديداً، لكنها تطيل من عمر النظام وتستدرجه إلى اتباع سياسة المهارات والتمنيع ثم المحاصرة داخل الأطر "البرلمانية"، ويقع ساعته الخطاب السياسي والعقائدي فريسة التشكيك والتضليل، فيمهد للاضطهاد، ومن ثم المحاصرة، فالاسقاط.

ما تقدم مجرد عرض لأبرز ملامح تجربة الاخوان في حياة المرشد "حسن البنا"، وقد وجدنا أن تحليل تلك الملامح والحكم عليها بمفردها ربما يساعدان في اطالة البحث ولهذا كان من الأفضل متابعة عرض تجربتي حزب التحرير الإسلامي وحزب الدعوة، لملاحظة مواقع التقاطع والافتراق، ليصار من ثم على دراسة تلك التقاطعات، علماً كانت تغلف علة اخفاق هذه الحركات الإسلامية.

حزب التحرير

لم يختلف حزب التحرير عن حزب الاخوان في مسألة اختياره للعمل الحزبي كإطار يقود ويوجه المسلمين الملتزمين بنهجه وأطروحاته، وقد استدل مؤسسه على ضرورة قيام حزب من الآية القرآنية الكريمة: {ولتكن منكم أمة} ويوردون في موادهم التثقيفية كيفية الاستدلال بالقول: "لأن الله سبحانه قد أمر المسلمين في هذه الآية أن تكون منهم جماعة متكئة، تقوم بأمرين اثنين:

1 - الدعوة إلى الخير؛ أي الدعوة إلى الإسلام.

2 - الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر.

وهذا الأمر باقامة جماعة متكئة هو لمجرد الطلب، لكن وجدت قرينة تدل على أنه طلب جازم، فالعمل الذي حددته الآية لتقوم به هذه الجماعة المتكئة - من الدعوة إلى الإسلام، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر - هو فرض على المسلمين أن يقوموا به (...) أما كون هذه الجماعة المتكئة تكون حزباً سياسياً فجاء من ناحية أن الآية طلبت من المسلمين أن يقيموا منهم جماعة، ومن ناحية تحديد عمل هذه الجماعة بأنه الدعوة إلى الإسلام، والأمر بالمعروف (...) وعمل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر شامل لأمر الحكام بالمعروف، ونهيه عن المنكر، بل هو أهم أعمال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وهو محاسبة الحكام، وتقديم النصح لهم، وهذا عمل سياسي، بل هو من أهم الأعمال السياسية، وهو من أبرز أعمال الأحزاب السياسية..." [29]).

إذاً هناك أمر بوجوب إيجاد الكتلة الإسلامية المستوعبة لدورها في وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والدعوة إلى الإسلام، والكتلة هي إحدى تعبيرات الحزب كما استفاد "التحريرون" منها.

كما ويتقاطع حزب التحرير مع الإخوان في المسألة الثقافية، فالإخوان يرون أن المرحلة التي نمر بها هي كالمراحل المكية، والمتعين على أساسها هو الإعداد الفكري، كذلك حزب التحرير إنه يرى الأمر نفسه وقد جاء في إحدى نشراتهم أن "المسلمين اليوم يعيشون في دار الكفر، لأنهم يحكمون بغير ما أنزل الله، فإن دارهم تشبه مكة حين بعثه الرسول (ص)، لذلك يجب أن يتخذ الدور المكي في حمل الدعوة هو موضع التأسي (...). فأخذ الحزب من ذلك طريقته في السير، ومراحل سيره والأعمال التي يجب أن يقوم بها في المراحل تأسيساً بالأعمال التي قام بها الرسول (ص)، لذلك يجب أن يتخذ الدور المكي في حمل الدعوة هو موضع التأسي (...). فأخذ الحزب من ذلك طريقته في السير، ومراحل سيره والأعمال التي يجب أن يقوم بها في المراحل تأسيساً بالأعمال التي قام بها الرسول (ص) في مراحل سيره (...). وبناء على ذلك حدد الحزب طريقة سيره بثلاث مراحل:

1 - مرحلة التنقيف لإيجاد أشخاص مؤمنين بفكرة الحزب وطريقته لتكوين الكتلة الحزبية.

2 - مرحلة التفاعل مع الأمة، لتحميلها الإسلام، حتى تتخذ قضية لها، كي تعمل على إيجاده في واقع الحياة.

3 - مرحلة استلام الحكم، وتطبيق الإسلام تطبيقاً عاماً شاملاً، وحمله رسالة إلى العالم" ([30]).

وقد تدرج الأستاذ النبهاني بعد تأسيس الحزب في تنفيذ تلك المراحل، فاختار النظام الحلقي في التنقيف كما هو ديدن الأحزاب الإسلامية المعاصرة وكذلك الأحزاب العلمانية، وكان يهدف من وراء نظام الحلقات إلى بلورة هيكلية الكتلة التي تعتبر شرطاً مقديماً لا بد منه لاستئناف حياة إسلامية ([31])، وبما أن وظيفة إيجاد الكتلة منحصرة بهدف الدعوة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ومن أجل إعداد الأمة لاستلام الحكم فهي تختلف عن الثقافة التي يتلقاها المسلمون في ظل الدولة الإسلامية ([32]).

ففي مرحلة الإعداد - المكية - "على الكتلة أن تبادئ الناس بذكر مفاسدهم وتعييبها، وتتحداهم في مفاهيمهم المغلوطة وآرائهم الفاسدة وتسفهمها، وتبين لهم حقيقة الإسلام وجوهر دعوته، حتى يتكون لديهم الوعي العام عن الدعوة، ويكون رجال الدعوة جزءاً من الأمة، وتكون الأمة معهم كلاً لا يتجزأ، فتعمل الأمة في مجموعها العمل المنتج تحت قيادة كتلة الدعوة حتى يصلوا إلى الحكم فيوجدوا الدولة الإسلامية (...). ويستدلون على صحة هذا التصور من خلال تجربة الرسول (ص) فقد "كان يدعو للإسلام في مكة وهي مملوءة بالفسق والفجور (...). ولم يرد عنه أنه قام بعمل ليتخفف (...). وإنما كان يعيب آلهتهم ويسفه أحلامهم (...). ويقتصر على القول وعلى الناحية الفكرية..." ([33]).

ومع وضوح الغاية التي يجهده حزب التحرير للوصول إليها ويكرس جهوده في سبيل إيجاد الكتلة خدمة لها وهي "استئناف الحياة الإسلامية في البلاد وحمل الدعوة الإسلامية إلى العالم، وطريقته إلى ذلك الحكم، ومن طريقته إلى الحكم دراسة الإسلام وتفهمه، وتنقيف الناس به تنقيفاً يحدث الأثر في إيجاد العقلية الإسلامية والنفسية الإسلامية" ([34])، يرى الحزب أن السبيل إلى ذلك هو قيام حزب سياسي، بمعنى أن تكون أهدافه وثقافته وممارساته سياسية لكن في إطار المراحل التي حددها، وقد أشير إليها سابقاً، وتصرح إحدى نشرات التنقيف بهذه الحقيقة في تناولها للمسألة: "هذا العمل من الكتلة الحزبية هو عمل سياسي، ولذلك كان لا بد من أن يكون الوجه البارز على هذه الكتلة هو الوجه السياسي، لأنه الطريق العملي الأول الذي يبدأ فيه للدعوة إلى الإسلام، وهذا لا يعني الدعوة إلى السياسة فقط أو إلى الحكم وحده (...). لذلك يجب أن تكون الكتلة التي تحمل الدعوة الإسلامية كتلة سياسية، ولا يجوز أن تكون كتلة روحية، ولا كتلة أخلاقية، ولا كتلة علمية، ولا كتلة تعليمية ولا شيئاً من ذلك، ولا ما يشبهه، بل يجب أن تكون كتلة سياسية.

من هنا كان حزب التحرير - وهو حزب إسلامي - حزباً سياسياً، يشتغل بالسياسة، ويعمل لأن يثق الأمة ثقافة إسلامية، تبرز فيها الناحية السياسية (...). وينكر ما يفعله الاستعمار وعملاؤه" ([35]).

لكن اللافت في سياق استعراض آراء الحزب حول التغيير تفسيره لسبب الانحطاط الذي تعاني منه الأمة، فأرجعوه إلى الفصل الموروث تاريخياً بين الدراسة الفقهية والأصولية من جهة وتلك المرتبطة بكيفية معالجة وتطبيق الأحكام الفقهية، ولهذا كان الطابع العام للحركة العلمية في المعاهد والجامعات الدينية أنها استفادت في البحث والتدقيق ومتابعة الأحكام بشكل دقيق، فتناولت علوم الصرف والنحو والفلسفة والفلك والقرآن والسنة والكلام والفقه والأصول، وكانت ترمي من وراء كل ذلك الوصول إلى مرحلة استنباط الأحكام، لكن هذه المعاهد لم تكلف نفسها عناء البحث عن السبيل الموصلة إلى تطبيق تلك الأحكام في المجتمع وعلى صعيد الفرد. وبمعنى آخر لم تُعَن هذه المعاهد بدراسة أساليب الدعوة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد السياسي للإمساك بالسلطة من أجل دفع الأحكام الشرعية المستنبطة إلى دائرة التطبيق ([36])، يضاف إلى هذا السبب أمر آخر وهو "الخطأ في فهم الشريعة الإسلامية لتطبيقها على المجتمع، فصار الإسلام يفسر بما لا تحتمله نصوصه ليوافق المجتمع الحاضر، وكان الواجب أن يغير المجتمع ليوافق الإسلام" ([37])! وفي مكان آخر يفسر "الحزب" ظاهرة عدم فهم الإسلام التي كانت سبباً أساسياً للانحطاط، فيرجعه إلى "فصل الطاقة العربية عن الطاقة

الإسلامية([38]) الناتج عن إهمال أمر اللغة العربية في فهم الإسلام وأدائه منذ أوائل القرن السابع الهجري، ولما كانت الطاقة اللغوية هي التي حملت طاقة الإسلام وامتزجت بها والتي لا يمكن ادأؤه كاملاً إلا بها، وكذلك لما كان إهمالها سبباً "الاجتهاد بالشرع مفقوداً" فإنه لا يمكن الاجتهاد، لأنها - أي اللغة العربية - شرط أساسي فيه، "والاجتهاد ضروري للأمة، لأنه لا تقدم للأمة إلا بوجود الاجتهاد"([39]). وقد ترتب على هذا التفسير للانحطاط آثار عملية تركت بصماتها على خيارات الحزب الحركية على مستوى ساحة العمل والتحريك، فرأوا أن البلاد العربية هي أولى البلاد بالبدء في حمل هذه الدعوة([40]).

ويرى "الحزب" بعد كل ما تقدم أنه الحزب المؤهل لقيادة الأمة وإيصالها إلى أهدافها السامية، وأن منهجه هو الحق، أما القوى والحركات الأخرى فهي قد أخفقت ولن تفلح في تحقيق الأهداف ويعمل سبب أخفاقها بثلاثة أمور:

- 1 - عدم فهم الفكرة الإسلامية من قبل القائمين بالنهضة فهماً دقيقاً.
- 2 - عدم وضوح طريقة الإسلام لديهم في تنفيذ فكرته وضوحاً تاماً.
- 3 - عدم ربطهم الفكرة الإسلامية بالطريقة الإسلامية ربطاً محكماً غير قابل للانفصال"([41]).

يرجع "الحزب" سبب عدم الفهم المشار إليه إلى عوامل التخفية التي كانت "قد بدأت منذ أوائل القرن الثاني للهجرة حتى مجيء الاستعمار؛ فقد كان للفلسفات الأجنبية كالفارسية واليونانية أثر في بعض المسلمين حملهم على ارتكاب محاولات للتوفيق بين الإسلام وبين هذه الفلسفات، مع التناقض التام بينهما وبين الإسلام"([42])، إضافة لما زاد على ذلك من غزو ثقافي وتشويري "ثم الغزو السياسي من الغرب، فكان ضغطاً على إباله، وعقدة جديدة في المجتمع الإسلامي تضاف إلى العقد السابقة"([43]).

هذا العرض الموجز لأبرز الخطوط العامة للنظرية التغييرية عند "حزب التحرير" يكشف عن وجود الكثير من النقاط المشتركة مع "الاخوان" وإن كان يفتقر عنه في مسائل أخرى، ولعل أبرز نقاط الاختلاف في النظرية اهتمامه الواضح بالجانب السياسي في إطار التنقيف. لكن لم يستطع تجاوز المأزق النظري الذي وقع فيه الإخوان، وخاصة فيما يتعلق بالمرحلة التي يفترض ضرورة الالتزام بها انجاح التحريك الجاري([44])، وهي كما يبدو مبدأ مشترك بين مختلف الحركات الإسلامية في العصر الحديث كما هو واضح من قراءة الأسس النظرية لتلك الحركات.

حزب الدعوة

عالجت "الدعوة" كما "الاخوان" و"التحرير" مسألة البعد الشرعي لقيام "الحزب" في شكله المتعارف عليه، وقد انطلقت من قاعدة الضرورة والمصلحة، بحيث عملت على تنقيح موضوع الحزب والمصلحة التي يمكن تحقيقها من خلال التأطر في الحدود المتعارفة للحزب الحديث، ومع نفيها لوجود صيغ أخرى شرعية منصوص عليها، أو صيغ أخرى أفضل، قالت بمشروعية الحزب، وقد قدمت وجهة نظرها في نشراتها التنقيفية الداخلية بصيغة استدلالية "والشكل التنظيمي الذي اخترناه في دعوتنا، هو تطوير للشكل الشائع في التنظيمات المعاصرة مع ملاحظة ما تقتضيه مصلحة الدعوة إلى الإسلام، وسبب اختيارنا له يعود إلى مشروعيته أولاً، وفائدته ثانياً.

أما مشروعيته فلأن أسلوب الدعوة إلى الإسلام، إنما هو الطريق التي يمكن بواسطتها إيصال الإسلام إلى أكبر عدد من الناس وتربيتهم بثقافة الإسلام تربية مركزة تدفعهم للقيام بما فرض الله عليهم. وحيث إن الشريعة الإسلامية لم تأمر باتباع أسلوب محدد في التبليغ والتغيير، جاز لنا شرعاً، انتهاج أي طريقة نافعة في نشر مفاهيم الإسلام وأحكامه وتغيير المجتمع بها مادامت طريقته لا تتضمن محرماً من المحرمات الشرعية (...) ان الرسول (ص) القائد لو كان في عصرنا، لاستعمل بمقتضى حكمته الأساليب الإعلامية والتبليغية المعاصرة والملائمة"([45]).

ويتبنى الدعوة للأسلوب الحزبي رتبته على هذا الاختيار مختلف متفرعات الأصل، فوزعت أعضائها على مجموعات في تنظيم حلقي لم تعفه من تنظيم شرعي تماماً كما فعل حزب "الاخوان" و"التحرير"، فقالت بأن أسلوب الرسول (ص) "ما كان عن التنظيم الحلقي بعيداً"([46]). وفي ذلك إشارة إلى المرحلة السرية التي مرت بها الدعوة الأولى بقيادة الرسول (ص) حيث كان المسلمون يتلقون التعاليم الأولى في دار "ابن الأرقم" في ظروف صعبة وحذرة. ولاشك أن رسم صورة بمقاييس الخلية والحلقة الحزبية في تجربة الرسول (ص) يحتاج إلى دقة؛ فكل ما يروى ان الرسول (ص) كان يلقي المسلمين في دار "ابن الأرقم"، لكن هل كانت اللقاءات بشكل حلقات أم لا فمستكوت عنها.

وعن الغاية من تبني الشكل الحلقي هي بناء الكتلة القيادية "ونشر وعي الإسلام في الأمة بقدر يمكن هذه الكتلة من مواصلة مسيرتها" ([47]). أما مواصفات الكتلة التي يراد بناؤها فهي "أمة من الناس من مختلف فئاتهم وفي مختلف مجالاتهم فيها عالم الفقه والقانون والفلسفة والسياسية والطبيب والمهندس والمدرس والطالب والموظف والعامل والكاسب والوجيه والمهني والفلاح والجندي والضابط. فيها المتعلمون والأميون، فيها الرجال والنساء، فيها أصحاب المواهب العالية وأصحاب المواهب المحدودة والمؤمنون السذج" ([48]).

وعن أهداف الدعوة من بناء الكتلة القيادية تورد إحدى النشرات أن "الدعوة ليست جماعة علماء أو كتّاب أو اختصاصيين، ولكنها أمة مصغرة من الأمة الكبيرة مهمتها دعوة الأمة والعالم إلى الإسلام، ومادامت كذلك فيجب أن تتصف بالصفات القيادية التي تمكنها من النهوض بمهمتها فتستوعب قضايا الأمة الفكرية والعملية في مجالات الحياة الرئيسية، وتستوعب بالتفصيل ما تحتاج إليه في نجاح مسيرتها" ([49]).

وقد ترتب أيضاً على الشكل التنظيمي المشار إليه سابقاً والغاية منه، وهي بناء الكتلة، أن يكون "الدعوة" ثقافة حزبية خاصة بها تعبر عن مشروعاتها العقائدية والسياسية، وبما أن الدواعي التي حكمت اختيارها للمراحل وفي مقدمتها المرحلة السرية موجودة وحاضرة باستمرار، فإن الثقافة التي تعكس توجهات الحزب لابد من احاطتها بالكتمان الشديد حذر انكشافها وبالتالي استهداف الحزب بالكامل أمنياً؛ تقول الدعوة: "لم تكتب هذه المقالات، أساساً، للنشر العام. فتقافتنا الداخلية هي للدعاة المنتظمين العاملين لتغيير الأمة بالإسلام، ومن العسير أن تخاطب بها الأمة على مرأى من القوى السياسية المعادية والمحاربة للإسلام (...). ولكن الظروف الناتجة عن الفتنة التي عرضت لها دعوتنا في العراق اقتضت نشر هذه الثقافة" ([50]).

غير أن السعي لبناء الكتلة القاندة أو "الدعوة القاندة" كما يعبر الحزب نفسه، لم يحل دون مباشرة التثقيف والتوعية في أوساط الأمة؛ فقد أكدت "الدعوة" على أهمية نشر الوعي الإسلامي في الأمة، واعتبرت ذلك هدفاً لابد أن تسير فيه جنباً إلى جنب مع بناء "الدعوة القاندة" ([51])، كما لحظت مؤثرات المبادرات الفردية والجماعية في تعميم الوعي والثقافة، فهي في مجملها تساهم في تأصيل الأمة وتوسيع رقعة الوعي، ولهذا فهي تشجع هذه المبادرات في الأمة وتباركها. إلا أن ممارسة العمل التثقيفي في الأمة تفترض بالداعية أن يعرف كل شيء يتصل بعمله عن حياتها، فكل حدث من أحداثها من صغير وكبير، فكل شيء من حياة الأمة مادة لدراسة الأمة ولفهم الأمة والظروف التي تعيشها" ([52]).

كما أن الدعوة لم تدع مسألة تحريك المجتمع والأمة دون معالجة، فقد افردت لها أكثر من مادة دراسية لتقديم العضو تصوراً جاهزاً عن معاني التحريك وكيفية وعناصره، وعن العناصر تناولت: البيئة البشرية الملائمة، الفكرة ذات الفعالية، الخطة والفعاليات أو النشاط أو التغيير ([53]). كما تطرقت إلى من يحرك المجتمع واعدت صفات الدعاة المجاهدين وكيفية التعامل الجيد مع الناس إلى جانب الشروط الموضوعية للتحريك كوجود العقلية المبدعة والجذوة الإيمانية المتقدمة وغيرها ([54]).

فالتحريك بنظر "الدعوة" يعني "أن تلتف الجماهير حول شعار ما مطروح بشكل ما، ويظهر هذا الالتفاف بمظهر ما ولو كان اظهار عدم الرضا والامتعاض الجماعي. فالأفكار والأعمال والأشياء التي تؤثر على مشاعر الجماهير هي التي تحرك الجماعة.

إن الجماعة تتحرك لتأييد زعيم تعتقد بكفاءته وإخلاصه فتحبه وتثق به وتلبي توجيهاته بسرعة كما حصل مع الزعيم المهدي في السودان وجمال عبد الناصر في أكثر البلاد العربية ومع عبد الكريم قاسم في العراق" ([55]).

وتفرّدت "الدعوة" عن الحزبين السابقين بإيلاء الحوزات والمعاهد الدينية عناية خاصة، لم تظهر عند غيرها، ولعل السبب يعود على موقعية عالم الدين عند المسلمين الشيعة المؤثرة في الرأي العام من جهة وفي اعتباره قائداً ومرجعاً يعود إليه الناس والأمة في حل مشاكلهم، وهو يمثل بذلك القيادة الفعلية على مستوى إيصال الأحكام الشرعية وتعليمها أو على مستوى إدارة شؤون الأمة في القيادة المستقبلية، ولا يمكن، على ضوء نظرية ولاية الفقيه، أن يتصدى لقيادة المجتمع الإسلامي والدولة الإسلامية إلا المجتهد الذي تتوفر فيه شروط الولاية المعبرة، وهذا ما لا تلحظه الحركات الإسلامية على ساحة المسلمين السنة، لأن دور العالم بعد اغلاق باب الاجتهاد بات ثانوياً طالما أن الحكم الشرعي يمكن تحصيله من الكتب الفقهية المقررة للمذاهب، من هنا احتلت الحوزات حيزاً كبيراً من اهتمام الدعوة، خاصة وأن المعاهد الشرعية باتت، بعد وقوع العالم الإسلامي تحت سيطرة القوى الكبرى، هدفاً حيوياً للاستعمار الذي جهد من أجل الامساك بها وإخضاعها لتوجيهاته، من هنا كان الفرز الحاصل اليوم بين مدارس مرتبطة بوزارات الأوقاف والتربية ومديرياتها مثل الجامع الأزهر وجامعة القرويين، ومدارس ليس لها ارتباط بالدولة مثلاً النجف وقم ([56]). وقد التفتت "الدعوة" إلى ذلك الاستهداف وبينته في مادتها الثقافية "إن المكانة المعنوية الهامة لمراكز الدراسات الإسلامية بين الأمة، رغم الانحطاط الاجتماعي الذي أصابها وأثر عليها كثيراً، موضوع بهم الاستعمار تحطيمه حتى لا يبقى مصدراً من مصادر الازعاج له ولخطته" ([57]). وعلى ضوء ما تقدم حددت الدعوة نظرتها وموقفها من الحوزات فرأت أن مهمتها في هذا الاطار محددة بدفع طلبة الحوزة والعلماء غير المجتهدين ليأخذوا موقعهم في قيادة لأمة وتغييرها بالإسلام ([58])، وقد ميزت الدعوة في نظرتها إلى "المجتهدين بين الموقع الذي يعطيه لهم الإسلام وبين الموقع

الذي تعطيه لهم الأمة، والموقع الذي يرضاه الواحد منهم لنفسه"، والدعوة "التي أعطت منذ انطلاقتها ولا زالت مجتهدية دورهم القيادي، تعمل على دفع المجتهدين جميعاً لأخذ موقعهم في قيادة الأمة وتغييرها بالإسلام، وتتعامل معهم حسب عطائهم للإسلام"([59]).

و"الدعوة" كغيرها من الحركات الإسلامية مرتحت خطة سيرها وفق مراحل تجد من الضرورة اجتيازها قبل مباشرة العمل السياسي ومقارعة الأنظمة الطاغوتية وبالتالي التهيؤ لاستلام السلطة، وتشترك مع غيرها في فهم سيرة الرسول محمد (ص) ومراحل الدعوة التي كانت الجذر الذي انطلقاً منه حصل تبني المرحلة([60])، وباتت سمة أساسية في فكر "الدعوة" العملي، حتى أخذ مفكرو الدعوة يدعمون فكرة المرحلة باعطائها طابعاً علمياً، فصورت على أنها سنة كونية واجتماعية، وقد حصر هؤلاء مراحل الدعوة بأربع: أولى تلك المراحل التغيير - الفكري - وطابعها ثقافي، و"الطريقة العامة في عمل الدعوة في هذه المرحلة هي السرية"، ومع أن الثقافة هي الطابع العام وتشمل السياسة منها، لكن الثقافة السياسية في هذه المرحلة "ليست ممارسة إلا في حالات قليلة، بينما العمل السياسي في المرحلة الثانية ممارسة للصراع السياسي وتصدُّ للسلطة بالفضح الإعلامي"([61]).

والمرحلة تقتضي عدم التدخل بأي شكل يستوجب جر "الدعوة" إلى المرحلة السياسية، وإذا كان التدخل يخدم المرحلة أو كان فيه مصلحة للإسلام فينبغي التحرك بصفة شخصية أو بالشكل الذي لا يخرج الدعوة عن السرية([62]).

وبهذا العرض يمكن الاطلاع على فكر "الدعوة" التنظيمي والأهداف والغايات بشكل مقتضب الأمر الذي يساعد على فهم العوائق الذاتية التي حالت دون تقدم "الدعوة" على مختلف المستويات طيلة ما يزيد عن ثلاثة عقود من الزمن.

نظرية الإمام الخميني (قده)

إن اطلالة سريعة على نصوص الإمام في المرحلة التي سبقت انتصار الثورة، وهي الفترة المطلوب معرفة خصوصية الخطاب السياسي والفكري فيها، لأنها المرحلة التي كانت تتم فيها عملية الاعداد لاسقاط النظام الحاكم وتربية المسلمين بما يخدم هدف أحداث الانقلاب والحكم بالإسلام، اطلالة سريعة يمكن وببساطة تامة ملامسة أبرز الخطوط العامة لنهج الإمام في قيادة الأمة وإعدادها والتي تتمثل بالتالي:

1 - التصدي للمسألة السياسية:

يلحظ في معظم النصوص الأولى لحركة الإمام الثورية في مطلع الستينات، أن مقارعة النظام واستنهاض الرأي العام، والعلماء على رأسهم، يحتلان القدر الأكبر من اهتمام وعناية الإمام؛ فقد وضع نصب عينيه مهمة اسقاط النظام الذي يعتبره مصدر الفساد في البلاد، وأن الصلاح العام على مختلف الأصعدة لا يمكن أن يتم دون استبدال النظام ببديل إسلامي يعمل على مستوى تعبيد الناس لله تعالى. فالنظام بنظر الإمام هو العائق الأول والأساسي الذي يحول دون معرفة الناس لأحكام دينهم، فهو المهيمن والمتسلط على الوزارات والمؤسسات المعنية بالتنظيف والتربية وبالتالي الفساد. ومحاولات الإعداد والتصدي لهذه الأمور على مستوى الأفراد والجماعات مع بقاء التوجه السلبي للحاكم وان أفادت في الحد من تمادي الانحراف وانقاذ ما يمكن انقاذه لكن ذلك يبقى دون الحد الأدنى من المطلوب([63]). والحل السليم والوحيد يكمن فقط في اجتناب مصادر الفساد والافساد أولاً، وهذا لا يتم بغير اسقاط النظام وإقامة حكومة العدل الإلهي([64]).

انطلاقاً من طبيعة هذا التوجه، شرع الإمام في مقارعة النظام وتبيان مساوئه في كل صغيرة وكبيرة وقد مارس هذا الدور باتقان([65])، غير ان الصراع مع السلطان الجائر اقتضى توفير أمرين:

أ - ارتباط الأمة بالقيادة العلمانية: حرص الإمام منذ البداية على لفت العلماء - الذين تقع على كواهلهم مسؤولية قيادة الناس وتوجيههم الوجهة المطلوبة - إلى دورهم الريادي وتكليفهم الشرعي. ولهذا أفرد جزءاً من وقته واهتماماته لتكوين حالة وعي رسالي ثوري في أوساط العلماء من أجل تنبيههم إلى مخاطر السكوت على كل ما يجري وبالتالي الاقرار بالأمر الواقع. والإمام عندما كان يمارس هذه الوظيفة كان يسعى فقط لربط العلماء ووضعهم في سياق التاريخ الطبيعي لحركة التشيع. وتحريك المعاهد الإسلامية وعلماء الدين كان خطوة أولى استتبعها بتوجيهات أخرى لهم من أجل قيادة الأمة وتأهيلها لتلعب دورها في عملية التغيير الكامل، ولم يدع الناس الذين ارتبطوا به وارتضوه قائداً دون توجيه، فقد أكثر من وعظهم وحثهم على متابعة العلماء الثوريين الأصليين: "إنني أحمل اخواني العلماء مسؤولية إيقاظ الشعب واطلاعه على جميع الأمور التي يرتبط بها مصيره ومستقبله"([66]).

"يجب أن توقظوا النجف، اعترضوا، فإذا أرسلت مائة استنكار من علماء الإسلام وأفاضل الطلاب في النجف فهناك احتمال التأثير"([67]).

"إن علماء الدين، حتى هذه اللحظة من تاريخ المشرق المشرق، قد خدموا الأمة وجاهدوا في سبيل مصالح الشعب وأهداف الدين، وهم جادون في كشف المؤامرات وتوعية أفراد الشعب، وهم في ذلك لا يحشون قسوة الجائرين وبطش الظالمين"([68]).

وكان الإمام يمارس في عملية التحريك سياسة الفضح الكامل للحكام ومؤامراتهم ويبرز في الدرجة الأولى مكنن الخطر الحقيقي في استهدافات الحكام الظلمة وهو الدين والإسلام والعلماء، وقد جعل هذا الأمر مادة إثارة لاستنهاض الرأي العام والعلماء على حدّ سواء. فالخوف على الدين من المحق والتميع والطمس من أشد المخاوف إيلاًماً على قلوب أتباعه كما هو واضح ومعروف في سلوك اتباع الديانات، ولذلك كان الاتفاق والحماس المنقطع النظير في حركة الأمة ضد الحاكم الجائر: "وليعلموا جيداً (...)" إن الشعب بأسره سيبقى متمسكاً بدينه الحنيف وبعلمائه الأعلام (...). ونحن العلماء والطلبة لا نسكت عن التحريف الذي يمارسه العملاء المجرمون في الشريعة المحمدية، فإن حياتنا مرتبطة ببقاء القرآن وبعزة الإسلام والمسلمين، وإن مواقفنا اتجاه الإسلام مسجلة في التاريخ، ولتكن عبرة لمن يعتبر.

أيها الطلبة والعلماء، لا تدخروا وسعاً في نصرة دينكم، ولا تسكتوا وتصبروا على الذل والاستكانة والاهانة (...) فلتنكن قلوبكم حديدية (...) رصوا صفوفكم ووحّدوا كلمتكم وكونوا من الذين قال الله في حقهم: {إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة أن لا تخافوا ولا تحزنوا...} ([69]).

إذاً حظ الإمام في حركته التغييرية مهمتين رئيسيتين:

1 - تحريك العلماء ودفعهم لتسنّم مواقعهم الطبيعية في قيادة المسلمين، وبالتالي انضواؤهم هم أنفسهم تحت ظل القيادة الحكيمة الشجاعة.

2 - ربط الأمة بالعلماء وبالتالي بالفقيه العادل، القيادة الطبيعية في الإسلام الأصيل على ضوء نظرية "ولاية الفقيه".

وهاتان المهمتان تستلزمان بالضرورة وحدة ثقافة القيادة والقاعدة التي هي الإسلام ورفض كل أشكال الثقافات الوافدة أو المنحرفة، والذي يعني اندفاع الأمة في طريق معرفة الإسلام وأحكامه وثقافته ومفاهيمه كأمر بديهي لا بد منه، على ضوء قاعدة السخية الفكرية بين القيادة والقاعدة، فيكون الإمام يتصدى للمسألة السياسية ودفع العلماء إلى واجهة الصراع وتحريك الرأي العام لدعم العلماء قدّم الإسلام كأطروحة فكرية وسياسية لحكم البلاد بشكل طبيعي وسياقي دون أدنى تكلف أو جهد اضافي. واستدعى هذا التلازم بين حركة العلماء بقيادة الفقيه العادل ونشر الرسالة أن ينشأ شكل من أشكال العلاقة بين العلماء وطلبة الجامعات باعتبار أن الفئة الثانية هي الأكثر التصاقاً بالأفكار والمعارف الغربية وبالتالي تأثراً بها، ولهذا ركّز الإمام على ضرورة قيام علاقة وطيدة بين طلبة الحوزات والجامعات: "عتبي على علماء الدين مصدره هو: أنه لا ينبغي لهم تفريق رجال من حولهم من المثقفين والجامعيين الذين يعملون من أجل الإسلام في مثل هذه الظروف المريعة وتفريق أناس قد أمسكوا بأقلامهم ينشرون بها العقيدة في صفوف الأمة ويكشفون عن حقائق الإسلام ويبثوها في أرجاء العالم" ([70]).

"التصقوا بهم دائماً - بطلبة الجامعات - وتواصلوا معهم (...) قدموا إليهم النصائح والارشادات بدلاً من أن تهجوه وتصفوهم بالسوء وتوجهوا إليهم التهم من فوق منابرهم" ([71]).

ب - فضح علماء السوء ووعاظ السلاطين:

وجهود الإمام الخميني التي بذلها من أجل تعزيز دور العلماء ودعمه في أوساط المسلمين، وتأكيد المستمر والدائم على ضرورة الارتباط بالقيادة العلمانية، لم يُنسه أولئك المتلبسين بلبوس الدين والمجندين سرّاً لخدمة السلطان الجائر والذين يمارسون أخطر دور على الإطلاق لاستغلالهم ثقة الناس بالعلماء وطاعتهم النقية لهم، من هنا كان اهتمام الإمام منصباً على فضح هؤلاء وتعريضهم من جهة وتحذير الرأي العام من الاستجابة لأفكارهم وطروحاتهم، وكان في الكثير من الحالات يذكر الناس بمواقفهم ومقولاتهم وحتى مغالطاتهم وإيهاماتهم ([72]) وقد ترقى في كشف هذه الحالات الموهمة إلى مستوى مخاطبة السلطة وتحذيرها من فرض مواقفها وآرائها، بالقمع والتهديد، على الخطباء والمبلغين ومقيمي مآتم سيد الشهداء (ع)، وبذلك يكون قد أيقظ عقول الناس والفقه إلى مضامين كل المواد الفكرية والثقافية التي تلقى إليهم من المعتمدين سواء كان هؤلاء مخادعين أم مكريين ([73]).

2 - تربية الكتلة والتنظيم:

يبدو من خلال بعض النصوص المبعثرة ان الإمام كان لا يخالف قيام تنظيم معين لبعض القطاعات في الأمة لكي تتحقق فعالية الجماعة المنضوية فيه - التنظيم - من دون أن نعثر على كل ما يمكن أن يساعد في بلورة رؤية تنظيمية شمولية للأمة، مما يلفت إلى وجود تصور معين وسطي يجمع ما بين التنظيم الدقيق واللاتنظيم في آن؛ فالأمة يمكن أن تتحرك من خلال الفقيه العادل المتصدي والعلماء المرتبطين به من خال المواقف والتوجيهات والأوامر، دون ان تمر تلك المواقف والأوامر في قنوات تنظيمية - حزبية - معهودة، وإنما فقط من خلال البيانات والخطب من القيادة مباشرة أو من وكلائها وثقاتها في المساجد، بينما بعض القطاعات ولخصوصيتها يفترض بها أن تنظم في أطر خاصة تتبع التسلسل الهرمي المعهود وتعمل في حلقات وخلايا على أن تكون مرتبطة بالفقيه برابط قد يكون هو المسؤول الأول عن التنظيم، وبعض القطاعات صاحبة الخصوصية كالطلاب والمعلمين وربما المعتمدين فيما بينهم. وهذا الأمر يمكن أن يساهم في بناء كتلة منسجمة فكرياً وسياسياً وحتى في أساليب العمل، ويعكس أحد النصوص هذا الفهم بالاجمال: "وأنا أقدر ما هو موجود في دستور

"الاتحاد" [74] من أن جميع الطلبة المسلمين، أينما وجدوا، مثل أمريكا وكندا والهند والفلبين وسائر المناطق، مرتبطون ببعضهم، ويريدون جميعهم التعاون في نشاطاتهم الإسلامية والإنسانية، وأطلب من الله توفيق الجميع. يجب أن تكون هناك قواعد إسلامية في كل نقاط العالم تهتم بتعريف الإسلام ونشر حقائقه التحررية، ويجب أن تكون ضمن تنظيم واحد ومنسجم يعمل من أجل العدالة وقطع أيدي الظالمين واللصوص الجبناء" [75]. ويظهر من نصوص أخرى أن الجانب الفكري والثقافي يحتل الصدارة في اهتمام الإمام ولم يهمل الجانب السلوكي والشخصي؛ ففي أحد النصوص حدد مواصفات المؤمن الواعي المجاهد القدوة، مما يشير بوضوح إلى عناية الإمام بالجانب التربوي والفكري: "ابذلوا مزيداً من الجهد في سبيل معرفة الإسلام (...) وادرسوا تعاليم القرآن المقدسة جيداً وطبقوها (...) وزيدوا في سعيكم وإخلاصكم من أجل نشر الإسلام وأهدافه الكبرى وتعريف الأمم الأخرى بهما (...) ومزيداً من الاهتمام بمسألة الدولة الإسلامية والمسائل المتعلقة بها (...) كونوا مهذبين ومدربين (...) اتحدوا وتنظموا ورسوا صفوفكم (...) واسعوا لتكوين الإنسان المضحي المتوافق معكم فكراً..." [76].

وبلغت في نصوص أخرى إلى جانب يتكامل مع التنظيم والبناء والتكوين الشخصي وهو مسؤولية التبليغ ونشر الإسلام المحمدي الاصيل لفضح واطهار أوجه الفرق بينه وبين الإسلام المزيف، مؤدى هذا الطرح، بناء كتلة منسجمة بالكامل: "إنني أعقد أبلغ الأمل - وأنا في منفاي الثاني - على جهود الشباب المسلم من علماء دين وجامعيين، وأتوقع أن يتمكنوا، بعد تهذيب نفوسهم وإخلاص نياتهم، من التعمق في البحث والدراسة في سبيل معرفة الشريعة الإسلامية وأسسها النيرة، وأن يعرفوا، بعد ذلك، الإسلام للناس على حقيقته، وأن يوقظوا الأمة ويبينوا للناس أوجه الفرق بين الإسلام الذي أتى به رسول الله (ص) والإسلام المزيف الذي نادى به معاوية ونظائره من الحكام الجائرين الظالمين والسلطات العميلة للاستعمار ولا زالت تبثه محطات الاذاعة والتلفزيون والدوائر الرسمية التي تمكنهم من تضليل الجماهير واستغلالها" [77].

3 - الدعوة الصريحة:

أطروحة الإمام العملية التي تتمثل في مواجهة الطاغوت كإحدى أبرز أولويات العمل للإسلام في العصر الحاضر، تفترض تحريك الناس واستثارتها للمجاهرة بمعتقداتها وترجمة أحكامه دون تردد أو خوف، وهو أسلوب يستدرج الناس لتحمل مسؤولياتها في ادفاع عن معتقداتها مباشرة، من هنا كانت دعوته وتأكيداته على العمل التبليغي وكذلك إظهار وإبراز الجانب العبادي حتى لا تتحول إلى طقوس سرية يخاف المؤمن بها من مصارحة الناس بأدائها، فقد حثّ الجماهير أكثر من مرة على إقامة صلاة الجماعة وأمرهم بالتظاهر في إقامة الصلوات [78]. ولم يقف في عمله التبليغي عند حدود إيران، بل أمر بتعريف الإسلام في كل مكان وطرحه دون تردد لثقته بأن الإسلام لا يمكن أن يرد من قبل أولى العقول المستنيرة، ف"لو تعرّف العالم على الإسلام كما هو - الإسلام المحمدي - لاتبه نحوه، فيضاعة المسلمين بضاعة قيمة" [79].

والدعوة إلى تبليغ الإسلام في العالم كانت جزءاً من مشروع سياسي وحدوي كان يأمل في تحقيقه الإمام، مع أن ساحة تحركه كانت إيران فقط، لكن أبعاد التحرك كانت العالمية [80].

وقيمة تلك الدعوة تقدر في وقتها بالتحديد، حيث كانت العقائد الوضعية المختلفة من ماركسية إلى قومية إلى مذاهب فلسفية متنوعة كانت كلها، مع اختلافها، متفقة على تهشيم الأسس الفكرية والروحية لكل الأديان وعلى رأسها الإسلام، حيث كان القليل القليل من قادة الحركات الإسلامية وعلماء المسلمين يمتلك الجرأة في البوح بمعتقداته ومشروعه السياسي المحلي أو الاقليمي وتكاد توجد أطروحة سياسية واحدة تهاجر بعالميتها ومشروعها العالمي وهي في موقع الصراع لا في موقع التنظير.

ما تقدم مجرد عرض مقتضب لأبرز ملامح نهج الإمام الخميني (قده) في العمل السياسي والتنظيمي، وهو قد يساعد في الكشف عن الطبيعة الخاصة في العمل التي تميز بها الإمام عن غيره من الحركات والقوى والشخصيات الإسلامية. وسنحاول بعدما أطلنا على أكثر من تجربة تحليل ظاهرة اخفاق معظم الحركات ونجاح الإمام في تحقيق مشروعه الإسلامي.

تفسير لظاهرة الاخفاق:

سأحاول في معالجة عوامل الاخفاق، الإنطلاق من الواقع السياسي المحلي والاقليمي واحتياجاته وكيفية مواجهة الحركات الإسلامية لذلك الواقع أو التعاطي معه، مبتعداً قدر الإمكان عن تأثير النتائج الحالية لمسار الحركات والقوى على أحكامي حتى لا تكون الكتابة عملية تبرير لواقع، وإنما سأحاول اعطاء تفسير يرقى إلى مستوى النظرية في أساليب التحرك الناجحة على مستوى استقطاب الرأي العام أو على مستوى مجابهة الطاغوت.

لعل ابرز عوامل اخفاق الحركات الإسلامية الأصلية المعاصرة خطؤها في تقويم واقع الأنظمة والحكومات والسيطرة الاستعمارية وبالتالي بُعد المعالجة عن المراد في مثل ذلك الواقع؛ فمرحلة العشرينات والثلاثينات حتى أواخر الخمسينات كانت تمر بفترة انتقالية لافتة في معظم الأقطار تنتقل فيها السلطة والحكومة في البلاد الإسلامية من مرحلة الاستعمار المباشر إلى مرحلة الاستعمار غير المباشر المتمثل بحكومات وأنظمة عميلة تخضع بشكل خفي لارادة المستعمرين، وهذه المرحلة الانتقالية كانت تتميز بخصوصية الإعراض الجماهيري الواضح عن المستعمرين والتوق إلى الاستقلال والحرية، الذي يساعد لو حصل استيعابه إلى قيادة الإسلاميين المطلقة للأمة دون أي منازع يعتد بقوته، لأن الأمة كانت تحتاج فقط لطليعة توجهها الوجهة السليمة، لأن روح الرفض والمعارضة للسلطات موجودة وبقوة. ولهذا كان اختيار المرحلة "المكية" لتكون هي لحاكمة في المسيرة العملية للحركة الإسلامية، عملية تسليم طوعية لقيادة الأمة لغير أبنائها الأصليين، مما أتاح لمختلف الاتجاهات أن تتحرك وبسرعة لملء الفراغ، فيما الحركة الإسلامية غارقة بالتظهير الفارغ حول أولويات المرحلة، هل هي الفكرة والثقافة والتربية الروحية والسياسية أم العمل السياسي، مع أن المتعين وفق مقتضيات الساحة الإسلامية التصدي السياسي والمباشر.

وكان المستعمر لما شعر بخطورة الوضع واعراض الأمة الكامل عنه، قد بدأ بالتفكير جدياً بكيفية امتصاص تلك المشاعر وتحويلها لمصلحته من دون أن يشعر الرأي العام بأهدافه ومراميه، فأخذ يعد بالخفاء شخصيات بمقاييس محددة ومدروسة بدقة، وجهها وطني ومحلي ومضمونها أجنبي لتكون البديل الظاهري عن المستعمرين، فيما كانت الحركة الإسلامية تفكر في كيفية تنفيذ المرحلة الأولى، أي المرحلة السرية، وهذه إحدى أخطر مفارقات أسلوب الأحزاب الإسلامية المعاصرة الثلاثة كما يتضح من العرض المتقدم لكل منها؛ ففي الوقت الذي تحتاج فيه الأمة لقيادة أصيلة توصلها إلى أهدافها المنشودة من دون تمبيع لفكرها وثقافتها وأصالتها، تختبئ الحركة الإسلامية وراء أوهام التصفية والإبادة، وتدع الساحة مرتعاً للعلاء وللصوص المواقف والعابثين بمستقبل الأمة فضلاً عن حاضرها.

وكانت المرحلة السرية قد تضخمت بحيث تحولت إلى هاجس يؤرق كل من يحاول الخروج عليها، وقد استطالت مدتها عقوداً من الزمن، كانت القوى المستعمرة في هذه المرحلة تزرع قيادة عميلة لا تمتلك أرضية صلبة تساعد على السير، والتي كان بالإمكان زعزعتها وبسهولة تامة، غير أن المرحلة السرية، أعطت تلك القيادة الغربية فرصة كافية - وكافية جداً - لتصليب أرضها، فامتلكت الأجهزة القمعية والإعلامية والاقتصادية والسياسية والقانونية والثقافية، وتغلغت في أوساط الناس وتفاعل بعض الناس معها، وعندما انتهت من عملية بناء نفسها وتكوينها وباتت جاهزة لمقارعة كل قوة نامية تسعى لزعة استقرارها، خرج المنظرون الإسلاميون عن صمتهم المرحلي وأعلنوا بداية المرحلة الثانية - مرحلة العمل السياسي - وبدأت المواجهات غير المتكافئة فكانت النتيجة مرسومة في نفس المعادلة - غير المتوازنة - وتم اضعاف الحركات الإسلامية، بحيث أعادتها السلطات الجائرة إلى المرحلة الأولى التي كانت النفوس قد أنست بها وأحببتها، فعاادت لتزاول عمل الإعداد والتكوين، ولايزال الكثير منها يتخطب حائراً بين الخروج أو البقاء في تلك المرحلة.

ما تقدم يعكس أخطر سلبية في منهج الحركات الإسلامية المعاصرة وقد جنت تلك الحركات ثمار تلك السلبية ولا تزال تجني، لكن غلبة وطنيغيا هذه السلبية لا ينفي الإيجابيات؛ فالحركات الإسلامية المعاصرة اضطلعت بمهمات ومسؤوليات هي موضع احترام وتقدير الإسلاميين، فخطتها العاقلة في بناء الكتلة الواعية المؤمنة المجاهدة، كانت إحدى أبرز إيجابياتها، وهي التي بقيت تعمل بإخلاص رغم التضحيات الضخمة وما قدمته من شهداء، حتى تمكنت من إيجاد أرضية صالحة للعمل وكتلة مؤهلة للتغيير فيما إذا توفرت معطيات موضوعية أبرزها القيادة العادلة الشجاعة.

فالحركات الإسلامية، لا تعيش مخاوف الفشل في التجربة السياسية والإدارية نتيجة قلة الخبرات، فهذه موجودة، غير أن مأزقها في كيفية الوصول ليس إلا.

والصورة تنعكس إلى حد كبير في تجربة الإمام الخميني (قده)، الذي لم يلتزم بما قيّدت الحركات الإسلامية به نفسها من عمل مرحلي أبداً، فالسرية لم تُدرج في قاموسه على الإطلاق، حتى النقية التي يؤمن بها الشيعة رفعها لأنها بنظره كانت ضرورة في مرحلة حتمتها ظروف تكوين وبلورة أطروحة التشيع، ويمكن حصرها في بعض الموارد الخاصة فقط.

فقد تصدّى الإمام (قده) للسلطة سياسياً من أول الأمر، ولاحقها حتى في تفاصيل أخطائها الصغيرة، وكان يلفت الناس إلى مساوئ النظام ويعدد مظالمه ويكشف لهم عن أهدافه ومؤمراته وما يمكن أن تؤول إليه البلاد، الأمر الذي مكّنه من قيادة الأمة دون منازع يذكر، وجعل مختلف الزعامات والقيادات الأخرى التي لا يلتقي معها فكراً وعقائدياً تلته متعبة محاولة اللحاق به لكن دون جدوى، وقد أوصلها تحركه الأصيل إلى حد تبني الشعارات واللغة في كثير من الأحيان، وهو ما تميز به عن غيره من قيادات وحركات إسلامية، سمح تغيبها الإداري عن ساحة الصراع إلى قيام طفيليات هجينة في أماكن مختلفة وبأشكال متنوعة تدعي تمثيلها للأمة وللناس، فبرزت وتكرست كزعامات للناس تمثلها وتتلاعب بمشاعرهم وأفكارهم ومصالحهم، وبعض تلك الزعامات كانت تستثمر حتى جهاد الإسلاميين فتتبنى

وتتقدم عليهم وكأنها صاحبة الفضل في كل انجاز أداه هؤلاء في مسيرتهم العملية والسياسية. غير أن الجانب الذي يبدو سلبياً في تجربة الإمام (قده)، وهو عدم بناء الكتلة، لا يعود بالأصل إلى ذهول الإمام (قده) عن أهمية بناء الجماعة المنسجمة الواعية المضحية، وإنما قد يكون سبب عدم وجودها نفس غياب الإمام عن ساحة الصراع لوجوده في المنفى، فكانت مسيرة الإسلاميين في إيران تحرك عن بعد، والدليل على عدم غياب الفكرة من اهتمام الإمام وجود نصوص صريحة كذلك التي وردت - سابقاً - في معرض الحديث عن ملامح نهجه العملي، لكن الأجهزة التي كانت تمسك بالمؤسسات يبدو أنها استهلكت بعملية الصراع السياسي من دون أن تفرد جزءاً من همها لتلك المهمة العظيمة، وهي مهمة الكتلة الواعية المنسجمة، ولهذا تبدو هذه المسألة سلبية تلقي بثقلها على المجتمع الإسلامي في إيران حيث تفتقد الكثير من الأجهزة إلى الإسلاميين الواعين المدربين، الأمر الذي يبرز في أحيان كثيرة بشكل فوضى وإرباك وقلة خبرة... الخ.

ومما تقدم بات بالإمكان رسم منهج يأخذ بكل الإيجابيات ليكون مثلاً للحركات الإسلامية الثورية في العالم، يقوم على قاعدة التصدي السياسي والفكري العلني المباشر للحكام والاستكبار في آن وعدم اتاحة الفرصة أمام الآخرين للاستفادة من غياب القيادة الأصيلة، هذا من جهة. ومن جهة أخرى العمل بنفس القوة والاهتمام على صعيد إعداد المجتمع وتأهيله ليرقى إلى مستوى العيش تحت ظل أحكام ومفاهيم القرآن الكريم. وفي عرض العمل في المجتمع لابد من بذل جهود مكثفة لبناء الكتلة القيادية الواعية والمدربة والخبرة كما طلب الإمام من اتحاد الطلبة المسلمين الإيرانيين في أكثر من رسالة.

والخلاصة لأخيرة هي تعبير مكثف عن طريقة حزب الله في العمل والقائمة على أساس الولاء الثلاثي دون غيره، الولاء لله وللرسول وللمؤمنين، الذي يعتبر في هذه الطريقة "المقياس في مدى انتماء وارتباط الإنسان بـ(حزب الله) ومدى بعده عنه قليلاً قليلاً حتى يدخل في (حزب الشيطان)"، و"هذا الولاء والتولي ذو الشعب الثلاث - الله، الرسول، الذين آمنوا - هو من الوجه الآخر براءة وتبرؤ من أعداء الله"([81]).

إن الانتماء إلى حزب الله "ليس مقولة حدية لا تفاوت فيها، وإنما هي مقولة نسبية؛ فهناك من يقترب إلى الله تعالى، ويصعد في سلم الإيمان، حتى يصل إلى درجة اليقين، تلك الدرجة التي لا يبلغها كل المؤمنين، هناك من يصل إلى هذه الدرجة وهي أعلى درجات الإيمان، وحتى في هذه الدرجة هناك مراتب، هناك أقوى وأضعف، هناك أعلى مراتب اليقين، تلك المرتبة التي قال فيها علي (ع): "لو كشف لي الغطاء ما ازددت يقيناً"، وهناك من لا يبلغ هذه الدرجة، ومع ذلك فهو من المؤمنين، من حزب الله، من اتباع الله، وليس من حزب الشيطان واتباع الشيطان"([82]). وهذا التفاوت المشار إليه في "حزب الله" يقتضي بذل جهود مضيئة في البناء حتى يستخلص من الأمة كتلة هي أرقى من فئة "المتعلمين على سبيل نجاة"([83]) لكي تضطلع هذه بمسؤولية إدارة شؤون الأمة وتتولى مهمة ضبط المسار السلوكي والأخلاقي فضلاً عن الفكري للأمة.

ما سبق مجرد تأمل في أكثر من تجربة بذل فيها المسلمون أغلى ما عندهم من أجل انجاحها، والغاية من اثارها ليس التجريح بأحد ولا المديح الساذج لآخر، وإنما التفكير في أنجع السبل التي يمكن سلوكها للوصول إلى المجتمع المنشود، مجتمع العدالة الإلهية.

نسأل الله تعالى الأجر على الجهد الذي بذل لأنه أسمى ما نطلبه، والحمد لله رب العالمين.

[1] المرشد العام حسن البنا.

[2] حوى، المدخل إلى دعوة الاخوان المسلمين ص 71.

[3] حوى، المدخل إلى دعوة الاخوان المسلمين ص 51 - 53.

[4] "إن جماعة الاخوان لا غيرها هي التي ينبغي أن يضع السلم يده في يدها". حوى، المدخل إلى دعوة الاخوان المسلمين، ص 30.

[5] ذكر المرشد العام: "إن من أراد أن يختار لنفسه تربية خاصة فهو وما يختار. فحركة الاخوان تطلب كل مسلم أن يكون فيها ومنها، وهذا واجب لابد منه لتحقيق الأهداف الإسلامية، ولا تمنع مسلماً أن يأخذ الخير حيثما وجد، أو يشارك في الخير حيثما كان، أما الذين يتركون الاخوان للمشاركة في خير جانبي فهؤلاء تركوا الأصل إلى الفرع...". المكان نفسه.

[6] المكان نفسه.

[7] المرجع نفسه، ص 73.

[8] المرجع نفسه ص 172.

[9] عبد الحليم، الاخوان المسلمون أحداث صنعت التاريخ ص 15.

[10] حوى، المدخل إلى دعوة الإخوان المسلمين، ص 41.

[11] "ما كان يستقر بنا المقام في الدار الجديدة حتى دعانا الأستاذ المرشد إلى اجتماع وعرض علينا فكرته في وجوب أن تكون لنا شارة مميزة ومجلة معبرة (...). اقترح كل منا هيئة معينة للشارة، وانتهينا إلى أن يكون لنا نوعان من الشارات، نوع يعلق على الصدر في جانبه الأيسر ونوع يلبس في اصبع اليد.." عبد الحليم، الإخوان (م.س)، ج1، ص110.

[12] المرجع نفسه، ص 117.

[13] المرجع نفسه، ص38.

[14] "ومع أنه لم يزل فقهاء الدعوة المعتمدون يعتبرون الإخوان المسلمين جماعة من المسلمين.. فإن الأدلة كلها تدل على أن هذه الجماعة هي أقرب الجماعات لأن تكون جماعة المسلمين" المرجع نفسه، ص21.

[15] المرجع نفسه، ص28.

[16] حوى، المدخل إلى دعوة الإخوان، ص 125.

[17] "ثم وجدوا - الانكليز - أن مركز التوجيه الإسلامي في البلاد هو الأزهر فعملوا - عن طريق صنعائهم الحكام - على أن تكون مناصبه الرفيعة لمن تستهويهم المناصب ولمن يبيعون دينهم بعرض الدنيا، وعن طريق هؤلاء سرت الفكرة المبتورة عن الإسلام في مختلف أوساط الشعب الطيب القلب فانخدع، وبهذا الأسلوب الهين اللين نام الشعب وغط في نومه ولم يعد يبالي بما يجري حول في بلده ولا في أي بلد إسلامي (...). نجح الانكليز فيما لم ينجح فيه الطليان والفرنسيون، حيث استطاعوا بطريقتهم الهادئة الملتوية اخماد الجذوة الإسلامية في نفوس المصريين فأصبحوا لا يحسون ولا يشعرون". عبد الحليم، الإخوان المسلمون...، ص 86.

[18] حوى، المدخل إلى دعوة الإخوان المسلمين، ص 136.

[19] المرجع نفسه، ص 234.

[20] المرجع نفسه، ص277.

[21] المكان نفسه.

[22] عبد الحليم، الإخوان المسلمون أحداث صنعت، ص 148.

[23] المكان نفسه.

[24] حوى، المدخل إلى دعوة الإخوان، ص 239.

[25] عبد الحليم، الإخوان المسلمون أحداث... ج1، ص204.

[26] المرجع نفسه، ج1، ص203.

[27] يقول محمد عبد الحليم: "والظاهرة العجيبة التي لاحظتها هي أن دعوة أحمد رفعت كانت تلقى من كثير من الإخوان أذاناً صاغية واستجابة سريعة، ولا أدري أكان هذا لقوة حجته وبرعة اقناعه أم لأن دعوته المتطرفة صادفت فترة كان الإخوان فيها في حالة جلوة روحية نتيجة النظام التربوي العنيف الذي أخذهم الأستاذ المرشد به في تلك الأيام فكانوا يتمنون أن يجدوا من يدعوهم إلى تخطي رقاب الزمن ليحققوا ما احتبس في صدورهم من آمال، فما كادوا يسمعون أحمد رفعت حتى وجدوا دعوته صدى لما يتردد في جنبات نفوسهم فأقبلوا عليه..." عبد الحليم، المكان نفسه.

[28] المرجع نفسه، ص 295 - 296.

[29] حزب التحرير، ص 7 - 8.

[30] حزب التحرير، ص33.

[31] مفاهيم حزب التحرير، ص 64 - 65.

[32]] "والتفريق بين الدعوة التي تحملها جماعة في أمة إسلامية، وبين الدعوة التي تحملها دولة إسلامية، فهو لمعرفة نوع العمل الذي يقوم به حملة الدعوة، والفرق بينهما هو أن الدعوة التي تحملها الدولة الإسلامية تتمثل فيها الناحية العملية، فهي تطبق الإسلام في الداخل تطبيقاً كاملاً شاملاً حتى يسعد المسلمون في الحياة (...) أما الدعوة التي تحملها جماعة أو كتلة، فهي أعمال تتعلق بالفكر ولا تتعلق بالقيام بأعمال أخرى، ولذلك تأخذ الناحية الفكرية، لا الناحية العملية..". المكان نفسه.

[33]] المكان نفسه.

[34]] المرجع نفسه، ص 66 - 67.

[35]] مفاهيم حزب التحرير، ص 66 - 67.

[36]] المرجع نفسه، ص 4.

[37]] المكان نفسه.

[38]] المرجع نفسه، ص 2.

[39]] م، ن.

[40]] مع أن الإسلام مبدأ عالمي، إلا أنه ليس من طريقتة أن يعمل له من البدء بشكل عالمي، بل لابد أن يدعى له عالمياً، وأن يجعل مجال العمل له في قطر أو أقطار حتى يتمركز فيها فتقوم الدولة الإسلامية. إن العالم كله مكان صالح للدعوة الإسلامية، غير أنه لما كانت البلاد الإسلامية يدين أهلها بالإسلام كان لابد أن تبدأ الدعوة فيها، وما كانت البلاد العربية، التي هي جزء من البلاد الإسلامية، تتكلم اللغة العربية التي هي لغة القرآن والحديث، والتي هي جزء جوهري من الإسلام وعنصر أساسي من عناصر الثقافة الإسلامية، كانت أولى البلاد بالبدء في حمل هذه الدعوة هي البلاد العربية.. حزب التحرير، ص 27.

[41]] مفاهيم حزب التحرير، ص 2.

[42]] المكان نفسه.

[43]] المكان نفسه.

[44]] "وفي المرحلة الثانية قام النبهاني بالأعمال التالية:

1 - الثقافة المركزة في الحلقات.

2-الثقافة الجماعية لجماهير الأمة في المساجد وال النوادي.

3 - الصراع الفكري لعقائد الكفر وأنظمتها.

4 - الكفاح السياسي ويتمثل بما يلي:

أ - مكافحة الدول الكافرة.

ب - مقارعة الحكام في البلاد العربية والإسلامية.

5 - تبني مصالح الأمة". حزب التحرير، ص 33 - 34 - 35.

[45]] منشورات الدعوة الإسلامية، مقالات إسلامية، ص 13 - 14.

[46]] مقالات إسلامية، ص 14.

[47]] المرجع نفسه، ص 21.

[48]] المكان نفسه.

[49]] المكان نفسه.

- [50] المرجع نفسه، ص7.
- [51] المرجع نفسه ص 44.
- [52] مقالات إسلامية، ص49.
- [53] راجع التحريك، مقالات إسلامية، ص 55 وما بعدها.
- [54] راجع من الذي يحرك المجتمع؟ مقالات إسلامية، ص 70 وما بعدها.
- [55] المرجع نفسه، ص 57.
- [56] المرجع نفسه، ص 98.
- [57] المكان نفسه.
- [58] المرجع نفسه، ص 99 - 100.
- [59] مقالات إسلامية ص 101.
- [60] راجع مادة المرحلية في جهاد الدعوة، مقالات إسلامية، ص 219.
- [61] المكان نفسه.
- [62] المرجع نفسه، ص 231.
- [63] راجع نصوص كتاب دروس في الجهاد والرفض.
- [64] راجع كتاب دروس في الجهاد والرفض.
- [65] المرجع نفسه.
- [66] المرجع نفسه، ص 112.
- [67] المرجع نفسه، ص 148.
- [68] المرجع نفسه، ص 32.
- [69] الإمام الخميني، دروس في الجهاد والرفض، ص 36.
- [70] المرجع نفسه، ص 245.
- [71] المرجع نفسه، ص 246.
- [72] "ومما لا شك فيه أن السلطة الحاكمة ترى نفسها بحاجة ماسة إلى مساعدة المتقصرين بجلباب الدين ممن باعوا ضمائرهم وأصبحوا عملاء للأجنبي، فتنخذ منهم خلفاء وعمالء حتى تتمكن من السيطرة على المساجد والمحافل الدينية ومراقبة اجتماعات المؤمنين والتدخل في شؤونهم الثقافية والعقائدية..." الإمام الخميني، دروس في الجهاد والرفض، ص 178.
- [73] "ليعلم حضرات المبلغين والخطباء المحترمين - كثر الله أمثالهم - كافة وكذلك جميع الهيئات الدينية ومقيمي المآتم لسيد الشهداء (ع) وليكونوا على بينة من أن السلطة الطاغوتية خوفاً من أن تتعزى وتنفضح جرائمها وأعمالها اللاإنسانية ومعاداتها للدين ولمصالح الوطن العليا وخشية أن تتعرض للهتك من فوق منابر تجمعات المسلمين في هذه الأيام، اقدمت على "فضيحة" أخرى عندما قررت أخذ التعهدات من المبلغين والخطباء ورؤساء الهيئات الدينية والمآتم الحسينية بعدم التحدث عن ظلم السلطة الباغية..." المرجع نفسه، ص49.
- [74] اتحاد الطلبة المسلمين.

- ([75]) دروس في الجهاد والرفض، ص 272.
- ([76]) الإمام الخميني، دروس في الجهاد والرفض، ص 157.
- ([77]) المرجع نفسه، ص 176.
- ([78]) المرجع نفسه، ص 62.
- ([79]) المرجع نفسه، ص 37.
- ([80]) "... وليعلم حكام إيران أن منهجنا هو الإسلام وأن رائدنا هو وحدة كلمة المسلمين في أرجاء العالم وارساء أسس تحالف رصين مع جميع البلدان الإسلامية في العالم للوقوف صفاً واحداً متراصاً بوجه الصهيونية وإسرائيل وكل الدول الاستعمارية..." المرجع نفسه، ص 92.
- ([81]) القبانجي، محاضرات في حزب الله، ص 19.
- ([82]) المكان نفسه.
- ([83]) الإمام علي، نهج البلاغة، خطبة العلم.

الفصل السابع: سر الثورة في خطاب الإمام الخميني(ره)

د. قاسم صفا

ما هي القوى العظمى في خطاب الثورة عند الإمام؟ وما هو دور هذه القوى الروحية في التحريض الثوري؟ وهل هنالك من فوارق بين خطاب الفقيه الحاكم وبين الخطاب الآخر (خطاب قادة الثورات غير الإلهية)؟ ثم ما هو سر القوة في خطاب نائب الإمام المتصل بالنص الإلهي؟ وأخيراً هل للأسباب الغيبية دور في تحقق الوعد الإلهي بالنصر وغلبة المستضعفين؟ وكيف استقى الإمام في خطابه من هذا الوعد والتحريض الدافع للأمة للانتفاض ضد الطغاة؟

ولم نتناول في موضوعنا هذا مختلف الأسرار العظمى المحركة للثورة الإلهية بل اكتفينا بالحديث عن بعض الجوانب الروحية الناجمة عنها والمولدة لها([1])، (والعلاقة جدلية بين القوى الروحية العظمى والثورة الإلهية).

لا يمكن معرفة العوامل التحريضية في الخطاب الثوري قبل معرفة طبيعة النفس الإنسانية والعناصر الأساسية المحركة لها. لهذا لا بد من الخوض في غمار النفس ومكوناتها حتى نستطيع تحديد العوامل التي تدفعها نحو الانقباض والانبساط أو نحو البذل والعطاء والتفاني والجهاد، ونحو التخلف والارتداد والجبن.

إن معرفة النفس الإنسانية وسبر أغوارها يحدد جوانب القوة والعظمة وجوانب الضعف والدعة وكل ذلك يصبح عاملاً أساسياً وهاماً في مسار اندفاعها أو اعراضها. ولعل من أهم جوانب القوة الذاتية التي قد تكون في سر سعادة المرء أو شقائه تلك المسماة بالمعرفة النفسية أو الأنفسية.

هذه النفس هي المحرك للإنسان، وهو مدرك لها بمعزل عن إدراك البدن: "فقد اغفل عن اعضائي وكياني ولكني لا اغفل عن ذاتي"([2]) يؤكد ابن سينا في نظريته "الرجل المعلق في الفضاء" ان الإنسان يدرك ذاته بمعزل عن إدراك جسده. فقد يغفل المرء عن حواسه حين يجد نفسه معلقاً بين السماء والأرض عند أول خلقها لا تبصر اجزاؤها، ولكنه لا يغفل عن ذاته.

"لو توهمت أن ذاتك قد خلقت، أول خلقها، صحيحة العقل والهيئة، وفرض أنها على جملة من الوضع والهيئة لا تبصر اجزاؤها ولا تتلامس اعضاؤها بل هي منفردة ومعلقة لحظة ما في هواء طلق، وجدتها قد غفلت عن كل شيء إلا عن ثبوت انبثاقها"([3]).

وهذا يؤكد أن المرء لا يغفل عنه إدراك نفسه وذاته حتى وإن انغمس في طلب المأكّل والمشرب والملبس.. فانه في حالات الحب والعداء أو الكره ينقلب إلى نفسه، وفي حالات العشق والهيام ينطوي عليها ويغيب فيها. كذلك، في حالات الانفعال والخوف الشديد أو الرعب، يجد المرء حائلاً بينه وبين حواسه الظاهرة ويصبح همه متجسداً فيما يخاف ويحب ويكره، وقد يؤدي ذلك إلى ولادة تصورات وتخيلات خارجية حتى عن نطاق الحس([4]) كالهاتف والجن... وهذا ما يؤدي إلى زلزلة اليقين عند الإنسان، وفي هذا الصدد يقول الإمام(قده) إن المرء قد يشعر بالخوف من الميت بالرغم من علمه ويقينه العقلي أنه جسد بلا روح ولا يمكن التوجس منه شراً([5]) (وهذا بالطبع يحول بين المرء وبين روح الاقدام وبذل النفس في الشدائد وفي ساحات الجهاد). واليقين يبذل هذه الصورة ويصبح تهديد فرعون للسحرة بالصلب وقطع الأيدي والأرجل.. لا يثير المخاوف ولا يزلزل الأنفس، بل انهم اجابوه بقولهم {لن نؤثرك على ما جاءنا من الحق فاقض ما أنت قاض} هذا اليقين قد ينزع المرء من عالم الحس والمادة ويحملة إلى عالم الآخرة.

دور القوى الروحية العظمى في التحريض

الصلة بالكمال الإلهي المؤدي إلى اليقين والعلم واليقين لا يتأتان إلا من النظر إلى النفس وقواها ومدى حاجتها إلى ربها وفقرها إليه، وهذا ليس بالعلم الفكري ولكنه من العلم النفساني الحضوري كما يقول صاحب الميزان([6]) وهذه هي المعرفة الحقة والمسماة بـ "معرفة الله بالله"([7])، إذ يقترب صاحبها من المولى عزّ وجل فلا يحجبه عنه حجاب، وهنا يجد المرء أمراً عجباً فيرى نفسه متعلقة بالكبرياء والعظمة متصلة في وجودها وحياتها وعلمها وقدرتها وسمعتها وبصرها وإرادتها وحيها وسائر صفاتها وأفعالها بما لا يتناهى بهاءً وسناءً وجمالاً وجلالاً وكمالاً من الوجود والحياة والعلم والقدرة وغيرها من كل كمال"([8]).

هذه المعرفة الإلهية الفيضية والنورانية توصل الإنسان في حدود الزمان والمكان بالمتعلق والكمال فيغيب في الحضرة الربانية وينسى أو يغفل عن كل ما حوله([9]) وينوب في المعشوق الإلهي.

وفي خطاب الإمام من قبل ومن بعد الثورة الإسلامية المباركة يفيض هذا النور وتتطلق روحه العزيزة طالبة الكمال والاتصال بالمتعلق الحاضر في كل مكان. فوصف(قده) الكتب المقدسة السماوية بالمعالم الدالة على طريق الوصول إلى الكمالات وطريق الفناء في الكمال المطلق:

"ابلغنا ببركة من اصطفاهم أنه "الله نور السماوات والأرض"، ويظهره الجميل ازاح الستار عن جماله ، وتبين أنه "هو الأول والآخر والظاهر والباطن"، وبكتبه المقدسة السماوية التي انزلها من حضرة الغيب على انبيائه من صفي الله حتى خليل الله، ومن خليل الله حتى حبيب الله صلوات الله وسلامه عليهم وسلم، علم طريق الوصول إلى الكمالات وطريق الفناء في الكمال المطلق"([10]).

وفي مكان آخر قول الإمام(قده):

"إن مقام الشهادة في حد ذاته هو أوج العبودية والفناء في عالم المعنوية والروح فلا يجب أن نهبط إلى درجة القول ان ثمن استشهاد ابناء الإسلام كان تحرير "خرمشهر" أو المدن الأخرى فقط! إن هذه جميعاً أو هام بالظلة لدعاة القوميات"([11]).

وهكذا يعتبر الإمام أوج العبودية الفناء في الكمال المطلق. ولا يتأتى ذلك إلا بالشهادة، التي هي الطريق إلى هذا الكمال وذاك الفناء، وكلاهما لا يتأتيان إلا من خلال هذا الإيمان بالغيب والكمال الإلهي. ومعرفته هي الغاية الأساسية والغاية الوجودية الكمالية. وهكذا يمكن تحريض هذه الأنفس التي تغتذي بالفطرة من اندفاعها إلى عالم الملكوت والكمال والرفعة والسناء فتعرج إلى الله بالله وتستمد منه كل القوة والعظمة والجبروت.

قوة (اليقين بالحق):

وإذا عرف الإنسان الكمال عرف الحق فتتكشف له الحجب ويدرك ما لا تدركه الأبصار، ويصبح عنده علم اليقين الذي تنبثق منه كل السجيا الحسنة كالشجاعة والفداء والبذل و... هذا "اليقين بالحق" كما يسميه السيد الطباطبائي هو الفقه عند المؤمنين (ويقابله الجهل عند الكافرين) المؤدي إلى الفوز والغلبة"([12]).

هذا الفقه أو اليقين بالحق يستصحب العلم والإيمان. والصبر يلزم اليقين ولا يفارقه وان جاز العكس، فإذا اجتمعاً، أي الصبر واليقين، يرجح المؤمن الواحد على عشر من أمثاله، يقول تعالى: {إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفاً من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون} [الأنفال: 65].

(وقوله تعالى "لا يفقهون" إشارة إلى السبب في الغلبة، بعد أن كان الصبر سبباً آخر من النصر) فالغلبة المعجزة تتحقق باليقين بالحق، أو بالفقه كما هي التسمية القرآنية. في حين أن غياب هذا الشرط لا يدل إلا على الضعف، فلا يستطيع معه المؤمن الصابر أن يرجح في القوة إلا على مثليه"([13]) يقول تعالى: {الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفاً فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين.} [الأنفال: 66].

ولذا فإن الصبر كان هو المرجح في غلبة العدو ولولاه لما استطاع المؤمنون النصر.

ويعتبر المولى عز وجل غياب هذا اليقين بالحق (أو الفقه) "ضعفاً" فيخفف تعالى التكليف عن المؤمنين ويأمر الواحد بقتال مثليه، في حين أنه كان يأمرهم بقتال عشر من أمثالهم في بدر. بالرغم من كثرة عددهم في "حنين" فإن الله خفف عنهم، وكان فيهم ضعفاً في الطاقة الروحية كما يقول السيد الطباطبائي، وهذا ناتج عن ضعف اليقين بالحق أو الجهل المقابل له (فاليقين مستصحب العلم).

هذا الفقه وهذه المعرفة الإلهية ليست معرفة فكرية، سواء حصلت من قياس أو حدس، فهي لا تعدو معرفة ذهنية، وجل الإله أن يحيط به ذهن أو تساوِي ذاته صورة مختلفة"([14]). وهكذا يتبين أن الاتصال بعالم الملكوت والكمال المؤدي إلى علم اليقين (أو عين اليقين"([15]) لا يكون إلا بنور إلهي يفيض به المولى على قلوب عباده فيقتبسون نوراً من عظمته ويجعل لهم "نوراً يمشون به" وبذلك تكون هذه المعرفة فيضية نورانية"([16]).

ويتجلى هذا اليقين بالحق في كلمات الإمام، فينبعث منها صورت إيمان راسخ لا تزلزله الشدائد وفداحة الخطوات، بل تسود الطمأنينة (الدالة على النفس مطمئنة) خطاب الثورة وتتحول حروفه إلى كلمات من نور تهتز لها الأمة، فتتهض في انتفاضه تاريخية عظمى في (15 خرداد)، لتصبح الذكرى من بعد معلماً يؤرخ للثورة المباركة"([17])، ولا يغيب هذا اليقين بالحق عن خطاب الإمام فيبقى حتى بعد قيام دولة الإسلام يقول في خطاب التاريخي عن ملابسات الحرب المفروضة:

"اعددت نفسي ودمي المتواضع لأداء الواجب الإلهي وفريضة الدفاع عن المسلمين وأن في انتظار الفوز العظيم بالشهادة"([18]).

اليقين في الخطاب الإلهي والاحادي:

ولكن هل نجد هذا اليقين في المذاهب الفلسفية الأخرى وهل تستمد منه المعتقدات والفلسفات المادية والاشتراكية والقومية تلك القوة التي تتحول في الخطاب السياسي - التحريضي إلى طاقة روحية جبارة تجتاح كل الأنظمة والعروش الظالمة؟ وإذا حضر هذا اليقين والإيمان والعلم... ولا يمكن أن تكون هذه المعرفة منقطعة عن الفيض المعرفي الرباني فهي نور من الله "يهدي الله لنوره من يشاء".

وهكذا فإن هذا اليقين الذي يكون بالمعرفة الإلهية الاشرافية، يميز الفلسفة الإسلامية الإلهية ويميز الخطاب القرآني التحريضي والخطاب السياسي الثوري، هذا الخطاب المعرفي يصل بالمرء إلى ما هو اسمى وأبهى.

ولذا فإن تلك الأنفس التي عرفت هذه السجايا وهذا الكمال تصبح قابلة للتحرير وتتملك طاقة روحية عظيمة لا يمكن أن تولد إلا من هذا المعين وهذا اليقين بالحق، وأي يقين آخر لا يرقى بهذه الأنفس إلى هذا الكمال وإلى هذه السجايا الحسنة؛ فمن ثمرات اليقين الصبر والإخلاص والزهد والتوكل والرضا بقضاء الله وقدره... ومما جاء في الحديث في "غرر الحكم" عن علي عليه السلام، أنه قال: "الصبر ثمرة اليقين"، "اليقين يثمر الزهد"، "سبب الاخلاص من اليقين"، "التوكل من قوة اليقين".

من وصايا أمير المؤمنين لابنه الحسن(ع): "اطرح عنك واردات الهموم بعزائم الصبر وحسن اليقين"([19]).

وهكذا فاليقين بالحق يؤدي إلى ظهور كل السجايا الحسنة وهذا هو الطريق إلى السعادة الابدية إذ ان معرفة النفس لسرها بنور ربها يفتح لها ابواب عالم الملكوت والعظمة فتخرج من اسرها المادي وتتطلق إلى السماء وتقنى في المعشوق الإلهي - كما الإمام - وهذا ما لا نجده في مختلف المذاهب والفلسفات المادية على مر التاريخ، إذ ان الدين كان ولا يزال الوحيد الذي يحرض الأنفس لتزكيتها بحثاً عن سر وجودها وخلقها الذي يكمن في سر السعادة والخلود (أي معرفة الله) كما يقول صاحب الميزان.

وهكذا فإن الخطاب الإلهي واليقين بالحق والسر الأعظم المستودع فيه لا يمكن أن يولد في المذاهب والمعتقدات الأخرى غير الإلهية.

ولكن هذا لا يعني أن المذاهب والمعتقدات غير الإلهية في مختلف الحضارات الإنسانية لم تكن تحاول صنع "مثال أعلى" تجد الأمة في سره ذلك اليقين المولد لحركة التاريخ العظمى.. ولكن، بالرغم من ذلك، فإن الإمام(قده) يؤكد، والتاريخ يشهد، أن أعظم الثورات في التاريخ لم تكن إلا وليدة "اليقين بالحق" الناجم عن معرفة الخالق الواحد الصمد... وهذا لم يكن إلا بواسطة الأنبياء والرسول؛ أي أن الوحي الإلهي والخطاب المعرفي الذي ترجمه كان الخطاب الأمثل في تغيير وجه التاريخ.

قد نخطئ إذا ظننا أن الاتصال بالمطلق والأعظم والسر المحرك للكون ومصدر السعادة قد غفل عنه الآخرون (قد لا يسبرون غور هذا السر والحق الإلهي، ولكنه ليس خافياً عنهم، وإلا لما كان لله حجة على خلقه المعاندين والمستكبرين)، ولذا فإنهم يصنعون للرعية آلهة متعددة ينزع إليها الفرد في المجتمع فيجد فيها هواه ورمز سعادته...

ويتحول المثل الأعلى إلى إله تندفع الأمة لعبادته وتتحرك بوحي منه بقوة إلى "السعادة" والمتاع، ولكن هذا المثل الأعلى لن يحيل المحدود إلى مطلق، وبالتالي فإن كل ما نراه من عظمة وقداصة فيه، إنما هو فيض من إبتئنا ومن أنفسنا وهو يرتد من بعد إلينا، كذلك هي الأسطورة التي تتجلى في الخطاب الإعلامي والدعائي.

أما لماذا تصنع الحضارات على مر التاريخ آلهتها ومثلها العليا..؟ ولماذا يجسد الغرب في حضارته "المثل الأعلى" رافضاً كل المثل العليا الأخرى الآتية من السماء؟ يقول "شيللر - أ - هربرت" ان الحضارة الغربية تجسد اسطورة المجتمع الأمثل([20]). والنموذج اسطورة الجنة في الحياة الدنيا فلا شقاء فيها ولا عذاب، بل هي السعادة الحقيقية والفردوس الأرضي.

أما لماذا هذا الفردوس في الخطاب الغربي فيقول "شيللر" ان هذه الأسطورة (المثل الأعلى) تخدر الأمة وتحيل الواقع إلى حلم تضارعه صور النعيم الذي يصدع عنه.. فتغيب عذابات المستضعفين والوان الشقاء الإنساني وكل القهر والاضطهاد ويظهر "الاستكبار" وكأنه الباعث للحضارة والمدافع عن الإنسان...([21]).

هذا المثل الأعلى لا ينفصل عن النظرة العقائدية والفلسفية للكون والحياة، بل ومنه تنبعث كل الأعراف والتقاليد الاجتماعية كما يقول "شيللر".

فإذا ما تحطم هذا المثل، فإن البنى الفوقية من اجتماعية وتاريخية تتحطم على قاعدته، من هنا، كان الإمام(قده) يؤكد في خطابه على هذا المثل، محاولاً كسر هذا الصنم الفرعوني "الشاهنشاهي"([22]) الذي يجسد المثل الأعلى الأجنبي وأحد رموزه.

لقد جعل الشاه من المثل الأعلى الغربي نموذجاً يحتذى، وهذا ما يسميه السيد الشهيد بالمثل الأعلى المستورد والأجنبي([23])، وهذا ما حدث أيضاً في عهد أتاتورك، ورضا خان، اللذين حاولا، بذلك، استبدال المثل الأعلى الديني والإسلامي بالمثل الأعلى الأجنبي.

لقد كانت الأمة على مفترق طريقين: الأول المؤدي إلى المثل الأعلى الأجنبي([24]) والثاني المؤدي إلى بعث المثل الأعلى في قلب الأمة، وقد كان رواد الفكر الإسلامي دعاة هذا النهج([25]). لقد تصدى العلماء المسلمون على مر التاريخ لهذا التحدي خاصة في سني الاحتلال والاستعمار الأوربي والأجنبي. وفي إيران وحدها كان للعلماء الدور الأساسي في مواجهة المثل الأعلى الغربي، ويذكر في هذا المجال أن الشيخ النوري([26]) كان من كبار العلماء الذين تصدوا لمحاولات التغريب إبان الثورة الدستورية أو ما سمي بالمشروطة سنة 1906 (والمشروطة من "الشرط" أي أن الدستور لا يكون شرعياً إلا إذا اعتمد القرآن والسنة... ولم يكن بالتالي مخالفاً للشريعة الإسلامية).

السمة الإلهية في خطاب المستضعفين وتحريضهم

الوعي الإلهي: وحتى في خطاب المستضعفين، فإن البعد الغيبي الماورائي يظهر أيضاً؛ لقد كانت الثورات الأخرى (غير الإلهية) تجعل من هذا الخطاب عقيدة تحرض بها الأمة المستضعفة الطامحة إلى التحرر من نير العبودية والاستغلال. وبقيت هذه "الأيديولوجية" ترسخ في الأرض دون أن تجد لها امتداداً نحو الغيب ونحو السماء وتحولت في الطرح الماركسي إلى قدس من الأقداس([27]) دون أن تخرج من مقمق المادة وجدليتها.

أما في الثورات الإلهية فإن الاستضعاف ليس لغة الجدل الديالكتيكي، بل لغة الوحي والسماء. وهكذا كان للمثل الإلهي الأثر الأول والأهم في قيام الثورات التاريخية، ولا يظن أحد أن هذا المثل الإلهي يخرج عن مسار الحركة التاريخية، بل هو مواكب لها. وهذه سنة من السنن الإلهية والتاريخية.

يقول تعالى: {ونريد أن نمنَّ على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمةً ونجعلهم الوارثين * ونمكن لهم في الأرض ونري فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون}.

وغرض الآية "الوعد الجميل"([28]) - كما يقول صاحب الميزان - للمؤمنين وهم شريحة قليلة يستضعفها فراعنة قريش (قبل الهجرة) بأن الله سيمن عليهم ويجعلهم الوارثين، كما مكن لبني إسرائيل وموسى من قبل في الأرض ومنَّ عليهم ونجاهم من آل فرعون (وهذا يظهر في الآية السابقة واللاحقة).

هذا "الوعد الجميل" وهذا المنَّ ليس إلا انتقالاً بالنعمة([29]) - كما يقول السيد الطباطبائي - سيتحول عن آل فرعون والمستكبرين إلى بني إسرائيل والمستضعفين. وهذا كله بالقدر الإلهي الخفية، فقد كاد فرعون يقضي على أبناء يعقوب حتى إنه ذبح الذكور واستحى النساء... وكان يقول "أنا ربكم الأعلى!" وما من معارض يستطيع أن يقول خلاف ذلك.

هذا التغيير، وهذا الوعد الإلهي كانا يأتیان بعد أن يمعن المستكبرون - كما أشرنا - في إضعاف المؤمنين وفي تعريضهم لأشد صنوف العذاب والتنكيل، وهكذا يكون المنَّ بالغلبة والنصر حين تنقطع الأسباب، فيكون الوعد الإلهي لطفاً ربانياً وعطاءً من عند الله، وهذا لا يعني أن حركة التاريخ تخرج عن السنن التاريخية المعهودة - وتخضع لأسباب الغيبية - ولكنها لا تنفصل في مسارها وصيرورتها عن الإرادة الإلهية([30]). وهذا ما حدث من بعد في إيران وكان الانقلاب الأعظم حين كان الاستكبار ينوء بثقله على كاهل الأمة، وبالرغم من ذلك، فإن الله ما لبث أن منَّ على المستضعفين وجعلهم الوارثين، وكان هذا المن حين زاد الاستكبار الشاهنشاهي الغربي من إضعافه للمسلمين فلم تعرف الأمة عهداً من قبل أشد تنكياً واستكباراً من ذاك العهد - كما يقول الإمام(قده) - ولم تعرف الأمة فرعوناً قد علا في الأرض كالشاه بهلوي الذي كاد أن يكون الإله - (والقول للإمام) -.

كل هذا لم يثن من عزيمة قائد الأمة(قده) فكان يعد المستضعفين من قبل بالنصر في أكثر من خطاب، وكان يحرضهم للقيام من أجل بعث دولة المستضعفين دولة إمام العصر(عج)، الذي يجسد آمال المحرومين والمضطهدين، ولذا فإن الإمام(عج) كان ولا يزال رمز العدالة الإلهية الذي تنوق إليه انفس المعذبين المظلومين([31]).

ولم يعرف التاريخ أمة، أصبح الإمام(عج) في قلبها يقيناً، كهذه الأمة. لقد دخلت المهدوية في الثقافة والحضارة الإيرانية، فلم تكن عقيدة الامامية فحسب، بل تجسدت كطاقة روحية جبارة في قلب الأمة تدفعها نحو إمام العصر قائد المستضعفين الذي تحول إلى أمل يجسد كل

الآمال في مجتمع العدالة الإلهية، هذا ما يسميه د. خوري بالعدل الأبدي السرمدي عدل الإمام ([32]) والذي أسماه قائد الأمة بالعدل الإلهي.

يقول(قده) في خطاب تحريض في ذكرى ولادة الإمام الحجة(عج):

"كم هو مبارك ولادة شخصية كبيرة حث انه يقيم العدل الذي بعث الأنبياء من اجل اقامته، وكم هو مبارك ولادة رجل عظيم سوف يظهر الأرض من شر الظالمين والدجالين وسوف يملأ الأرض قسطاً وعدلاً بعدما ملئت ظلماً وجوراً، وسوف يقضي على مستكبري العالم ويجعل المستضعفين ورثاء الأرض".

"وكم سعيد ومبارك ذلك اليوم الذي يتطهر العالم فيه من الدجل والفتن، وتنبسط حكومة العدل الإلهي في كل أرجاء المعمورة ويسود البشرية قانون العدل الإسلامي"([33]).

هذا الطموح بتحقيق العدالة الإلهية جعل الشيعة - كما يقول د. خوري - من الرافضين والمعارضين لمبدأ قيام أي دولة غير دولة الإمام العادل(عج)، ولكن د. الفار يعتبر أن هذا الطموح لتحقيق العدالة والذي هو جزء من الإيمان والتقوى عند الامامية الجعفرية - كما يضيف - يمكن أن يتحقق جزئياً في غياب الإمام المنتظر "بواسطة أولئك الذين يتلهفون إلى عودته ويرغبون بالتالي في تمهيد الطريق من خلال استشفاف خصائص ولايته"([34]).

وحتى هذا الطرح فانه لا يلغي مبدأ قيام مجتمع العدل الإلهي في ظل الإمام(عج)، بل نجد فيه تحريضاً للأمة لحفظ دولة إمام الزمان التي منها سيولد الزلزال الذي سيهز عروش الظالمين فتسود من بعده العدالة الإلهية في كل مكان.

ولذا فيعد الانتصار وقيام دولة الإسلام أصبح الدفاع والدود عن حياظها أغلى من كل الأنفس حتى من نفس إمام العصر(عج) كما يقول الإمام(قده). وهكذا، فان تحريض الأمة ودفعها لمواجهة الاستكبار من اجل تحقيق العدالة الإلهية تحت راية نائب الإمام(قده) كان يستمد القوة من تلك القوى الروحية ومن ذلك الاعتقاد (الذي يعتبره د. الفار جزءاً من الإيمان عند الشيعة) بان إمام الزمان سينشر راية العدل الإلهي في شتى أرجاء المعمورة، وهذا ما وعد به المولى عباده في كتابه (ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين). وهكذا، فان خطاب المستضعفين يرقى إلى الأسباب العقائدية والإلهية فتتحرك الأمة بوحية نحو الشهادة من اجل تحقيق مجتمع العدل الإلهي، وبتسديد من تلك الطاقة الروحية المنبثقة عن اليقين بالحق الإلهي.

وهكذا، قد نصاب بالصدمة إذا ما عرفنا أن هذه الأمة التي قدمت الآلاف من ابنائها ما تزال تعشق الشهادة، وهذا ما اعتبره الإمام رمز عزتها وقديستها، بل ان لهذا العطاء والبذل قيمة لا ندركها نحن اليوم، وما علينا إلا أن نبحث عنها في عمر التاريخ، كما يقول الإمام:

"إن علينا أن نطوي مراحل طويلة لندرك قيمة شهدائنا وطرقهم بصورة كاملة، وان نبحت عنها في عمر الزمان وفي تاريخ الثورات وفي الأجيال القادمة"([35]).

كذلك فان هذا اليقين لا يغتذي من هذا الاعتقاد فحسب، بل إن للشهادة جذوراً تمتد - عند الشيعة - إلى الإمام الثالث من أئمة أهل البيت(ع)، وهذا أيضاً جزء من الاعتقاد بالإمامة، فالإمام الحسين(ع) هو حفيد الرسول(ص) وابن الإمام علي(ع) وهو سيد الشهداء، وكربلاء تروى بدمائه ودم العترة الطاهرة من أهل بيته وصحبه آيات من نور في الشهادة والفناء في الله.

خطاب نائب الإمام

خطاب الامامة امتداد للنص الإلهي: وخطاب الامامة هو امتداد للنص الإلهي بعد النبي(ص)، ولا ينتهي النص عنده أي عند النبي(ص) بعد انقطاع الوحي. فالامامة تعيين بالنص الإلهي، كما يعتقد الشيعة، ولا انقطاع في الخط الزمني الممتد من عهدهم حتى اليوم، فنانبية الإمام(عج) هي امتداد لها، وبمعنى آخر، ان عصر الغيبة لا يعني عدم التواصل مع خط الامامة([36]). وولاية الفقيه التي جدها وأحيها الإمام(قده) تؤكد على ذلك، يقول د. فؤاد اسحق الخوري:

"إن نقطة التحول في هذا المفهوم للمجتمع هي الاعتقاد بتواصلية أو استمرارية الوصاية الإلهية، وبالتالي ضرورة استمرارية الاستجابة الإنسانية لهذه الوصاية وعدم انقطاعها" عن طريق الأئمة وعلماء الدين والأوصياء. من هنا يأتي مفهوم غيبة الإمام بدلاً من انقطاعه.

إن ولاية الفقيه هي الممهدة لحكومة الإمام الغائب. يقول الإمام في "الحكومة الإسلامية": "إذا نهض بأمر تشكيل الحكومة فقيه عادل فانه يلي من أمور المجتمع ما كان يليه النبي(ص) منهم، ووجب على الناس أن يسمعوا له ويطيعوا... وهو أول من أضفى هذا البعد السياسي على نظرية ولاية الفقيه، أو لعله هو الذي صنع منها نظرية سياسية تخرج بالمذهب الشيعي من الجمود المتمثل في انتظار عودة الإمام الثاني عشر ليقيم من جديد حكومة الإسلام"([37]).

وهذا الموقف الذي أحياه الإمام في كتابه الحكومة الإسلامية مخالف لذلك المفهوم التقليدي الذي يؤكد أن العدل الإلهي لن يكون إلا في دولة الإمام، سواء كان حاضراً أم غائباً. ولذا فانه - كما يقولون - من المستحيل إقامة العدل في غيبة الإمام المعصوم، وتبعاً لذلك فان كل راية قبل راية الإمام(عج) هي راية ضلال، وهذا يعني انقطاع الصلة بالإمامة وبالنص الإلهي منذ غياب الإمام المنتظر(عج).

وقد ظهر هذا الخلاف من قبل قيام الثورة الإسلامية التي أحييت هذه الصلة بخط الإمامة وبالنص الإلهي([38]). وهذا يخالف الطروحات المذهبية (العقائدية) الأخرى، فلا يكون الانقطاع في عصر الغيبة مدعاة لحيرة الأمة.

وهذا ما ظهر خلال الانقلاب الدستوري في إيران عام 1905، فقد انقسم العلماء والمقلدون لهم في مختلف أرجاء البلاد وخاصة في العراق، إذ ان فريقاً منهم وأبرزهم المجتهد ملا كاظم خراساني في العراق والشيخ مازندراني وميرزا حسين طهراني، اكادوا أنهم لم يكن لهم عهد بعد الغيبة الكبرى بإقامة حكم إسلامي عادل، وهم بالتالي لا يرون إمكانية في تحديد "تصور سليم للحياة السياسية الإيرانية"([39]). أما الفريق الآخر بزعامة الشيخ فضل الله نوري - الذي كان الإمام الأعظم الشيرازي صاحب فتوى التنبك الشهيرة يحرر جميع رسائله وفتاويه باسمه، وكان وحداً من أبرز رجال الحركة الدستورية الـ"مشروطية"([40]) - فكان يؤكد على ضرورة قيام حكومة "دستورية" على أساس "انقلاب مشروطيتي" أي ثورة دينية "شرطها" القرآن والسنة النبوية، ولم ينته الخلاف بين الفريقين بعد احتدامه واشتداد ناره حتى حسم الإمام(قده) بطرحه "ولاية الفقيه"([41]) الخلاف بين الفقهاء.

وإذا كان الخلاف (قبل الثورة الإسلامية المباركة) بين الشيعة قد ظهر إثر الغيبة، وبذلك انقطعت الأمة عن خط الإمامة ولم يعد هنالك من اتصال بالنص الإلهي، فان البعض الآخر يعتقد أن الأمة قد انقطعت عن النص الإلهي بعد وفاة النبي(ص) ولم تستطع "السلطة الإسلامية الناشئة التي حدد أبو بكر الخليفة الأول مهامها فسلبها حق الادعاء لورثة النبوة عندما اعتبر الجماعة المرجع والحكم"([42]): "إن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوّموني".

وعلى قاعدة النص الإلهي "القرآن والسنة"([43]) كما يقول "السيد" كانت الاختلافات والثورات "وبقي النص المتوحد، قرآناً وسنةً، مستعصياً على الاستيعاب وعلى التماسس فيما عدا مؤسسة الأمة التي وضع استخلافها لتحيا وتستمر وتنمو وتمتد في رحاب النص وفي توحد معه وبه"([44]).

ولكن الشيعة يخالفون هذا الطرح؛ فالإمامة تعيين بالنص الإلهي، وبالتالي، فان الانقطاع عن النص لم يكن بعد وفاة النبي(ص)، والجماعة ليست المؤسسة الوحيدة أو البديلة عندهم، وإذا استشهد د. السيد بالحديث القائل: "تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما: كتاب الله وسنة نبيه" فان حديثاً آخر مروياً بالتواتر مفاده أن الرسول(ص) قال: "إنني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي فانهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض". والإمامة هي معدن العترة الطاهرة، التي تهدي بأمر الله فلا تضل ولا تُضل. بل أن هديها من هدي الله وأمره. يقول صاحب الميزان، ان المولى عزّ وجل كلما تعرض لمعنى الإمامة تعرض معها للهداية قال تعالى: {وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا} [الأنبياء:73] وقال سبحانه: {وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون} [السجدة:24] "فوصفها بالهداية وصف تعريف، ثم قيدها بالأمر، فبين أن الإمامة ليست مطلق الهداية، بل هي الهداية التي تقع بأمر الله تعالى"([45]). وهذا الأمر هو الذي يقول فيه تعالى: {إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون} فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء {يس:82 - 83}. هذا الأمر الإلهي كما يقول صاحب الميزان خارج المكان والزمان لا يتغير ولا يتبدل وهو يقابل الخلق المتغير في الزمان والمكان.

ويستنتج من ذلك أمران([46]):

أحدهما: ان الإمامة تستدعي العصمة - فمن كان ضالاً كيف يمكن أن يهدي إلى الحق - يقول تعالى: {وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا وأوحينا إليهم فعل الخيرات وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وكانوا لنا عابدين} [الأنبياء:73]. هذه الأفعال أفعال الخيرات يهدي إليها نفسه ويتأييد إلهي، فقال تعالى: {وأوحينا إليهم فعل الخيرات}، ولم يقل وأوحينا إليهم أن افعلوا الخيرات. وهذا الوحي هو تأييد باطن من رب العزة.

الثاني: وهو أنه من ليس بمعصوم لا يمكن أن يكون هادياً، وبالتالي، لا يمكن أن يكون إماماً.

"وهكذا لا يمكن أن تكون الجماعة هي المؤسسة البديلة بعد النبي في تأويل النص، بل إنه لا بد من إمام يهدي بهدي الله. ولا تخلو الأرض من إمام حق يدعو إليه وهو على يقين من ربه. والإمامة هي ولاية الناس في أعمالهم وإيصالهم إلى المطلوب بأمر الله. ولا يمكن للجماعة أن تصل إلى هذا اليقين في الهداية، ولا يمكن لها أن تكون، بالتالي، المؤسسة البديلة؛ فقد حدد تعالى سبب موهبة الإمامة بقوله: ﴿لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوْقِنُونَ﴾ [السجدة:24]. وفي تفسير ذلك يقول صاحب الميزان ([47]) أن الصبر هو كل ما يمتحن ويبتلى به العبد، أما اليقين فهو إراءة المولى لهم لعالم الملكوت يقول تعالى: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ * لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ﴾ [التكاثر: 5 - 6]. أما ما يحجب عن هذا اليقين فالمعاصي والذنوب التي رانت على القلوب فحجبت ذلك النور من عالم الملكوت. فأني للأمة بعد أن تكون بديلاً عن إمام حق يدعو إلى ربه وهو على بصيرة منه؟! (وحتى أولئك الذين لا يؤمنون بالإمام الحاكم الواحد ويعتقدون بالتعددية في زمن الغيبة فإنهم يتفقون على أن هذا التعدد يمثل النيابة عن الإمام بالمعنى العام وفي كل الأحوال فإن النواب هم الفقهاء) ([48]).

وعلى هذا فإن النص الإلهي لا ينقطع، أو لنقل التواصل معه ليس مستحيلاً، ولا يكون إلا بإمامة حق مؤيدة من الملكوت الأعلى. وهذا ما يضفي بالتالي على خطابها القداسة وسمة الإلهي المنزه عن كل ضلال وريبة.

السمة الإلهية في خطاب الفقيه

خطاب "التكليف" ولهذا، فإننا لم نعرف في التاريخ أمة انسأقت انسياقاً كاملاً لحكم وأوامر قائدها كما تتساق الأمة المسلمة لحكم الحاكم في فتواه. فقد يلتزم المجتمع بما يلزمه به القائد، ولكن الفرد لا ينصاع كما ينصاع المسلم العابد لأمر مولاه في حكم الإمام. من هنا، كان الحكام يسبغون الصفة الإلهية على حكمهم كي يتسنى للرعية الخضوع الكامل.. لقد كانت المجتمعات الشيوعية تمنع كل مظاهر ورموز "الحضارة البرجوازية" بقوة السلطة والقانون الوضعي.. في حين أن كلمات معدودة من أحد مراجع التقليد السيد الشيرازي رضوان الله عليه كانت تكفي لحرمة التنبك الانجليزي، حتى قيل ان نساء البلاط الملكي قد امتنعن عنه التزاماً بفتوى المرجع.

بل ان لحكم العالم سلطة تنبع من كونه ولي أمر المسلمين يستفتونه في كل صغيرة وكبيرة، وعند الشدائد والخطوب يكون هو الملاذ؛ يقول الإمام(قده): "إن الشيخ الشيرازي ذلك الرجل والقائد العظيم ذو الرتبة السامية في العلم والعمل، هو الذي قاد حركة النضال والثورة في العراق.. فعندما استفتته العشائر عن واجبها حيال الاحتلال الانجليزي، حكم بوجوب محاربة المحتلين وجهادهم. وهكذا اندلعت الثورة وحققت استقلال العراق" ([49]).

وهذا ما حدث أيضاً في ايران حين زحف الجيش الروسي إلى داخل أراضي الأمة الإسلامية ووجهت الدولة الروسية انذاراً إلى البرلمان الإيراني بوجوب التوقيع على قانون مذل، فوقعت الحيرة في قلوب البرلمانين ولم يتمكنوا من اتخاذ قرار مشرف - كما يقول الإمام - حينذاك قام العلامة "المدرسي" بيد مرتعشة (لكبر سنه) وقال:

"إذا كان الأمر يقتضي أن نفنى فلماذا نسعى بأيدينا إلى الفناء" فرفض بذلك قانون المذلة متجاهلاً الانذار الأجنبي، وتبعه على اثر ذلك بقية النواب ورفضوا قانون العار، ولم يقدم الروس من بعد على العدوان "بفضل هذا العالم الروحاني ذي اليد المرتعشة" ([50]).

وهكذا فلخطاب الديني الصادر عن العالم الرباني والمرجع والفقيه الحاكم قوة عظمى لا نجدها في خطاب آخر. لقد تجلى ذلك إبان الثورة الإسلامية وبعد قيام الدولة، إذ استخدم الإمام هذا السلاح الأمضى في تحريك وتحريض الأمة فتناول في خطبه الكبيرة والصغيرة ([51])، واصر في كثير من الأحيان حكمه بصدها؛ فمن تحريم اعتماد التقويم غير الهجري إلى حكمه باعتبار السلم والصلح مع النظام والقبول بحكومة وطنية (كما كان يعلن الشاه) خيانة عظمى، وأخيراً، كانت الفتوى تتخطى حدود أو قلب الصراع الداخلي مع فرعون الأمة إلى الثغور الإسلامية، وكانت الحرب المفروضة التي أكد فيها الإمام أن خوضها ليس إلا تكليفاً شرعياً وإلهياً، ولا مجال، بالتالي، لرد الحكم باجتهادات سياسية... وكان هذا الرد من الإمام(قده) بمثابة الصفعة لكل الذين يدعون إلى السلام في ظل العدوان، حتى القرار التاريخي، أو السم الذي تجرعه القائد الإمام - كما أشار هو نفسه - فقد كان أيضاً، تكليفاً شرعياً. وهذا لا يعني أنه لا يتصل بالأسباب التي تجعل من الحكم حكماً نابعاً من الظرف، ولكننا نعني بذلك، ان ميزان النصر والغلبة كما تفهمه العامة لا قيمة له إذا كان الشرع الإلهي يخالفه. فعندما يكون اخماد الحرب واجباً شرعياً فالالتزام به يتقدم على كل تقويم للريح أو الخسران.. وفي كل الظروف فإن في تطبيق الشرع

الإلهي الفوز الأعظم. ولا مجال هنا لشرح ذلك، ولكن نقول ان الشريعة السمحاء هي الغاية والوسيلة ولا يمكن اللجوء إلى نهج آخر من أجل تطبيق شرع الله. فالغاية لا تبرر الوسيلة في الإسلام، ولذا فإن الموازين والمقاييس التشريعية في خطاب الحكم والفتوى الصادرة عن العالم والحاكم الرباني تختلف عن تلك التي نعرفها في التشريعات الأخرى، فالتكليف هنا ملزم للأمة بالطاعة حتى في الشدائد والخطوب وهذا ما حدث، وما حدث به الإمام في الخطاب التاريخي اثر الإعلان عن نهاية الحرب:

"هل نسينا اننا حاربنا أداءً للتكليف، وكانت النتيجة فرع ذلك.. لكننا مأمورون بأداء تكليفنا وواجبنا ولسنا مأمورين بالنتيجة.. لو أن كل الأنبياء والمعصومين عليهم السلام كانوا مكلفين في زمانهم ومكانهم بالنتيجة لما كان ينبغي أبداً أن يتحدثوا عن أهداف تفوق استطاعتهم ولا أن يطرخوا أبداً لذكر الأهداف العامة طويلة الأمد التي لم تتحقق أبداً في حياتهم الظاهرية، في حين أن شعبنا تمكن بلطف الله الكبير أن يحقق إنجازات أكثر في المجالات التي رفع شعاراتها"([52]).

وفي خطاب التكليف هذا نجد أن تقويم النتائج لا يرتبط بالعرف الذي يشير إلى نصر أو غلبة، بل ان الالتزام بالتكليف بمعزل عن النتيجة يصبح الغاية والسبب، وفي خطاب الإمام تحريض أيضاً ومقارنة بين تكليف الأنبياء والمعصومين في زمانهم ومكانهم وبين تكليف الأمة - بالجهاد والحرب - فكانت هذه الأخيرة - وكما يقول - تحقق بلطف الله إنجازات اعظم في المجالات التي رفعت شعاراتها.

ومن جهة أخرى فان هذا الخطاب يتسم بسمة المرجعية الأُممية العالمية ([53]). ويصبح الإمام القائد ملاذاً لكل المستضعفين وصوتاً يصرخ بلسانهم في وجوه المستكبرين وهذا ما يميز المرجعية الأُممية عن المرجعية الإقليمية.

فالأولى توحيد الأمة الإسلامية الكبرى في كل الأقاليم أمام التحدي الاستكباري، ولا يمكن لمرجع أو فقيه أن يخرق هذا الإجماع أو التوحيد، حتى وإن كانت مقدمات الحكم مخالفة له (هذا إن لم يكن السكوت مضراً بصالح الأمة جمعاء، ولذا فلا بد عند رد حكمه أن يكون مخالفاً للمقدمات والسكوت عنه يصاحب الضرر بالأمة) لقد وحدت فتوى ارتداد المدعو صاحب كتاب "آيات شيطانية" الأمة الإسلامية بأسرها على اختلاف مذاهبها، بل ان الفتوى دفعت الكثير من الأنظمة العلمانية "الإسلامية" والمؤسسات الفكرية والدينية والمنظمات إلى رفض ما جاء في تلك "الآيات الشيطانية"، وما من عالم دين أو مرجع رباني إلا وندد في معرض الحكم على الكتاب.

ومن جهة أخرى فان الفتوى بإهدار دمه أدخلت الرعب ليس في قلب الكثير من أبواق الدعاية والإعلام الاستكباري الغربي، بل وحتى في قلب هذه الأنظمة التي وجدت في هذا السلاح خطراً عظيماً يتهدها حتى في عقر دارها، (بعد أن كانت إيران مهد الفتوى ومستقرها) إذ ان الفتوى خرجت من التقليد والتقية والعرف.. الذي وأدها في قمقم "العبادات"، لتصبح خطاباً سياسياً يحرض الأمة باسم الشريعة السمحاء، فالإمام لم يكن يرمي صاحب "آيات شيطانية" فحسب، بل كان يؤكد أن هذا المرتد لم يكن إلا قلماً في قبضة الاستكبار الذي جعل من دماء الشعوب ومقدساتهم مداداً تعربد به كلماته وأبواقه الدعائية. وهكذا كان الإمام(قده) يقطع دابر الليبراليين ويحدد نهجاً ثابتاً للسياسة الخارجية لدولة إمام العصر(عج).

وتغتذي الفتوى من النهج السياسي للاستكبار الغربي والشرقي خاصة حين توحدا ضد الثورة وضد حكم الإمام، وذلك في محاولة لثني القائد الحاكم عن القرار الشرعي ولكنهم لم يفلحوا وأصيبوا بالخيبة العظيمة([54]). وهكذا يصبح خطاب الفقيه العادل في هذا القرن وفي أواخره من أخطر الخطب التحريضية التي تحرك الأمة بأسرها ضد الاستكبار. ومع ظهور الصحوة الإسلامية في شتى أقطار عالما برزت في هذا الخطاب قوة عظمى قد تطيح بالكثير من الأنظمة والعروش، ولهذا يحاول الحكام تحديد مرجعية دينية وقيادة سياسية - دينية أخرى تتحدى تلك، وهكذا برزت مراجع "قيادية" ودينية في أكثر من إقليم.

(كما ظهر من قبل مدّعي نصره الولاية من "الولائيين" و"الحجّيين" وغيرهم من المقدسين المزيفين الذين اصدروا الفتاوى بتحريم الجهاد وأعلنوا عن شرعية النظام الملكي)([55]).

خطاب المجدد

وقد تخطى خطاب الإمام حدود الفتوى فأصبح خطاب المجدد الأعظم في هذا القرن، فأحیی(قده) شعيرة الحج واعتبرها مناسبة يظهر فيها المسلمون كقوة ثالثة في العالم([56]) وطالب الحجيج بإعلان البراءة من المشركين والكافرين من الشرق والغرب وعلى رأسهم أمريكا([57]). هذا الإعلان بالبراءة من المستكبرين اعتبره الإمام من أصول التوحيد، ومن الواجبات الأساسية للحج: "يجب إقامته في أيام الحج بشكل تظاهرات ومسيرات أفضل وأكثر عظمة وإجلالاً"([58]).

وهكذا يمزج الإمام الخطاب السياسي بالخطاب الديني فيحاول إحياء الشعائر الإسلامية، وخاصة شعيرة الحج - التي تضم أضخم تجمع إسلامي عبادي كل عام - بعد أن جردها المستكبرون من جوهرها التغييري السياسي والاجتماعي.

هذا الواجب الشرعي والتكليف هو ركن من أركان التوحيد - كما يقول الإمام - على المسلمين من الحجاج الإيرانيين وغير الإيرانيين المحترمين القيام به.. هذا التجديد لمفهوم فريضة الحج المباركة زلزل أركان الحكام وأرعد المستكبرين وأمريكا منهم خاصة. فهذا خطاب ديني وعقائدي - توحيدي - وخطاب مرجعي من مرجع تقليد وخطاب نائب الإمام(عج)، الذي يعتبر حكمه نافذاً، وأمره مطاعاً حتى عند غير مقلديه. ولذا فإن الذعر الذي أصاب القوم ما لبث أن تجلى في تلك المجزرة الرهيبة التي نُحر فيها ضيوف الرحمن كالنعايج.

ولا نعرف خطاباً أممياً عالمياً ذا تأثير مرجعي كالخطاب الديني، أما الخطاب الشيعي "الأممي" فإنه يبقى بعيداً عن ذلك الأثر الأعظم الذي يتميز به الخطاب العقائدي الإلهي، والذي يجعل الأمة تتصاع لإمامها انصياعاً تاماً بتأثير من الشخصية القدسية للقائد. وما يسمى بـ"الكاريزم" (ونتيجة الإيمان أو التقوى التي تفرض الطاعة للإمام الحاكم، ولذا فإن حكمه تكليف وأمر رباني مضبوط بالنص الإلهي ولا يخرج عنه، في حين أن الخطاب العلماني يفقر إلى هذه الصفة الإلزامية التي تجعل من الحكم الشرعي تكليفاً يجب العمل به).

خطاب الشخصية الريادية (كاريزم)

إن القيادة "الكاريزماتيك" هي تلك القيادة التي تتصاع لها الأمة وتهتم بها وتخضع لأوامرها وكان كلماتها وحي وما تقوله مقدس... وقد قيل إن عبد الناصر كان يمثل من قبل هذه القيادة "الكاريزماتيك" [59] وقيل أن "ماوتسي تونغ" الزعيم الأحمر كان أيضاً مثلاً آخر، فكتابه "المقدس" الكتاب الأحمر كانت كلماته بمثابة الآيات المنزلّة عند الأمة.

ولكن هذا الكتاب وتلك الزعامة ما لبثا أن عرفا مع التاريخ اهتزازاً ثم اندثاراً ولم يعرفا خلوداً [60] أو حتى انتشاراً فزالا. أما قيادة الإمام الراحل(قده) فإنها كانت أكثر من قيادة "كاريزماتيك" تجمعت شيعتها في أكبر تجمع تاريخي لم يعرف له التاريخ من مثيل، إذ انها - وإن غابت - أحييت في قلب الأمة والعالم بأسره ديناً وقوة ثالثة: "لا شرقية ولا غربية"، لم تقم لها قائمة منذ زوال دولة الإمام علي بن أبي طالب. وعظمة الإمام كونه كان مجسداً لهذا النهج الذي بدأ به الأنبياء من قبل وختم به الرسول ومن بعده الإمام أمير المؤمنين(ع) في حين أن القيادات الأخرى لم تكن تستمد هالتها وعظمتها من ذلك الامتداد، ولذا فإنها لم تعرف ولن تعرف الخلود، إذ لم يعرف التاريخ خلوداً واستمراراً لمعتقدات ومذاهب غير المعتقدات الإلهية (فقد تجد امماً دون حضارة، ولكنك لن تجد أمة بدون دين) كما يقول جرجي زيدان.

وهكذا فإن تلك العظمة والقداسة التي تحيط بالإمام العالم الرباني لا تضاهيها أي عظمة أخرى (ولذا كان الإمام في كثير من خطبه يؤكد دور العلماء في إحياء الثورة والحفاظ على دولة الإسلام، بل إن الإمام يعتبر العلماء هم القادة ولهم أكبر الأثر في تحريض الأمة) [61].

والشخصيات الريادية (من الكاريزم) تسعى إلى تأكيد نهجها الضامن لقيام المجتمع الأمثل: "يمكن تعريف الريادة بأنها علامة سلطوية شديدة التباين بين قائد ملهم وزمرة من التابعين ترى فيه وفي رسالته وعداً وتحققاً مسبقاً لنظام جدير ينتمون إليه بقناعة قوية إلى حد ما" [62]، هذه الرسالة في القادة الرياديين وهذه "المهمة الرسولية" لا يمكن أن تقارن برسالات السماء التي يحملها القادة الإلهيون، فالزعيم "لا يسعى وراء شرعيته في الرأي المناسب الذي يكونه الآخرون عنه، وإنما في المهمة التي يتقلدها هو نفسه. إنه ذاتي المصدر يشكل من الأشكال. وهو إلى حد ما ليس له سابق وليس له لاحق" [63].

في حين أن القيادة الربانية ذات شروط ولا يمكن أن تستمد شرعيتها من ذاتها.. روي عن عمر بن حفظة عن الإمام جعفر الصادق(ع) أنه قال:

"انظروا إلى رجل منكم قد روى حديثنا وعرف أحكامنا ونظر في حلالنا وحرامنا فارضوا به حكماً فأني قد جعلته عليكم حاكماً".

إذ لا بدّ من العلم والتقوى حتى يكون القائد حاكماً يتولى أمور الأمة، وبالتالي فإن مرتبة القيادة تنزع وتسلب من الحاكم إذا جار أو خالف النص التشريعي الإلهي، وهذا ما يجعل من القيادة الإسلامية قيادة نزيهة عادلة وعالمة [64] تخضع لها الأمة طالما هي تجسد الشرع الرباني ولا تتصاع انصياعاً أعمى كما هي الحال في القيادات الريادية، وهذا التمييز بين القيادة الربانية والدينيّة يجعل من القيادة الإسلامية قيادة إلهية. فبالرغم من الالتزام بالنص وعدم الخضوع الكامل للقائد في حال الانحراف أو الاعوجاج فإن الأمة تجد في شخص إمامها العادل العالم ظل النبي(ص). ألم يؤكد الرسول(ص): أن العلماء ورثة الأنبياء.

ولهذا فإن الأمة التي انساقَت خلف زعيم ريادي لا ديني تجد نفسها تائهة بعد غيابه ومهددة: "بما أنها متشكلة حول زعيم زائل" وموت "الأب المؤسس" يعني دوماً بالنسبة "للجماعة الانفصالية" أما ابتذال الريادة التي استمدت منها اصلها، وإما أزمة قوة إلى حد ما" [65].

وإذا كانت السلطة الريادية سلطة شخصية تطرح تساؤلات حول مصداقية "وصدق تعلق الزعيم الرائد واتباعه بالحركة التي يقولون انهم يعتقونها" [66] فإن هذه الشكوك - التي كانت تشير دائماً إلى أسلوب التضليل الذي يلجأ إليه الزعماء من الرياديين - تزول كلها إذا سلطت الأضواء على القيادة الإسلامية، إذ يلاحظ أن الإمام يفني عمره في سبيل أن تبقى كلمة الله هي العليا والأمة من خلفه تقتدي به وتحذو حذوه. وسيرة الأئمة والعلماء والمراجع العظام من بعدهم وآخرهم إمام الأمة (قده) خير مثال.

هذا الاخلاص والصدق للرسالة كان يتجسد في خطاب الأولياء وسيرتهم الذاتية. والإمام (قده) يعكس صورة هذا الصدق والوفاء للمثل الأعلى الرباني. وفي الوقت نفسه كان خطابه خطاباً قرانياً يجيش بالرحمة والحب والتفاني للأمة العظيمة أمة الإسلام في دولة إمام العصر (عج). هذا الخطاب الإنساني الرحيم الودود المنفعل والمتواصل مع الأمة في البأساء والضراء كان خطاب الأنبياء خطاب القرآن بآيات الرحمة والهداية.

وهذا كان لا بد له من إضفاء القوة والسحر والأثر الأعظم على كلمات الإمام وخطابه، إذ فيه تجد الأمة العزاء والسلوان في الخطوب والشدائد، وفيه وفي كلماته، تجد الأمة عزّها ورفعته عند النصر والغلبة، ألم تكن تلك الكلمات التي فاضت منها روح الأسي واللوعة في خطاب نهاية الحرب التاريخي للإمام علقماً يتجرعه وتستسيغه الأمة من بعده. لقد بكى الإيرانيون وبكاؤهم ليس حزناً لنهاية الحرب بل تأثراً بحزن الإمام ومرارته.

وفي خطبة "المسجد الأعظم" التاريخية [67] تجد في كلماته الحزن العظيم والأسى واللوعة التي تذكر بالمصائب الحسيني... (وتقطع خطبة الإمام أكثر من مرة لتعلو الصيحات بالبكاء والتكبير) وفي هذا يظهر الأثر الأعظم لكلماته الجياشة بالعاطفة المثقلة بفاجعة (15 خرداد) التاريخية.

يقول سماحته: "انني إلى الآن لم أبدأ عجزاً في كلماتي، ولكنني اليوم أعلن عجزاً عن إبداء ما في قلبي من ألم وحزن.. ويشهد الله أن مجزرة 15 خرداد أحرقت كبدي".

هذا هو سر القوى الروحية في خطاب الإمام.

فكان منها المثل الأعلى المطلق اعظم أسرار القوة في الخطاب الثوري وعنه انبثقت تلك الطاقة الروحية العظمى والتي كان لها الأثر الأعظم في تحريض الأمة على القيام. كذلك فإن النص والتشريع الإلهيين يكشفان أيضاً عن سر آخر من أسرار هذه القوة في الخطاب المرجعي وخطاب الحاكم نائب الإمام.

ويبقى للشخصية القيادية (الريادية) الأثر الأخير في انصياح الأمة لإمامها بالرغم من كل المحن والخطوب. (وفي شخصية الإمام (قده) كان السر الأعظم).

وفي الختام نقول ان هذه النتيجة تؤكد على سر القوة المستمد من الغيب والذي يبدأ بمعرفة الله بالله وهذا ما يميز الخطاب العقيدي الديني عن الخطاب الآخر، وهذا ما يجعله أعظم قوة من أي خطاب الحادي أو غير إلهي.

[1] حتى عند فقدان الوعي فإني قد لا اذكر ذاتي بعد البيضة ولكن هذا لا يعني أنني كنت غافلاً عنها عند الغيوبة وان لم أدرك أنني كنت أذكر نفسي (انظر الميزان في تفسير القرآن مجلد 6، ص 179).

[2] فالسر الكامن في عاشوراء وخطابها التحريضي.. أشير إليه في العدد الخامس والخمسون من مجلة المنطلق.

[3] الإشارات الجزء الأول ص 121 عن تاريخ الفلسفة للدكتور أبلي صليباً.

[4] الميزان المجلد 6 (ص 180).

[5] الإمام الخميني (أسرار الصلاة).

[6] الميزان ج 6 (ص 172).

[7] المكان نفسه.

[8]) المكان نفسه.

[9]) "أسرار الصلاة" (م.س).

[10]) من النداء التاريخي للحجاج 1407هـ.

[11]) من خطابه في الذكرى السنوية لمجزرة مكة.

[12]) الميزان المجلد التاسع (ص122-124).

[13]) م.ن.

[14]) المكان نفسه.

[15]) يقول تعالى: [كلا لو تعلمون علم اليقين * لترون الجحيم * ثم لترونها عين اليقين] وهناك فرق بين اليقين وعلم اليقين وعين اليقين. انظر ميزان الحكمة ج10.

[16]) وقد جاء في البحار عن الديلمي هذا الحديث: "فمن عمل برضائي الزمه ثلاث خصال: اعرفه شكراً لا يخالطه الجهل، وذكرأ لا يخالطه النسيان، ومحبة لا يؤثر على محبتي المخلوقين، فإذا احبني احبته وافتح عين قلبه إلى جلالتي.. واسمعه كلامي وكلام ملائكتي. واعرفه السر الذي سترته عن خلقي. واجعل قلبه واعياً وبصيراً..". (من الميزان، المجلد السادس، ص176) ويتضح من هذا الكشف سر المعرفة الإلهية الاشرافية التي تؤدي إلى عين اليقين، وهذا ما لا يمكن تحصيله بالجهد الفكري والعلم التحصيلي.

[17]) يقول الإمام قده: "لم يسبق لي أن خفت أحداً.. إني لم أخف ولم ارتعد حتى في اليوم الذي هجموا عليّ في داري واعتقلوني. بل كنت أنا الذي أوصي المهاجمين بأن لا يخافوا! وكنت اسليهم واخفف عنهم لأن الخوف لهم وليس لي..".

[18]) نداء الامام للحجيج في 1407هـ.

[19]) عن ميزان الحكمة ج10 انظر "اليقين".

[20]) الصدر، محمد باقر "المدرسة القرآنية".

[21]) شيللر - أ - هربرت. "المتلاعبون بالعقول".

[22]) انظر خطبة الإمام التاريخية 2 محرم 1383هـ. التي أدت إلى انتفاضة (15 خرداد) فقد ظهر المثل الأعلى الأجنبي إلى جانب المثل الأعلى الإسلامي في خطاب الإمام، وكان هذا الجمع بين الضدين عامل إثارة وتهيج في لغة الخطاب الثوري. ويلاحظ أن الخطب الأولى للإمام(قده) هي خير مثال على ما ذهبنا إليه.

[23]) شيللر - أ - هربرت. "المتلاعبون بالعقول".

[24]) كذلك جعل اليهود من الأمة المثال الأعلى، هذه الأئمة التي تجسدت في المثل الأعلى وأصبحت صورته باتت تقديس هذه القومية اليهودية القائمة على أساس النص التوراتي "المقدس" والقاتل بأسطورة "شعب الله المختار" و "أبناء الله" و "روح الله".

[25]) السيد محمد باقر الصدر م.س ص 163.

[26]) الأنصاري سعد. "الفقهاء حكام على الملوك".

يقول الإمام واصفاً حالة البؤس في المناطق الجنوبية كما ينقلها مراسل "اطلاعات" لم اجد اثرأ لطبيب أو دواء في القرى التي مررت بها، كما لاحظت أهالي قرية بكاملها مكفوفين! ومجمل القول أن سكان تلك القرى والأرياف محرومون من أبسط مستلزمات الحياة" (عن "دروس في الجهاد والرفض" ص65).

للمزيد انظر خطبة الإمام التاريخية اثر إطلاق سراحه سنة 1383هـ (1963) وخطبته في جامعة النجف سنة 1398هـ (1971) وذلك بمناسبة مرور الفين وخمسمائة عام على تأسيس الملكية.

[27]) مجتمع المساواة التامة بين الأفراد هو المجتمع الأمثل، المجتمع الأسطورة الذي ستزول فيه كل الدرجات التي تميز البشر فتتفرع بعضهم فوق بعض في هذا المجتمع الشيوعي، سيعم الرخاء ويختفي الاضطهاد والاستغلال وكل الفوارق بين الطبقات.. ليست هذه الصورة تماثل صورة الجنة؟

[28]) الميزان المجلد 16 ص6.

[29]) أي أن الله يغدق بالنعم على المستضعفين حتى يتقل عليهم بالعتاء والمن.

[30]) السيد الصدر، محمد باقر "السنن التاريخية في القرآن" (طبعة 1989).

[31]) وقد ظهر نموذج من المقارنة بين مجتمع المستضعفين والمستكبرين في الكثير من خطب الإمام قبل الثورة. وفي خطبته الأولى بالتحديد.

[32]) د. خوري. فؤاد. امامة الشهيد وامامة البطل عن منبر الحوار (العدد 11 السنة الثالثة).

[33]) مختارات من أقوال الإمام الخميني (قده) الجزء الرابع ص 39.

[34]) د. الغار. حامد عن "إيران 1900 - 1980" ص 176.

[35]) من خطاب الإمام بمناسبة مرور عام على مجزرة مكة وملابس الحرب المفروضة (في الخامس من ذي الحجة الحرام 1408هـ).

[36]) د. خوري فؤاد: "امامة الشهيد وامامة البطل" (م.س).

[37]) انظر الخطاب التاريخي للإمام - اثر الاعلان عن نهاية الحرب وحديثه عن الحجتين والولائيتين.

[38]) الدستور الإسلامي للجمهورية الإسلامية في إيران راجع المقدمة د. محمد سليم العوا: النظام السياسي للدولة الإسلامية ص 230. عن الفقهاء حكام على الملوك. ص 444.

[39]) أنصاري (م.س) (ص 111).

[40]) م.ن (116 - 117)

[41]) م.ن (ص115).

[42]) د. السيد. رضوان "الأمة والجماعة والسلطة" ص 10.

[43]) هذه القاعدة الأساسية للنص كما يقول السيد الذي ينقل عن الإمام مالك بن أنس ان الرسول (ص) قال: "تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما: كتاب الله وسنة نبيه". (عن المرجع السابق انظر المقدمة).

[44]) المكان نفسه.

والعجب كيف تكون الجماعة المؤسسة البديلة في تأويل النص الإلهي ولا تكون الإمامة هي البديل، فهي الأولى به تهدي إلى الحق {وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا} [الأنبياء: 73]. فجعل تعالى الهداية بأمر إلهي بواسطة الإمامة، وهذا يعني التواصل مع النص الإلهي. ويقول تعالى: {أفمن يهدي إلى الحق أحق أن يتبع أمن لا يهدي إلا أن يهدى} [يونس: 35] للمزيد راجع الميزان الجزء الأول (ص272 - 273).

[45]) المكان نفسه.

[46]) م.ن (ص274).

[47]) م.ن (ص 273).

[48]) فضل الله، العلامة السيد محمد حسين "علامات استفهام أمام وحدة القيادة الإسلامية وتعددتها" المنطلق (العدد الثالث والخمسون).

[49] من خطاب، الإمام الدروس ص 240.

[50] م.ن.

[51] وقد كان لهذا الخطاب الأثر المهم في تحديد مسار الثورة ونزع الشرعية عن النظام، وقد تصدى الإمام (قده) بالحكم الشرعي للطاغوت وكل جرأة وشجاعة.. يقول في خطبة المسجد الأعظم في قم في السنة الرابعة بعد الستين "إذا وجدت مصلحة الإسلام (تقتضي أن اصدر حكماً فسوف أجد في انجازه بكل طاقاتي.. بل أقف في وجه الظلم دون وجل، واني لا أخاف أحداً سوى الله".

[52] الخطاب التاريخي للإمام في 22 شباط 1989 اثر الاعلان عن نهاية الحرب.

[53] المقصود بالمرجعية الأممية أي القيادة المركزية الموحدة.

[54] وكانت الدروس الأوروبية الغربية قد استدعت عدداً من دبلوماسييهها ولم تلبث أن تراجعت عن قرارها هذا واعادت الدبلوماسيين إلا بريطانيا التي أعلنت الجمهورية الإسلامية عن قطع علاقاتها معها بعد انذارها بالتراجع عن مواقفها المعادية للإسلام والمسلمين.

[55] يقول الإمام عن هؤلاء الذي يحرمون الجهاد ويسخرون بمفاهيم الشهادة "صرخة تحريم الجهاد ضد الأعداء والهزء بمفاهيم الشهادة والشهداء وثقافتهم (..) والكنايات حول شريعة النظام، كل ذلك من يقول به؟ العوام أم الخواص من أي فريق.. من هم في ظاههم معممون أم من غيرهم.." (الخطاب التاريخي بعد الاعلان عن نهاية الحرب المفروضة في شباط 1989).

[56] خطاب الإمام بمناسبة مرور عام على مجزرة مكة.

[57] خطاب الإمام للحجيج (قبل المجزرة) سنة 1407هـ.

[58] م. ن.

[59] La Cmmunication.

[60] انظر "لغة الشهادة" في خطاب الإمام الخميني (المنطلق العدد الخامس والخمسون).

[61] اثر وفاة ماو اهتزت تلك الصورة المثالية للزعيم الصيني ولم تتوان القيادة الجديدة عن وصف افكاره بالتطرف! وكذلك تصدعت صورة الزعيم الماركسي لينين وصور كل من "فرانكو" و"هيرهيتو" و"هتلر".

[62] ر. بودون وق. بوريكو "المعجم النقدي لعلم الاجتماع" (الترجمة العربية) انظر الريادة.

[63] م.ن.

[64] انظر صفات الحاكم العادل في معالم الحكومة الإسلامية. جعفر سبحاني.

[65] م. ن.

[66] م. ن.

[67] اثر اطلاق سراحه من الاعتقال في 15 نيسان 1964 انظر الدروس (ص 69).

إن الموضوع الذي أحاول تلمسه هو نهج الإمام (رض) في تربية الأمة. وبما أن لهذا البحث أصولاً وفروعاً، وتشعبات قد لا تسعها مجلدات، لدارسين في شتى الاختصاصات، للكشف عن هذا الأمر، سنقصر البحث لمعالجة عنوان واحد، يُعد الأبرز ما بين السبل، التي انتهجها الإمام (قده) للركي بالأمة والخروج بها من الظلمات إلى النور، وهو تزكية النفس.

لقد كان حفظ الإسلام، همّاً يسيطر على حياة الإمام (قده)، وقد قدّم في سبيل هذا الهدف عمره الشريف، الذي أمضاه ما بين اضطهاد، وتعذيب، وسجن، ونفي من بلد إلى آخر، وحرب، وأذى في الأمة والنفس والأبناء الجسمانيين منهم والروحانيين، ولسان حاله يقول ما قاله سيد الشهداء أبو عبد الله الحسين (ع): "هون ما نزل بي أنه بعين الله". والإمام (قده) أكد في وصيته هذا الأمر بصريح العبارة "فحفظ الإسلام هو أهم جميع الواجبات، ولأجله جاهد وضحي غاية التضحية الأنبياء العظام من آدم (ع) إلى خاتم الأنبياء صلى الله عليه وآله وسلم لم يصددهم عن أداء هذه الفريضة الكبرى أي مانع، وتابع الأنبياء على ذلك الصحابة المؤمنون وأئمة الإسلام عليهم صلوات الله أجمعين سعوا بكامل الجهد، حتى التضحية بالنفس من أجل القيام بهذا الواجب"([1]).

لقد أيقن الإمام (قده)، أن الإسلام دين التهذيب، والقرآن كتاب تربية الإنسان، واتباع تعاليمه والتخلق بأخلاقه يعني الوصول بالإنسان إلى منتهى كماله، وإن الأنبياء الكرام (ع) إنما جاؤوا ليهدوا الناس إلى الطريق الذي يصل إلى ذلك الكمال، وليتمموا مكارم الأخلاق، وليزكوا النفس. وقد ورد في محكم الكتاب المبين: {هو الذي بعث في الأميين رسلاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم}([2]). وجاء في الحديث الشريف: "إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق". كما وأيقن الإمام (طبيب الله ثراه) أن تربية النفوس وتزكيتها أهم طريق لحفظ الإسلام، إذ إن التزكية تعني تحول الإنسان إلى قرآن مشخص، وبها يحفظ الإسلام، ليس في الكتب والمقالات، بل في النفوس والقلوب، ولولا هذا الأمر لما عدّ الشارع هدف الأنبياء.

لقد انكشف هذا السر للإمام (رض) فقال: "من أهم وأسمى العلوم التي يجب تعميم تدريسها ودراستها هي العلوم المعنوية الإسلامية، كعلم الأخلاق وتهذيب النفس والسير والسلوك إلى الله"([3]). ولما تكشف لسماعته الأمر جعله قبلة يمم الوجه شطرها، فخرج إلى أعلى مراتب العرفان، كما وجه الأمة نحوها. وقد جاء في الكتاب الكريم: {إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم}([4]). فتغيير ما بالنفس وتهذيبها شرط لازم لتغيير حال الأمة ورفيها. لذا نجد أنه ما من نداء أو خطاب وجهه الإمام للأمة إلا وفيه كلام أو إشارة إلى التزكية وضرورة التربية وتعلم علم الأخلاق. فهذا الإمام (قده) يقول: "التقوى.. التقوى.. تزكية النفس.. الجهاد مع النفس.. زكوا أنفسكم جميعاً تعلموا من التعاليم العالية للإسلام... الإسلام يصنع الإنسان، والأجانب والقوى العظمى يخشون الإنسان، ويقاومون الإسلام لأنه مدرسة لتربية الإنسان"([5]).

الإمام (رض) بمجاهداته الروحية، ورياضاته النفسية، وإخلاصه، وصفائه، وعبوديته لله سبحانه وتعالى، أصبح "قطباً" ومعلماً، والأمة التي وثقت به تحولت إلى "مريد"، أسلمت له القيادة لتسلك بفضل تعاليمه وإرشاداته الطريق المستقيم.

وكثيراً ما كان الإمام يردد أن من يجعل الإسلام هدفاً لحياته، ينبغي له أن يقاوم الانحرافات والأخلاق السيئة والذميمة، وإبدالها بأخلاق حسنة وتحويل الانحرافات إلى استقامة، ولكن ما هي نقطة البدء والانطلاق؟ ما هي الجهة التي يجب التوجه إليها أولاً؟

يجيب الإمام (قده) على السؤال المطروح بقوله: "على الإنسان أن يبدأ من نفسه فيلاحظ انحرافات الشخصيّة، لاشك أن كل إنسان يرى في نفسه عيوباً، وقليل من لا يرى عيب نفسه، وهذا أحد العيوب، على الإنسان أن يتربى وأن تكون تربيته بتزكية نفسه، على الإنسان أن يبدأ من نفسه ثم من عائلته. فابدأوا من عوائلكم لتصلوا إلى الذين في الخارج"([6]).

إذن نقطة البدء، والجهة الأولى التي يجب أن نتجه لتهذيبها وتزكيتها - كما قال مربي العصر - هي الذات. إن إصلاح الذات مقدمة ضرورية لإصلاح ما في الخارج. والإمام (قده) تابع حركة المنهج هذه في توجهه إلى موضوعات التربية، فبدأ بشخصه الكريم ونفسه فهذبها وأحسن تهذيبها وتزكيتها، ورأى أن من يريد أن يتصدى لأمر فلا بد أن تكون أقواله وأفعاله وتقاريراته موافقة لما يدعو إليه وإلا فقد مصداقيته كما أوضح (قده): "فعندما أدعوكم أنا إلى ترك عمل ما، أو القيام بعمل ما، لا يكون لهذا العمل أي تأثير إذا كنت أنا فاسداً"([7])، ثم انه يستحيل على إنسان غير مربي أن يتصدى لتربية الآخرين وتزكيتهم، إذ إن فاقد الشيء لا يعطيه.

إذن فموضوع التربية الأول هو الذات، كما مر، يليه تربية العائلة، وقد استشهد الإمام على ضرورة هذا النهج في توجهه بقوله: "عندما بعث بالرسالة (النبي صلى الله عليه وآله وسلم) بدأ التغيير من بيته، فدعا السيدة خديجة، وهي قبلت بذلك، والإمام علي (ع) والذي كان طفلاً، يومذاك، قبل الدعوة أيضاً، ثم جمع الرسول أقرباءه ودعاهم للرسالة" [8]] حسب الأمر الإلهي.

والإمام تابع الأمر الإلهي الموجه، إلى جده رسول الله (ص) وتوجه إلى عائلته مربيّاً ومهذباً، فسقاهم حب الإسلام، وبذر فيهم بذور الأخلاق الإسلامية، لذا نرى أنهم نساءً ورجالاً قدموا الأنفس والأموال وعانوا النفي والتعذيب من أجل الإسلام والأمة. ثم إن الإمام، وحتى آخر أيام حياته، كان يؤكد ويشدد النصح لعائلته للتمسك بالأخلاق الإسلامية العالية. وبهذا الخصوص ذكرت السيدة مصطفوي، ابنة الإمام، للوفود النسائية التي شاركت في أربعين الإمام، أعلى الله مقامه، أن الإمام جمع عائلته قبل يومين من وفاته وقال لهم: "إن الحياة طريق صعب، فأرجو ألا تقعوا بمعصية. أوصيكم بعدم الاستغابة، وعدم السخرية، ولا تحنقوا أحداً. لا تحزنوا من بعدي واصبروا على ذلك". ثم إنني سمعت زوجة الإمام (قده) عندما زرنا بيت الإمام في الذكرى العاشرة لانتصار الثورة الإسلامية في إيران تقول: "إن الإمام يوصينا دائماً بالمحافظة على الصلاة"، حينها تعجبت للأمر، وقلت إن محافظة أهل بيت الإمام على الصلاة أمر مؤكد، فلماذا هذه النصيحة؟ لعل في الأمر خطأ في الترجمة، إلا أنني أدركت فيما بعد أن وصية الإمام هي هذه وليس من خطأ في الترجمة، فالصلاة كما يراها الإمام معراج المؤمن، والصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر. وانطلاقاً من هذه الأهمية للصلاة ودورها في حركة الإنسان باتجاه خالقه وتربيته أوصى بها الإمام (رض). إذن مما مر سابقاً نلاحظ أن الوصية الأخيرة التي أوصى بها الإمام عائلته هي وصية أخلاقية، الأمر الذي يؤكد ما ذهبنإ إليه من أن تربية النفس هي الطريق الأقوم لحفظ الإسلام.

أما الجهة أو الموضوع الثالث للتربية والتزكية الذي توجه إليه الإمام (رض) كان الأمة الإسلامية بشكل عام والشعب الإيراني بشكل خاص. وركز على ضرورة تربية وتزكية نفوس أولئك الذين يتولون قيادة الأمة لأن خطر انحرافهم أشد وأعظم من خطر انحراف الأشخاص العاديين، وصلاح هؤلاء وتربيتهم تعم بركتها الجميع.

بعدما عرفنا التدرج في الجهاد المتوجه إليها في عملية التربية، يطالعنا السؤال التالي: ما هي الخطوات العملية التي اتبعها الإمام (رض) في مسيرة التهذيب هذه بحيث استطاع أن ينقل أمة بمعظمها منتشرة في كل بقاع الأرض، من ظلام الجاهلية، إلى نور الإسلام، ومن حضيض المادة إلى قدس الروح والمعنى؟

طبعاً، لا يمكن للإنسان أن يصل إلى أي هدف في حياته بشكل عشوائي ودون برمجة وتخطيط، وليس للسائر في ظلمة الليل أن يهتدي إلى طريقه دون ضوء ولا يتعثر، كما ويستحيل على الإنسان أن يصبح طبيباً دون أن يتعلم فن الطب ويتمرس به. إن كل علم بحاجة إلى معلم من أخس العلوم إلى أشرفها، فكيف بعلم أرسلت الرسل من أجله، أي علم الأخلاق. قال الإمام (قده): "إن كل علم في الدنيا وصنعتة لابدّ لهما من أستاذ وممارسة... وإن الإنسان الذي يسير على غير هدى ودون تخطيط لا يمكن أن يصبح متخصصاً في أي مجال... كيف نؤمن بهذا ونؤمن في نفس الوقت بأن علم الأخلاق الذي هو هدف إرسال الأنبياء، والذي هو من أدق العلوم ليس بحاجة إلى التعلم والتعليم"([9]).

وبناءً على ما تقدم رأى الإمام (قده) أنه لا بدّ من وضع مناهج لدراسة هذا العلم وإقامة جلسات الوعظ والإرشاد وتدريس علم الأخلاق، بحيث تشمل هذه الدروس كل فئات الشعب ويتحول المجتمع والأمة بل والعالم إلى جماعتين: جماعة الأستاذة والمعلمين وجماعة الطلبة والمتعلمين، ومن أجل إتمام هذا الغرض دعا العلماء، وطلبة العلوم الدينية، ومدرسي التربية الإسلامية والمعلمين وكل من له علاقة بالتربية والتعليم لتزكية نفوسهم كمقدمة لتزكية وتربية الآخرين. كما ودعا الإمام(رض) كل من يريد تربية نفسه وتزكيته لوضع برنامج لهذه الغاية، ومتابعة دروس الأخلاق، الشفوية منها والمكتوبة، كما وأكد على ضرورة الاستفادة من سير الأنبياء العظام، والأئمة الأطهار(ع)، والعلماء العاملين الأتقياء، فإن نهجهم وسيرتهم بحد ذاتهما مدرسة متكاملة في الأخلاق وجهاد النفس والخلوص في العبودية لله.

وبعد ان وضع الإمام(قده) الخطوط العامة لحركة دراسة علم الأخلاق، شرع بالتصدي لعملية التعليم، متخذاً لذلك أساليب متعددة. فسير الإمام مثلاً وسيلة تربوية قائمة بحد ذاتها، إلا أن البحث لا يتسع للكلام عنها. وسوف نتناول في هذه الدراسة اسلوباً واحداً من أساليب الإمام التعليمية هو أسلوب الوعظ والإرشاد. وذلك من خلال الخطب التي كان يتوجه بها إلى الأمة في المناسبات المختلفة وبعض المحاضرات التي القاها على طلاب الحوزة العلمية في منفاه في النجف الأشرف. فكيف خاطب الإمام الأمة؟ وماذا علمها؟

سبقت الإشارة إلى أن الإمام(قده) شدد على ضرورة تعلم علم الأخلاق وتهذيب النفس، إلا أن درسه الأول كان تحذيراً للمتعلمين والخاضعين لعملية التربية والتزكية من إبقاء هذه المعلومات في الذهن وتحويلها خزيناً للأدغة، إذ لابد أن تكون القلوب أوعية العلم، أي لابد أن يتحول هذا العلم والخزين إلى سلوك وعمل وممارسة تظهر في حياة الفرد اليومية، لأن العلم بدون عمل هلاك للإنسان، بل قد يتحول العلم حجاباً بين الفرد وربه، وحائلاً دون الوصول إلى طريق الهداية، وذلك عندما يصيبه الغرور والعجب بما يملكه من علم، أو يستخدم هذا العلم في غير مرضاة الله سبحانه وتعالى. ثم انه ليس العلم وحده الذي قد يكون حجاباً بين الفرد وخالقه وسدّاً حاجزاً يحول بينه وبين الهداية وبلوغ مرتبة الإنسانية العالية، التي أرادها له الباري عزّ وجلّ، فقد يكون أي شيء يصل إليه الإنسان أو يحوزه مانعاً من تحقيق الهدف إلا من تهذب بالتهذب الإسلامي وتربى بتربية دين التوحيد. وبهذا الصدد يلفت الإمام(رض) إلى أنه "عندما يحصل الإنسان على شيء يحصل لديه الغرور ويرى نفسه عظيماً، والإسلام جاء ليسحق هذا الغرور، ومادام الإنسان أنانياً لا يتمكن من الوصول إلى طريق الهداية، ففي البداية يجب أن يسحق هذه الشهوات وهواه النفسي"[10] وتابع قائلاً أن الحروب "التي حدثت بين الأنبياء وغيرهم في الدنيا ليست سوى لأنهم كانوا يريدون الحد من جماع الناس وان يسحقوا هذه الأنانيات"[11].

الإمام من خلال تعاليمه للأمة شخص ما يمكن أن يلوّث النفس ويكدرها وبحرفها عن فطرتها الأصلية، وذكرها مراراً وتكراراً، كما وبين نتائجها الوخيمة على مستوى الفرد والأمة في الدنيا والآخرة، ومن هذه الكدورات ذكر الإمام(رض): الغرور، الكبر، العجب، النمية، الغيبة، حب الذات والدنيا، الانقياد للشهوات، وغيرها من الأمور. وقد عدّ الإمام(رض) هذه الأمور من الأمراض الروحية الخطيرة، التي تقضي على الإنسان وتحول الناس إلى وحوش كاسرة وبهائم، وتؤدي بالتالي إلى الخسران المبين. ففي حديثه للمربين يقول: "حذروهم (الطلاب) من الصفات الدنيئة التي توجب سقوط الإنسان في الهاوية، كحب الجاه والمال والمقام ومن كل العوائق التي تمنع التقدم البشري. وعلموهم أن الإنسان مادام منكباً على شهوات الطبيعة فإنه ليس إنساناً. وإن هؤلاء الذين همهم المكاسب الدنيوية والعيش الهنيء إنما هم كالبهيمة المربوطة همها علفها.. وأخرجوهم من عبودية غير الله إلى عبودية الله"[12].

إن هؤلاء الذين همهم الأمور الدنيوية الخسيسة والذين أعمالهم لا تنسجم مع الروح وإنما جميعها في خدمة الجسد وتأمين ملذاته، هم كما يقول الإمام(قده) مصداق قوله تعالى: [إن الإنسان لفي خسر][13]. أما المؤمنون الذين عملوا على تهذيب أنفسهم وتأديبها، وتكون

أعمالهم منسجمة مع الروح ومع ما أمر به المولى، وخالصة لوجهه، فهم المستثنون في الآية: [إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر][14].

لقد عدّ الإمام الذنوب أمراضاً روحية خطيرة، بل هي عنده من أخطر الأمراض التي يصاب بها الإنسان، والمشكلة مع هذه الأمراض أن المصاب بها لا يلتفت إليها ولا يسعى لمداواتها ومعالجتها، في الوقت الذي يستتفر عدداً كبيراً من الأطباء إذا ما توهم إصابته بمرض جسدي، على حد تعبير الإمام. ويرد هذا المعلم الجليل السبب في عدم المسارعة لعلاج أمراض الروح إلى عدم الشعور بالألم يصاحبها، تماماً كما الأمراض الخبيثة، إذا أنها عادة غير مصحوبة بالألم وصاحبها لا يشعر بها إلا بعد فوات الأوان. وكذلك الأمر بالنسبة لأمراض الروح فالإنسان لا يشعر بها إلا بعد انقضاء العمر، عندها يدرك مريض الروح معنى قوله تعالى:

[ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون يا ويلتنا مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحداً][15].

الإمام(قده) الذي امتلأ قلبه حباً لله، يذكّر الأمة بقاء الله ويحذرهما مغبة الأعمال السيئة والذنوب، بقوله: "أنتم إذا لم تصلحوا أنفسكم - لا سمح الله - وخرجتم من الدنيا بقلوب سوداء، وعيون وأذان وألسنة ملوثة بالذنوب، فكيف ستقابلون الله؟ هذه الأمانات الإلهية التي استودعكم الله إياها بمنتهى الطهارة والبراءة، كيف ستردون بها بمنتهى القذارة والردالة؟ هذه العين، وهذه الأذن اللتان هما في اختياركم، وهذه اليد، وهذا اللسان هما في سلطتكم، هذه الأعضاء والجوارح التي تعيشون بها.. كلها أمانات الله العزيز المتعال.. وقد أعطاكم إياها بتمام السلامة والطهارة. فإذا ابتليت بالمعاصي فانها تتلوث وتنقذر.. وأنداك عندما تريدون إعادة هذه الأمانة قد تُسألون: أهكذا تحفظ

الأمانة؟ هل سلمناكم هذه الأمانات هكذا؟ القلب، العين... وسائر الأعضاء والجوارح التي جعلناها في اختياركم، هل كانت هكذا قذرة وملوثة؟ بماذا ستجيئون على هذه الأسئلة؟ وكيف ستواجهون الله الذي خنتم أماناته بهذا الوجه من الخيانة"([16]).

ويذهب الإمام إلى أن البشر إن كانوا غافلين عن أمراض الروح، لأنها غير مصحوبة بالألم، بل غالباً ما تكون مصحوبة باللذة، فهل هم غافلون عن تحذيرات وتنبيهات الله سبحانه وتعالى والأنبياء والأئمة(ع) والعلماء الذين اقتصروا من الكلام عن هذه الذنوب وعن الهاوية التي تجر إليها؟

إن الله سبحانه وتعالى، لم يترك خلقه يتخبط في معرفة الطريق، وتمييز الحق من الباطل، بل أنار لهم الطريق فأنزل لهم الكتب السماوية بواسطة الأنبياء. إضافة إلى العديد من المنبهات والموقظات، إلا أن الإنسان هذا الجاهل الظالم، صاحب النفس الفرعونية، ما رأى إلا نفسه فأخذ إلى الأرض واتبع هواه، وغرته الدنيا بغرورها فانغمس بملذاتها الفانية البائدة، وأعرض عن ربه ونسي لقاءه واليوم الآخر، معزياً النفس بما يلوكة لسانه من ألفاظ التوبة، غير أن: "التوبة لا تتحقق بلفظ أتوب إلى الله، بل أنها تتوقف على الندم والعزم على ترك الذنب"([17]).

لا يمكن للنفس - برأي الإمام - أن تتزكى وتقبل نور الهداية مادام الإنسان غارقاً في عبوديته لذاته والزعامة والمال والجاه... الخ، لا يمكن أن يصبح الفرد إنساناً ما لم يخرج من هذه العبوديات إلى عبودية الله ويكون حبه ظل محبة الله وبغضه في الله. وإلا أدى به غرقه في غير الله وحبه وعبوديته له إلى أسفل سافلين. ويشرح الإمام(رض) الأمر بقوله: "إذا لم يهذب (الإنسان) نفسه وإذا لم يعرض عن الدنيا ويخرجها من قلبه... فيخشى أن يترك الدنيا وقلبه مملوء بالحق على الله وعلى أوليائه"([18]).

جاء في الحديث ان الإنسان يولد على الفطرة، والصراف المستقيم، والتوحيد، والإسلام، والإمام يشترط نمو هذه الفطرة وتفتحها بالتهذيب وإلا ستكون عرضة للفساد. فقلب الإنسان - يشبهه الإمام - بالمرأة، وهو صاف ومضيء ولكنه يتكدر ويتغيش نتيجة التكالب على الدنيا وكثرة المعاصي. والمشكلة ان الإنسان يستصغر المعاصي ولا يلتفت إلى من يعصي: "لا تستصغروا هذه الذنوب البسيطة فان عاقبتها خطيرة، لأن الإنسان الذي يمارس الذنوب تكون عاقبته عند الموت أن يكذب بالله وينكر آياته، قال تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ أُسَاوُوا السَّوْءَ أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ﴾ وهذه النتيجة السيئة لا تحصل دفعة واحدة بل بالتدريج... نظرة محرمة من هنا، وكلمة غيبة من هناك.. وإهانة لإنسان مسلم من هنالك. هذه المعاصي كلها تغرس في قلب الإنسان فتتو وتسيطر عليه وتحوله إلى قلب أسود مظلم، وتحول بينه وبين معرفة الله إلى أن تكون النتيجة أن ينكر الحقائق الإيمانية ويكذب بآيات الله تعالى" ([19]).

ويتساءل الإمام لماذا تتركبون هذه الذنوب؟ لماذا النميمة والغبية والحقد والكراهية والحسد والخلافات خصوصاً في مجتمعات المسلمين؟ إن السبب الأول لهذه الذنوب جميعاً هو التعلق بالدنيا، وهي مظاهر لها؛ لأن الأمور الأخروية: "لا صراع عليها ولا اختلاف، وأهل الآخرة المترفعون عن سفاف الدنيا يعيشون مع بعضهم بمحبة وصفاء، قلوبهم مملوءة بحب الله وعبادة الله، فمحبة الله سبب طبيعي لحب عباد الله المؤمنين، ومحبة عباد الله ظل محبة الله سبحانه" ([20]).

ويذهب الإمام إلى أن الذنوب والأعمال القبيحة لا توجب نيران الدنيا فقط، بل هي نفسها التي توجب نار جهنم، وإن حركة جهنم مشروطة بعمل الإنسان نفسه، فإذا لم يفعل الإنسان ما يحرك نار جهنم ويؤججها يمكنه اجتياز الصراط دون أن تتلقفه النار.

أما السبب الثاني لهذه الذنوب فهو عدم احتمال وجود الآخرة - حسب رأي الإمام - وبطلان الثواب والعقاب، وعدم الإيمان العملي بوجود الله، لأن المؤمن الموقن بوجود الله ووجود جهنم لا يتجرأ على القيام بأي عمل يسخط الله ويغضبه، لأنه يشعر عند أي حركة يقوم بها أنه بمحضر الله وعلى مرأى منه، وهذا مانع له من ارتكاب أي عمل شنيع. أما نحن فنتجرأ على الله ونتصرف في محضره بكل وقاحة فنغتتاب المؤمنين ونظلم العباد ونستعمل كل الأمانات التي استودعها الله عندنا في أذية النفس والآخرين. وبهذا الصدد يقول الإمام(قده): "إن الإنسان ليمتنع عن ارتكاب الذنب لوجود طفل مميز، إنه يمتنع عن كشف عورته أمامه، فكيف يا ترى يكشف عوراته بحضور الله سبحانه دون أي تورع أو خجل، السبب في ذلك هو الإيمان بوجود الطفل، ولذلك يجتنب الإنسان الذنب أمامه، وعدم الإيمان بوجود الله وحضوره.. لأنه لو كان مؤمناً بحضور الله لاجتنب المعاصي، وتورع عن ارتكاب المحرمات"([21]). ثم يذهب الإمام أبعد من ذلك فيقول إن الإنسان الذي يرتكب المعاصي والذنوب ليس فقط غير مؤمن ومتيقن من وجود الله وصحة الاخبارات التي وردت في القرآن الكريم عن وعده ووعيده، بل أكثر من ذلك هذا الإنسان لا يحتمل وجوده، وإلا لو احتمل لقاء ربه لتفكر في عمله وراقب أعماله واجتنب المعاصي كما يجتنب المرور في طريق يحتمل الخطر على حياته فيه، قال الإمام بهذا الشأن: "انكم لو احتملتم أن في طريق تريدون قطعه حيواناً مفترساً يمكن أن يهجم عليكم، أو قاطع طريق يمكن أن يعترض طريقكم، سوف تجتنبون ذلك الطريق حتماً.. فهل من الممكن أن يحتمل إنسان وجود جهنم والخلود في نارها، بكل صفاتها المذكورة في القرآن الكريم، ومع ذلك يصدر منه ما لا يرضي الله سبحانه وتعالى؟! هل من الممكن أن تصدر المعصية من شخص معتقد بحضور الله ومراقبته للعباد"([22])؟

لذا علينا جميعاً أن ننتبه ونتيقظ، ونخرج من جميع العبوديات إلى عبودية الله، وننبذ الأعمال السيئة، ونسارع في محاسبة النفس، ونعمل العمل الصالح قبل فوات الأوان وحضور أعمالنا أماناً، وإلا سنكون من القاتلين كما جاء في القرآن الكريم: {رب ارجعون * لعلي أعمل صالحاً فيما تركت}([23])، فيأتي جواب الباري: {كلا إنها كلمة هو قائلها ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون}([24]).

[1] الإمام الخميني(قده)، وصية الوداع، نشرة العهد، ص15.

[2] سورة الجمعة، الآية2.

[3] وصية الإمام(قده) - ص33.

[4] سورة الرعد، الآية11.

([5]) الإمام الخميني، مختارات، ج1، ص32-33. من خطاب ألقاه الإمام(قده) في المدرسة الفيضية في 4ربيع ثاني1399. الموافق 1979/3/33، اصدار وزارة الإرشاد - طهران.

([6]) الإمام الخميني(قده)، مختارات، ج3، ص50-51. من خطبة ألقاها سماحته في مجموعة من سفراء ودبلوماسيي إيران في الخارج بتاريخ 27 صفر 1401 هـ الموافق 1981/1/4م.

([7]) الإمام الخميني، قبسات من الفكر التربوي للإمام، ص24، من خطبة ألقاها الإمام(قده) في رؤساء دوائر وزارة التربية والتعليم بتاريخ 18 شعبان 1400 هـ الموافق 1980/7/1. إصدار التعبئة التربوية - حزب الله.

([8]) م. ن، ص24.

[9] الإمام الخميني، الجهاد الأكبر، ترجمة الشيخ حسين كوراني، ص23، الدار الإسلامية، بيروت.

[10] الإمام الخميني(قده)، مختارات، ج2، ص88، من خطبة ألقاها في ضباط وموظفي القوة البحرية للجمهورية الإسلامية بتاريخ 24 شعبان 1400 هـ الموافق في 1980/7/1م.

[11] م.ن.88.

[12] الإمام الخميني(قده)، مختارات، ج3، ص59، من خطبة ألقاها في معلمي التربية الدينية بتاريخ 23 ربيع الأول 1401 هـ الموافق 1981/1/30م.

([13]) سورة العصر، الآية:2.

([14]) سورة العصر، الآية:3.

([15]) سورة الكهف، الآية:49.

([16]) الإمام الخميني(قده)، الجهاد الأكبر، ص77.

([17]) م.ن، ص 75.

([18]) م.ن، ص 70.

([19]) م.ن، ص 52-53.

([20]) م.ن، ص 36.

([21]) م.ن، ص63.

([22]) م.ن، ص 64.

([23]) سورة المؤمنون، الآية: 99 - 100.

([24]) سورة المؤمنون، الآية 100.

مما لا شك فيه أن القضية الفلسطينية لا تقتصر بتأثيراتها السلبية على الشعب المسلم الفلسطيني، بل تتعداه لتشمل كل الأمة العربية والإسلامية، لأن فلسطين هي أرض إسلامية قبل أن تكون عربية أو فلسطينية فقط، ومن هذا المنطلق كان لابد من السعي الحثيث بدون كلل أو ملل لإعادة المعركة مع الكيان الغاصب للقدس الشريف إلى جذورها الصحيحة التي لا يمكن تجاوزها أو التعدي عنها، وذلك لأن القدس تمثل باحتلالها من جانب العصابات الصهيونية التي اجتمعت من كل أقطار الأرض التحدي الأكبر الذي تواجهه الأمة الإسلامية كلها، نظراً لما للقدس من مكانة في نفوس المسلمين كلهم باعتبارها أحد أكثر الأماكن قدسية وشرفاً، ولا يقل تأثيرها المعنوي عن الكعبة المشرفة والمسجد النبوي الشريف.

ومنذ أربعين عاماً ونحن نرفع شعار قتال إسرائيل، تلك الغدة السرطانية التي زرعتها القوى الاستكبارية الكاملة للقوى الكبرى على مقدرات شعوبنا وخيرات بلادنا، ومع كل ذلك لم يبدل قتالنا شيئاً من واقع الاحتلال، بل على العكس تماماً حيث ان المشكلة كبرت والقضية زادت تعقيداً وصعوبة من خلال تمكن إسرائيل بواسطة عدد من الحروب التي جرت معها أن تحتل اجزاء واسعة من بلادنا الإسلامية لتضمها إليها، وكان آخر قسم احتلته هو القسم الأكبر من الجنوب اللبناني اثناء الاجتياح عام 1982 ميلادية.

من هنا، يتوجب علينا البحث عن السبب أو الأسباب التي أدت إلى حصول ما حصل، مما جعل ذلك الكيان يبدو وكأنه راسخ في الأرض من دون أن يستطيع المحيط العربي والإسلامي من أن يفعل شيئاً حياله، أو أن يكون قادراً على اقتلاعه من أهم جزء من اجزاء العالم الإسلامي الكبير.

ولعلنا لا نجافي الحقيقة إذا قلنا ان السبب الأهم في ذلك كله هو أن قتالنا لإسرائيل لم يكن ناشئاً من الخلفية العقائدية الإسلامية، باعتبار أن حركة الأنظمة الدولية والتوازنات القائمة فعلاً بين المعسكرين الغربي والشرقي، وهذا كان أحد أهم المعوقات الأساسية التي أدت إلى تفاقم المشكلة وتعاضلها حتى وصلت إلى الحد الذي صار يسمح للكثير من الأنظمة التي كانت ترفع شعار قتال إسرائيل أن تتخلى عنه وأن تعمل على اقناع الشعوب العربية والإسلامية المغلوبة على أمرها أن تحذو حذوها لتصبح إسرائيل بذلك حالة شرعية مقبولة من المحيط العربي أولاً والإسلامي ثانياً، وبذلك تنتهي القضية كلها لتصبح مجرد ذكرى من ذكريات التاريخ لا أكثر ولا أقل، وأظهر مثال على ذلك "مصر" التي أقامت مع إسرائيل معاهدة "كامب ديفيد" وخرجت بذلك من حلبة الصراع، في القتال مع الكيان الغاصب، مما مهد الأجواء لتمرير مقولة (السلام لإسرائيل مقابل إعادة بعض الأرض للعرب) التي شكلت مدخلاً لحل الصراع بهذا الأسلوب، وهو ما

عملت الأنظمة الحاكمة في الكثير من الدول العربية على تركيزه في أذهان شعوبها المقهورة التي لا تستطيع أن تقاوم توجهات أنظمتها في هذا المجال.

الإمام والثورة الفلسطينية

بنتيجة الهزيمة المرة عام 1967، لم يعد أمام الشعب الفلسطيني سوى أن يحمل راية تحرير أرضه وحده بعد أن عجزت الدول العربية، أو أعجزت نفسها، كما هو المخطط لها، وانطلقت المقاومة الفلسطينية المسلحة، لتكون الرد العملي والصارخ والمباشر، على أجواء الهزيمة التي لفت المنطقة العربية والإسلامية بشكل عام.

هنا نجد إن الإمام الخميني(قده)، اندفع بشكل كبير جداً لتأييد تلك المقاومة التي تريد أن تقاتل إسرائيل، وقد عبر عن ذلك في مناسبات كثيرة، وحث أبناء الشعوب العربية والإسلامية على تزويد أولئك الفدائيين بكل أنواع الدعم المادي والمعنوي، ليتمكنوا من القيام بالواجب العظيم الملقى عليهم، بل وصل الأمر إلى حد اصدار فتاويه الشهيرة بجواز صرف قسم من الحقوق الشرعية، إلى أبناء فلسطين الذين يقاتلون الكيان الغاصب.

ومن بيانات الإمام(قده) في هذا المجال هو رده في جواب على مجموعة من مسلمي فلسطين، حول وجوب تقديم الدعم والإسناد الكافي إلى مسلمي فلسطين:

"لقد قلت سابقاً وأقوله الآن، بأن الكيان الاسرائيلي الغاصب يشكل خطراً عظيماً على الإسلام والبلدان الإسلامية، وذلك بسبب الأهداف والنوايا التوسعية التي لديه، وإنني أخشى أن تفوت الفرصة علينا، فيما لو سمح له المسلمون في التوسع، وعندها لا يمكننا الوقوف أمام توسعه.

وبما أن احتمال الخطر يهدد أساس الإسلام، فلا بدّ لجميع المسلمين بشكل عام، والدول الإسلامية بشكل خاص، أن يبذلوا كل جهدهم من أجل استئصال غدة الفساد هذه من المنطقة، وأن لا يتوانوا في تقديم المعونات إلى المدافعين عن فلسطين، وليبذلوا ما في وسعهم لدعم هذا الأمر الحيوي، فضلاً عن صرف حقوق الزكاة، وباقي الصدقات في هذا المجال.

أدعو الله سبحانه وتعالى أن يعين المسلمين، ويمن عليهم بدوام اليقظة والحذر، وان ينقذ بلاد المسلمين من شر أعداء الإسلام". تاريخ 3 ربيع الثاني 1388 هجري.

ومن كلمات الإمام(قده) في حث الفدائيين الفلسطينيين على الاستمرار في طريق الجهاد وعدم التقاعس نقتطف الفقرة التالية وهي:

"ويتوجب أيضاً على الفدائيين المجاهدين، الاستمرار في السير على طريق تحقيق هدفهم المقدس، وذلك بالتوكل على الله القدير، والتمسك بتعاليم القرآن المجيد، والصمود والجدية التامة في العمل، وأن لا يصيبهم الكسل والخمول، نتيجة لتقاعس ولين بعض الأفراد، الذي يؤدي إلى توجيه لطمة مميتة إلى ثورتهم التحريرية. ونؤكد ضرورة أن يكون التعامل والتبادل بين المجاهدين، وسكان المناطق التي يتحذها المجاهدون ميادين لنشاطاتهم الثورية، مستنداً على أسس السلوك الحسن والأخلاق الإسلامية". من بيان الإمام حول مساندة الشعب الفلسطيني بتاريخ 3 شهر رمضان 1392 هجري.

ولم يقتصر تأييد الإمام وتشجيعه عند هذا الحد، بل طلب من الأنظمة والدول الإسلامية تزويد المجاهدين الفلسطينيين بكل ما يحتاجون إليه، لأنه كان يرى فيهم الجذوة التي يمكن أن توجع نار الثورة العارمة في الشعوب ضد اسرائيل. ومن كلماته في هذا المجال: "يجب على كافة المسلمين بشكل عام، وعلى الحكومات العربية بشكل خاص، وبهدف المحافظة على استقلالها، تقديم جميع متطلبات الدعم والحماية لهذه الفصائل المجاهدة والملتزمة، وأن لا يتوانوا عن أي جهد، على طريق إيصال الأسلحة والمواد الغذائية والمؤونات اللازمة إلى هؤلاء المجاهدين الأفذاذ". (3 رمضان 1392 هـ).

وكذلك قوله(قده): "الآن وقد ضاعفت الدويلة الاسرائيلية الغاصبية مساعيها، من أجل إثارة الفتن والاعتداءات الواسعة على الأراضي العربية، ونهضت لتواصل أعمالها العدوانية ضد أصحاب الحق الأصليين، فضلاً عن زيادة تسخينها لأجواء الحرب، ففي مثل هذه الأحوال، يتوجب على كافة حكومات الأقطار الإسلامية، وبالأخص العربية منها، وبعد التوكل على الله سبحانه وتعالى والاعتماد على قدرته الأزلية، تعبئة جميع قواها وطاقاتها وصبها في طريق نصره الرجال المضحين، الذين يحاربون في الخطوط المتقدمة من جبهات الحرب، وعيونهم تنتظر العون والسند من الشعوب المسلحة، ويتوجب عليهم أيضاً، الاشتراك في هذا الجهاد المقدس الهادف إلى تحرير فلسطين، وإحياء مجد وشرف وعظمة الإسلام".

ومن مظاهر التأييد الكبيرة والجليلة المعنى للثورة الفلسطينية وشعبها المسلم الغيور هو ما حصل بعد انتصار الثورة الإسلامية المباركة، حيث تحولت سفارة الكيان الاسرائيلي في طهران إلى أول سفارة في العالم لفلسطين، وذلك شكل اعترافاً صريحاً وجريئاً وخارجاً عما ألفته الثورة الفلسطينية في طريقة التعامل معها حتى مع الذين كانوا يحملون رايته باسم الدفاع عنها، وقد عبر الإمام(قده) بعد انتصار الثورة بأن القضية الفلسطينية سوف تأخذ حيزاً مهماً من تفكير وجهود الثورة الإسلامية أملاً في تحريرها من براثن الصهيونية والاستعمار، ومما قاله في هذا المجال هو: "إننا ومنذ خمسة عشر عاماً، كنّا قد قلنا كلمتنا حول فلسطين، وحذرنا بهذا الشأن، أن وجهة نظرنا، تلك بصدد قضية فلسطين، لازالت على قوتها السابقة، وسوف نولي هذه المسألة أهمية أكثر في المستقبل، وبعد أن نرسم الخرائط التي ورثناها في بلدنا من عهد الشاه".

من خطب الإمام لياسر عرفات بعد ثمانية أيام من انتصار الثورة الإسلامية في ايران بتاريخ 1979/2/29م.

إعلان يوم القدس العالمي:

في ظل هذه الأجواء الانهزامية السائدة جاء إعلان إمام الأمة الإسلامية الإمام الخميني (قدس الله سره) ومفجر الثورة الإسلامية في هذا العصر عن تحديد يوم الجمعة الأخير من شهر رمضان من كل عام هجري يوماً للقدس، وذلك من أجل إعادة الاعتبار للقضية التي كانت تقترب من نهايتها المأساوية على أيدي الأنظمة التابعة التي لا حول لها ولا قوة، ومن أجل إعطاء القضية المركزية للأمة حجمها الطبيعي من الاهتمام والرعاية، ولكن يتركز هذا الأمر ويترسخ في أذهان المسلمين ووجدانهم بأن القدس هي قدس كل الأمة وليست قدس الشعب الفلسطيني فقط أو العرب لا غير، وبالتالي فإن كل المسلمين مطالبون بالعمل من أجل التحرير بكل الوسائل والإمكانات المتاحة أمام تلك المئات من الملايين المنتشرة في كافة أرجاء العالم الإسلامي الواسع.

من هنا كان تركيز الإمام الراحل العظيم على أن تستوعب الأمة القضية بهذا النحو العريض، لأنه كان يرى أن الأمة كلها محتلة وواقعة في دائرة الخطر مادامت القدس أسيرة الاحتلال الصهيوني البغيض الجاثم فوق أرضها الطاهرة المقدسة، لأن القدس بما ترمز إليه تشكل عنوان كرامة المسلمين وعزتهم وكرامتهم، مضافاً إلى أن قضية القدس هي الأبرز من بين كل قضايا الأمة التي يمكن أن تلتفت حولها لتتخذ منها طريقاً للوحدة، نظراً لما لها من قوة إثارة وتحريك للمشاعر، واستنهاض للهمم، وتقريب لوجهات النظر، وتجميع القدرات والطاقات الموجودة في الأمة من أجل تحريرها من براثن ذلك العدو، ولهذا نجد أن الإمام الفقيده يعبر عن مقولته هذه بقوله في إعلان تأسيس يوم القدس:

"إن آخر جمعة من شهر رمضان المبارك يُعد يوماً للقدس والعشرة الأخيرة من شهر رمضان تضم ليلة القدر على احتمال قوي، وهي الليلة التي يكون إحياءها سنة إلهية، وهي أفضل من ألف شهر من حياة المنافقين، وفيها تقدر مصائر الناس، ويوم القدس مجاور لليلة القدر، فيجب على المسلمين أن يحيوه، ويجعلوه مثاراً لعظمتهم وانتباههم، وبذلك يخرجون من الغفلة التي أصيبوا بها طوال التاريخ، وخصوصاً في القرون الأخيرة، ليكون ذلك اليوم الذي ينتبهون فيه وينهضون، وهكذا يأخذ المسلمون في كل أنحاء العالم بأيديهم زمام مقدراتهم".

أسباب إعلان يوم القدس العالمي:

أ- خطر إسرائيل على العالم الإسلامي

إن الحركة الصهيونية المتمثلة بالكيان الغاصب لا تقتصر بأخطارها على أرض فلسطين الإسلامية فقط، وإنما هي حركة عنصرية بغيضة مرتبطة بمشاريع القوى الاستكبارية في العالم وعلى رأسها أمريكا، لتكون إسرائيل الدولة الأقوى في المحيط الذي زرعت فيه، ولتكون الغدة السرطانية تلك التي تبث سمومها وتنفض مؤامراتها في ذلك المحيط الواسع الذي يشمل كل الدول العربية والإسلامية معاً، وذلك لإفساده ومنعه من أن يمتلك إرادته من خلال مراقبتها لمجمل حركات الأنظمة والشعوب للتأكد من عدم وجود ما يمكن أن يؤدي إلى الثورة والتحريك ضد كل أشكال الفساد المستشري على مستوى الأنظمة وارتباطاتها المشبوهة بالقوى الاستكبارية في العالم، ومن

أجل منع قيام أي حركة معاكسة لمصالح تلك القوى التي ما أوجدت إسرائيل إلا من أجل حماية تلك المصالح والامتيازات الاستعمارية، ولم يكن حياً بالشعب اليهودي بحجة ارجاعه إلى أرضه التي طرد منها بادعاء تاريخي مزيف، بل من باب توافق المصالح الاستعمارية مع مصلحة الصهيونية العالمية بالاستيلاء على أرض فلسطين التي تعتبر بحسب موقعها الجغرافي همزة الوصل بين شرق العالم الإسلامي وغربه، على أساس أن يوم ذلك الكيان بمهمة الشرطي الأمين الحارس لمصالح القوى الكبرى التي ما أوجدته إلا لهذا السبب، وبهذا يمكننا أن نفسر الدعم المطلق الذي يلقاه ذلك الكيان من تلك القوى حتى استطاع أن يصنع السلاح النووي والطائرات والدبابات والصواريخ المتطورة لكي يستعملها في حال تعرض وجوده للخطر الفعلي من المحيط المعادي له ولأصل وجوده في هذه المنطقة من العالم الإسلامي.

ولهذا نرى أن الإمام الخميني (قده) كان يحذر الدول الإسلامية كلها من خطر وجود ذلك الكيان بينها نظراً للأخطار الكبيرة التي تتهدد الأمة من جرّاء وجوده اللاشرعي والغاصب، وكان ينظر إليه على أنه جرثومة الفساد التي تمارس ذلك الدور التخريبي على امتداد الساحة العربية والإسلامية، باعتبار أن وجود ذلك الكيان نقيض لوجود الأمة الإسلامية، ولا يمكن التعايش مع طروحات وطموحات المشروع الصهيوني القائم على الحلم التاريخي انشاء دولة إسرائيل الكبرى من الفرات إلى النيل.

من خطاب إمام الأمة إلى العلماء في (يزد) إحدى مدن إيران سنة 1963م:

"ينبغي على السادة العلماء الأفاضل الانتباه إلى أن المناصب الحساسة في الحكومة تدار من قبل عملاء إسرائيل، إن خطر إسرائيل على الإسلام وإيران كبير جداً، حيث أن التحالف مع إسرائيل ضد الدول الإسلامية، إما أن يكون قد أبرم أو سيبرم قريباً، ويلزم على العلماء الأعلام والخطباء المحترمين توعية مختلف فئات الشعب وتعريفهم بهذه الأمور لكي نستطيع أن نحول دون ذلك في الوقت المناسب".

من خطاب إمام الأمة إلى جمعيات المدن والأقليات عام 1962م:

"سوف لا يمر وقت طويل لهذا السكوت القاتل الذي يلف المسلمين إلا ويكون الصهاينة قد سيطروا على كامل اقتصاد البلد هذا، بعد أن يضمّنوا دعم عملائهم لهم، وبالتالي جر الشعب المسلم بكل شؤونهم نحو السقوط".

من هذين النصين نرى كيف أن الإمام كان ينظر إلى ذلك الكيان نظرة الشك والريب إلى وجوده في قلب المنطقة الإسلامية، وأن وجوده ليس من أجل حق تاريخي يريد الحصول عليه في أرض فلسطين، بل هو وجود تبعية للحفاظ على مصالح أسياده الذين أسسوه ودعموا كيانه.

فإدراك الإمام لخطر ذلك الكيان ليس وليد الصدفة أو المناسبة الخاصة، بل هو ادراك ناتج عن فهم حقيقة الصراع الذي كانت تعيشه الأمة وماتزال في كل مناطق تواجدها في مواجهة القوى الاستكبارية وعلى رأسها الدول الداعمة لوجود إسرائيل، وأن وظيفة ذلك الكيان هي التغلغل الخبيث في منطقتنا وبلادنا من خلال الأنظمة الرجعية والعميلة المرتبطة بعجلة الاستعمار، لمراقبة حركة الشعوب وسيرها، حتى لا تقوم بالانتفاضات والثورات لامتلاك زمام أموره، ولتبقى مقدرات الأمة كلها بيد تلك الأنظمة التي تمثل مصالح القوى الكبرى خير تمثيل، لأنها تحمي عمليات النهب الاستعماري من خلال الارهاب الذي تمارسه ضد شعوبها وبلدانها خدمة للمستكبرين في الأرض.

ولهذا نرى في النصين اللذين سبق ذكرهما كيف أن الإمام يحذر من ذلك التغلغل الذي تقوم به إسرائيل في الدول الإسلامية وخاصة على مستوى قوة إسلامية كبيرة كإيران وتركيا، حيث أقامت إسرائيل مع كل منهما علاقات "دبلوماسية"، بل تبادت أكثر على مستوى إيران وأقامت علاقات على كل المستويات الاقتصادية والتجارية والثقافية، وعلى مستوى أجهزة المخابرات كالتعاون بين "الموساد الاسرائيلي" و"السافاك الإيراني"، كل ذلك للتخطيط والتنفيذ ضد كل حركة أو انتفاضة تريد أن تعيد الأمور إلى التوجه الصحيح والسليم، ولاثارة الخلافات والنعرات بين الدول والشعوب الإسلامية تمريراً للمخطط الجهنمي الذي يريد أن يجعل من إسرائيل كياناً مقبولاً من المحيط، وتقام معه العلاقات على حساب مأساة الشعب الفلسطيني المسلم الذي طرد من أرضه وشرّد في كل أقطار الأرض، وفي كل الاتجاهات.

وهذا التغلغل الخبيث هو الذي حذر الإمام (قده) منه مراراً وتكراراً وأنه لا يمكن أن يكون لصالح الشعوب والدول الإسلامية، بل هو لتحطيمها ومنعها من التقدم وامتلاك حريتها وإرادتها، وأن ذلك التغلغل يهدف إلى أن تكون إسرائيل العين الساهرة على تنفيذ تلك الأنظمة للخطط الاستعمارية على مستوى خيرات وثروات المسلمين.

جاء في نداء الإمام إلى الوعّاظ والخطباء الدينيين عام 1963م:

"إن النظام الحاكم المتجبر - النظام الشاهنشاهي - يتعاضد بكل قواه مع إسرائيل وعملائها، حيث سلمها الوسائل الإعلامية والدعائية في القطر، وترك لها مطلق الحرية بالتصرف بها، وقد فسح المجال التام لها، في النفوذ إلى الجيش والمؤسسات الثقافية وسائر الوزارات الأخرى، وأعطيت لها المناصب الحساسة في الدولة.

عليكم أن تذكروا الشعب دوماً، بأخطار إسرائيل وعملائها في إيران، إن الركون إلى الصمت في هذه الأيام يعتبر تأييداً للنظام المتجبر ودعماً لأعداء الإسلام؛ واحذروا عواقب هذه الأمور".

من بيان الإمام بمناسبة ذكرى أربعين مذبحة المدرسة الفيضية عام 1963م:

"إنني أعلن لقادة الأقطار الإسلامية، والدول العربية وغير العربية، أن علماء الإسلام والزعماء الدينيين، وشعبنا المتدين، وجيشنا الغيور، هم جميعاً أخوة لأبناء الأقطار الإسلامية، وبصينا ما يلحق بهم من المنافع والأضرار، وانهم يعلنون عن غضبهم ونفورهم من إبرام التحالف مع إسرائيل عدوة الإسلام وإيران.

إنني أعلنت عن هذا الأمر بصراحة تامة، ودع الآن عملاء إسرائيل ينهوا حياتي".

إلا أن ذلك الموقف المبدئي النابع من الفهم الصحيح المستوحى من القرآن الكريم والسنة الشريفة عن بني إسرائيل وتاريخهم وعلاقتهم بالشعوب، مضافاً إلى الوعي الكامل لحركة الصراع في عصرنا الحاضر بين القوى الاستكبارية من جهة، والشعوب المستضعفة من جهة أخرى، لم يلق الأذان الصاغية من جانب الأنظمة الحاكمة، وليس هذا فقط، بل كان ذلك الموقف المبدئي من الإمام (قده) محجوراً عليه أن يصل إلى مسامع الشعوب الإسلامية، لأنه يشكل خطراً على تلك الأنظمة ويجعلها في موقف محرج جداً أمام شعوبها التي كانت تتلهف لقتال إسرائيل.

ب - المخطط الاستعماري لترسيخ الكيان الغاصب:

ليس صدفة أن يوجد الكيان الغاصب ويقام على أرض فلسطين، تلك الأرض التي تضم (القدس الشريف) أحد أعظم مقدسات المسلمين وهو (المسجد الأقصى) قبلة المسلمين الأولى التي صلوا إليها لاثبات وحدة الرسالة الإلهية، وهي أيضاً أرض معراج نبينا محمد (ص) إلى السماوات العلى، ولهذا فإن احتلال فلسطين من جانب الصهيونية اليهودية يجعل القضية ذات أبعاد عقائدية ودينية، يضاف إليها التوافق في المصالح الاستكبارية مع الحقد التاريخي المشترك بين الفريقين ضد الأمة الإسلامية.

من هنا نشأ التعاون بين الحركة الصهيونية العالمية والقوى الكبرى على تمرير تلك المؤامرة الخبيثة، لأن احتلال القدس بالذات يعني، دينياً وعقائدياً، أن الأمة كلها محتلة، وأن كرامتها مسلوبة ومهانة، ولهذا عندما نرجع قليلاً إلى التاريخ القريب يمكننا أن نرى ما يلي:

أولاً: ان هذه المنطقة من العالم تنعم بخيرات وثروات كبيرة جداً، تحتاجها الدول الاستكبارية في العالم لزيادة سيطرتها وتسلطها على العالم كله، وهي من هذه الجهة، فاتها لن تترك الأرض لأصحابها ليتنعموا بها ويستفيدوا من خيراتها لصالح شعوب المنطقة، بل سوف يتبعون كل الوسائل لجعلها تحت سيطرتهم بأي وسيلة كانت.

ثانياً: أطماع الحركة الصهيونية العالمية في أرض فلسطين بادعاء الحق التاريخي المزيف، وانهم الشعب المختار الذين اختار الله (ربهم) تلك الأرض لهم دون غيرهم من سائر البشر، ولأنهم كانوا قد استوطنوها سابقاً، فلهم إذن كامل الحق الرجوع إليها والسكنى فيها على حساب شعبها وأهلها.

ثالثاً: الأنظمة التي ساندتها الاستعمار في المنطقة، من خلال تشجيعه للصراعات والنزاعات بين شعوبها وسكانها، وتحريك العصبية والنعرات، ومساعدة البعض ضد البعض الآخر، حتى ضعف الجميع، وصار كل واحد منهم بحاجة إلى الدعم من تلك القوى ليحفظ نظام امتيازاته في وجه الآخرين، مما أدى في نهاية الأمر إلى جعل المنطقة موزعة بين القوى الكبرى في العالم.

والذي نريد أن نقوله أن تلك الأسباب التي ذكرناها هي التي شكلت الأسس والمنطلقات التي بدأ منها الاستعمار العالمي لايجاد إسرائيل وترسيخها كحقيقة واقعة وثابتة في هذه المنطقة بالتقريب التالي:

إن الغرب يريد السيطرة على المنطقة طمعاً بخيراتها، وهو لهذا يحتاج إلى ايجاد أنظمة ضعيفة مرتبطة به مباشرة، بحيث يستطيع من خلالها احكام سيطرته، لاستغلال ما يحتاج من مواد أولية تنعم بها هذه المنطقة المعطاء، ولهذا عملت الدول الاستكبارية على ايجاد وتكوين تلك الأنظمة حسب المقاسات والأحجام التي تريد، وقسمت المنطقة بالطريقة التي تضمن لها ذلك، وفق معاهدة "سايكس - بيكو" الموقعة بين بريطانيا وفرنسا، اللتين تقاسمتا النفوذ على المنطقة بشكل شبه كامل، لكن تلك الدول لما كانت في الوقت ذاته، لا تأمن ولا تضمن الولاء المطلق من تلك الأنظمة، وخوفاً من الانقلاب أو الانفلات عن السيطرة، كان لابد من ايجاد نظام أو أكثر إن كان ذلك ممكناً، يرتبط مباشرة بالدول الكبرى، ليكون الأداة الغليظة، والعين الساهرة على مصالح الاستكبار العالمي.

وبما أن الحركة الصهيونية العالمية التي أقرت في مؤتمرها المنعقد في سويسرا عام 1897م بقيادة زعيم الحركة الصهيونية آنذاك "تيودور هرتزل" فلسطين كوطن قومي لليهود، فقد سعت لتحقيق ذلك سريعاً من خلال الاتصال بالسلطان العثماني "عبد الحميد" لمنحهم فلسطين مقابل مبالغ ذهبية كبيرة أغروه بها، إلا أنه رفض العرض المقدم إليه رفضاً باتاً، لكن الظروف التي رافقت أحداث الحرب العالمية الأولى، والتي أحسنت الحركة الصهيونية استغلالها، جعلت المصلحة المشتركة بين الدول الكبرى وبين الصهيونية العالمية أمراً لا مفر منه، وهكذا اتفق الطرفان على انشاء دولة اسرائيل وجعلها وطناً قومياً لليهود المتوافدين من كل أقطار العالم، على حساب الشعب المسلم الفلسطيني، وعلى هذا الأساس بدأت الهجرة اليهودية إلى فلسطين بالازدياد عاماً بعد عام، وشرعوا باقامة المستوطنات والتجمعات السكنية، تحت سمع وبصر الأنظمة التي كانت تحت الاحتلال المباشر في قسم منها، والاحتلال غير المباشر في القسم الآخر الذي لم يكن خارجاً عن السيطرة أيضاً.

ومع تلك الهجرة المتزايدة، لم تحرك الأنظمة العربية ساكناً، سوى بعض البيانات التي كانت تصدر بين الحين والآخر، والتي لا يمكن أن تؤثر على مجريات الأمور الواقعة شيئاً، وهذا ما دفع الشعب المسلم في فلسطين لأن ينتفض ضد ما يحصل بإمكانات ضعيفة دفاعاً عن حقه في أرضه وبلاده، وهكذا كانت ثورة الشيخ عز الدين القسام الشهيد سنة 1936م، دفاعاً عن أرض الأنبياء والمقدسات، وحصلت كذلك الاضرابات العامة التي شلّت كامل الحركة على التراب الفلسطيني لأشهر، وكادت أن تطيح بكل المشاريع الاستكبارية لولا التدخل المباشر من حكام آل سعود، بطلب من أسيادهم وأولياء نعمتهم البريطانيين، لايقاف الاضراب العام بناء على وعد من حكام آل سعود بالحصول على حقوق الشعب الفلسطيني في أرضه، إلا أن شيئاً من ذلك لم يحصل، مما مهد الأجواء للقضاء على أي حركة انتفاضية يمكن أن يقوم بها الشعب الفلسطيني بعد ذلك، وهذا الموقف طبيعي جداً من نظام يخاف أن يتحرك بغير ما يأمره به أسياده خوفاً على نفسه من الاقتلاع والابتيان بالبديل الحاضر أبداً من بين المتكالبين على السلطة من عملاء الاستعمار ولو كان ذلك على حساب شعوبهم ومواطنيهم.

بعد هذا كله، صارت الأجواء مهيأة لإعلان الأمم المتحدة لقرارها بإنشاء دولة إسرائيل، وصدر قرار التقسيم عنها، معلناً بداية ما يسمى بالكيان القومي لليهود في العالم، وذلك بدعم مباشر من القوى الاستكبارية العالمية وبطلب منها، وشكل ذلك بداية اضفاء الشرعية الدولية لتلك الدولة المتشكلة من العصابات التي جاءت من كل دول العالم تقريباً، واستطاعت أن تسيطر على معظم أرض فلسطين، بالتواطؤ مع الأنظمة العميلة الحاكمة في المنطقة آنذاك، والتي أوجدتها نفس القوى الكبرى التي أوجدت إسرائيل وزرعتها في هذه المنطقة من العالم.

وهكذا خرج الشعب المسلم الفلسطيني من أرضه، ليقيم في مخيمات اللاجئين، التي أقيمت خصيصاً له في الدول المجاورة في لبنان وسوريا والأردن ومصر، على أمل أن تسعى الدول العربية لارجاعه إلى أرضه في أقرب وقت ممكن، وما زال ذلك الشعب ينتظر عودته إليها تطبيقاً للوعود التي حصل عليها من اخوانه الذين وعدوه بذلك، وذهبت تلك الوعود أدراج الرياح، وهو لا يزال يعاني من القهر والاستغلال والتسلط الذي يمارس عليه في أغلب الدول التي لجأ إليها، وكأنه شعب لا يحق له أن يعيش كما يعيش اخوانه من أبناء الشعوب المجاورة وغيرها.

ولعل الكثيرين يعرفون أن جماهير غفيرة من أبناء الشعوب العربية والإسلامية، قد أبدت رغبة، وجندت نفسها لقتال اليهود، واسترجاع فلسطين، إلا أن خيانة الأنظمة العميلة وقفت في وجه ذلك بطريقة غير مباشرة، من خلال ادعائها بأنها قاتلت لاسترجاع فلسطين، لكنها لم تقدر على ذلك وإن انشاء ذلك الكيان أمر ليس بمقدورنا منع ايجاده الآن! لكن تلك الأنظمة وعدت بأنها لن تتخلي عن فلسطين، وستعمل بكل الوسائل على استردادها وارجاعها لأهلها.

تلك الأساليب الخبيثة هي التي استوعبت من خلالها تلك الأنظمة انفعالات الشعوب العربية والإسلامية وهيجانها وثورتها، نتيجة الاحتلال البغيض، ولهذا فقد رفعت أكثر الأنظمة آنذاك شعار "تحرير فلسطين" نفاقاً وكذباً، وانهم سوف يجندون كل طاقاتهم وامكاناتهم لتحقيق ذلك الشعار الكبير والعريض جداً، ثم عملوا على ترسيخ هذا الأمر في نفوس شعوبهم لتخدیرهم وتسكينهم، وذلك بالاتفاق مع الدول الاستكبارية التي خططت لذلك لكي لا تقلت الشعوب من أيدي الأنظمة الدمي، وبذلك هدأت حركة الشعوب واستكانت واطمأنت إلى أن جيوشها سوف تستعيد الأرض وتحرر المقدسات من دنس ورجس الصهاينة الكفرة الفجرة المغضوب عليهم من رب السماء بنص القرآن الكريم[1].

ج - مرحلة الدخول في العصر الإسرائيلي:

وهكذا وجدت اسرائيل في قلب المناطق الإسلامية لتكون أداة للفساد والافساد على مستوى كل دول المنطقة وشعوبها، وبما أن لذلك الكيان الجهنمي وظيفة محددة، فقد تزود من أسباده بكل المقومات التي تمكنه من القيام بوظيفته على الوجه الأكمل، وبدأت الأسلحة تنهال عليه من كل الأنواع الهجومية والدفاعية ليكي يكون قادراً على الوقوف بوجه أي محاولة تستهدف وجوده، ولكي يكون قادراً في الوقت نفسه على الدفاع عن الأنظمة الموالية للدول الكبرى من أي محاولة تستهدفها أيضاً، ليتشكل بذلك من إسرائيل والانظمة الموالية المصنوعة على نفس المقاس حلف غير مقدس، تديره القوى الكبرى لحماية مصالحها في هذه المنطقة من العالم، ولكبح الحركات التحررية التي تهدف إلى الخلاص من السيطرة الاستعمارية المباشرة وغير المباشرة. ولهذا كان تدخل النظام الإيراني أيام الشاه لضرب الحالة الثورية في عمان ومسقط، ولهذا أيضاً حصل العدوان الثلاثي على مصر قبلها بعد تأميم قناة السويس مباشرة لارجاع ذلك النظام إلى بيت الطاعة، وهذا المعنى الذي نقوله، ليس كلاماً في المطلق، أو مبنياً على تحليلات بعيدة عن الواقع والحقيقة، وانتصار الثورة الإسلامية، وما حصل من حينه إلى الآن من مجريات يثبت هذا الذي نقول.

ونتيجة للحروب المتعددة التي حصلت بين الأنظمة العربية وإسرائيل، والتي كانت حصيلتها توسعاً كبيراً أخذ من الدول المحيطة بإسرائيل مساحات ضخمة، وهي سيناء، وقطاع غزة، والضفة الغربية، وهضبة الجولان، في الحرب التي سميت بـ"نكسة حزيران" عام 1967م، والتي كانت أقسى خسارة تعرضت لها الدول التي تتبنى شعار قتال إسرائيل.

والذي نريد أن نقوله في هذا المجال هو أنه كان المطلوب من تلك الأنظمة أن تنهزم أمام ذلك الكيان، وأن تقنع شعوبها بعد ذلك بعدم جدوى القتال معه، لكي تصبح مقولة شرعنته مقبولة من الشعوب، ولكي تبدأ عملية الاعتراف به، وجعله كياناً يستحق البقاء والحياة كما هو حق الشعوب الأخرى الموجودة في المنطقة، وهذا ما حدث فعلاً، فبعد هزيمة الأنظمة كما هو مقرر، بدأت عملية التحول الكبير،

وأخذت مقولة الاعتراف بالكيان الغاصب في مقابل استرجاع الأراضي المحتلة عام 1967 تأخذ مكانها في الساحة ولتنتهي بذلك حالة الصراع مع ذلك الكيان إلى الأبد.

وهكذا كانت الخطوة الصاعقة والمفاجئة التي قام بها الرئيس المصري عام 1977م، لتكون بداية التنفيذ العملي لمشروع اضمحاء الشرعية العربية على إسرائيل، بعد أن عملت الأنظمة طويلاً، من خلال الصخب والضجيج الإعلامي بأن إسرائيل دولة لا تقهر، ولا تمتلك الدول التي تقاتلها الأسلحة التي تستطيع أن تواجه بها ذلك الكيان، وقد اقتنعت الشعوب فعلاً بذلك ما عدا الفئة القليلة التي لا تستطيع أن تغير الموازين القائمة لصالح المقولة التي تتبنى قتال إسرائيل.

والذي نود قوله بصراحة مطلقة هو أن قتال إسرائيل عندما لم يكن منطلقاً من الخلفية العقائدية الإسلامية، ولما كانت الأنظمة الخائفة من ثورات شعوبها نتيجة ديكتاتوريتها وظلمها واضطهادها لشعوبها، وعدم اعطاء المعركة بعدها الإسلامي الكبير، كانت الهزيمة المخطط لها أمراً لا مفر منه ولا مهرب، ليعقبها استكمال المخطط الذي ينهي حالة الصراع كلياً على حساب الشعب الفلسطيني المسلم المشرّد في كل دول العالم اليوم تقريباً.

وهكذا كانت معاهدة "كامب ديفيد" [2] أول معاهدة صلح تعقد بين العرب وإسرائيل، لتكون بداية النهاية لصراع استمر إلى يوم توقيع المعاهدة ثلاثين عاماً، لم نجن من خلالها إلا الخسارة، وتقوية إسرائيل أكثر من السابق، ليتحقق بذلك ما يريده الاستعمار، وهو أن يكون ذلك الكيان هو الذراع الطويلة التي تخدم مصالح الاستكبار العالمي في المنطقة.

كل ذلك حصل، والشعوب تبتلع الهزيمة على مضض، وهي مكبلة بالقيود التي تفرضها الأنظمة على حركات تلك الشعوب غير القادرة على التعبير عن الألم الذي يعتصرها من جراء الهزائم النكراء التي حلت بالأمة العربية، ومن ورائها كل الأمة الإسلامية، من وجهة نظر إسرائيل، خاصة بعد احتلال القدس في مأساة عام 1967م.

د - يأس الإمام من خطاب الأنظمة:

لقد كان للإمام (قده) صبر طويل على الأنظمة الإسلامية بشكل عام، والعربية منها بشكل خاص، وقد خاطبها جميعاً بلا استثناء من أجل النهوض وأخذ زمام أمورها بيدها من أجل انقاذ فلسطين، وهذا الخطاب لم يقتصر على مرحلة ما بعد انتصار الثورة، بل هو خطاب يعود على أوائل الستينات مع أن الفكرة مختمرة في عقله وقلبه قبل ذلك بكثير.

لقد سعى الإمام (قده) كثيراً من خلال خطابه للأنظمة العربية والإسلامية أن يدب في اجسادها القوة المعنوية لفك ارتباطها وتبعيتها للغرب الكافر والشرق الملحد، حتى تستطيع أن تبني عزتها بالاستناد إلى مبادئها الإسلامية الأصيلة، ولم يترك مناسبة أو صرخة إلا وكرر ذلك الخطاب على مسامعهم، لكنهم وللأسف كانوا يصمون أذانهم نتيجة عمالتهم وخيانتهم، وعجزهم عن مواجهة أسيادهم المستكبرين الذين نصبوا ودعموا الأنظمة التي تحكم الأمة الإسلامية بالحديد والنار خدمة للمستعمرين والمستكبرين. ولهذا نجد أن الإمام (قده) بدأ بتعرية تلك الأنظمة ودمها وقدرها، لعل ذلك يؤثر فيها ويجعلها ترعوي وتعود عن غيها وضلالها، إلا أن كل ذلك لم يلق الأذان الواعية، وكأن الحكام قد صاروا خشباً مسندة لا حياة فيها لحماية حريتهم وكرامتهم حتى امام شعوبهم، بل ازدادوا بعداً عن مصالح شعوبهم وامعناً في تجاهل خطابات الإمام وتوجيهاته وتحذيراته لهم، وسارعوا إلى الاحتماء منه نتيجة خوفهم على عروشهم وكراسيهم، خاصة بعد انتصار الثورة بأسيادهم الذين هم أولياء نعمتهم وتسلطهم على مقدرات الأمة الإسلامية كلها. ومن كلمات الإمام التي تعبر عن اليأس من تلك الأنظمة هي:

"إن مشكلة المسلمين الأساسية في الحكومات المسيطرة على مقدراتهم، إنها الحكومات التي أدت بالمسلمين إلى هذا الوضع الذي هم عليه الآن. إن مشكلة المسلمين لا تكمن في الشعوب، إذ إنها قادرة على حل مشاكلها بفطرتها الذاتية، وإنما تكمن في الحكومات المتسلطة على رقابهم. لو تمنعتم النظر في انحاء الأقطار الإسلامية، قلماً تجدون بقعة لم تكن مشاكلهم بسبب حكوماتهم؛ إنها الحكومات التي أوجدت المشاكل لنا ولجميع المسلمين، ذلك بخضوعها وعمالتها لقوى الشرق والغرب، وليس بمقدور المسلمين أن يتخلصوا من مشاكلهم دون أن يزيلوا من أمامهم هذه العقبة الكؤود؛ فالحكومات هي التي تضع العراقيل في هذا الطريق، طريق الخلاص من سيطرة القوى الكبرى وإسرائيل.. وهي التي وقفت بوجه نمو شبابنا الفكري، وبوجه تقدم المسلمين بشكل عام".

من خطاب الإمام (قده) إلى المشاركين في مؤتمر القدس العالمي بتاريخ 1980/8/9م.

وكذلك قوله (قده): "إن ما تقوم به حكومات المنطقة في هذه الظروف العصبية التي تمر بها الأمة الإسلامية، حيث شنت إسرائيل عدوانها الواسع ضد بلاد المسلمين، وأراقت دماء المسلمين الأبرياء والمحرومين، لا يمكن النظر إليه إلا أنه كلام فارغ، ويفوح برائحة المهادنة والمساومة مع الأعداء. والمصيبة الكبرى تكمن في أنهم يستغيثون بالمجرم الأصلي (أمريكا) خشية من إسرائيل، وهم بذلك في الحقيقة يستغيثون بالشعابين الكبيرة خوفاً من الأفاعي!"

من نداء الإمام بمناسبة يوم القدس العالمي بتاريخ 1982/7/16م.

ومن أبرز مواقف الإمام (قده) ضد الأنظمة العميلة هو بيانه الشهير حول عدم شرعية نتائج مؤتمر القمة العربية في فاس الذي كان يهدف إلى المصادقة على مشروع الملك فهد المتضمن الاعتراف الصريح بإسرائيل، حيث كان ذلك البيان قمة البراءة واليأس من تلك الأنظمة الرجعية التي كانت تريد بيع القضية الفلسطينية والتخلص منها إلى الأبد حيث قال (قده):

"إنني اعتبر مساندة المشروع، الذي يمنح الاستقلال والاعتراف الرسمي بإسرائيل، فاجعة كبرى للمسلمين وانتحاراً للحكومات الإسلامية، واعتبر معارضة ذلك فريضة إسلامية كبرى".

تاريخ 1982/6/5م من بيانه بذكرى انتفاضة 15 خرداد.

تنوير الإمام للأمة الإسلامية وثقته بقدراتها

بعد أن يؤس الإمام (قده) من خطابه للأنظمة، التي كان يحاول أن يحركها لتتخلص من التبعية والعمالة للقوى الاستكبارية في العالم، ولتأخذ بأيديها مقدراتها، لتستغلها لصالحها وصالح شعوبها، تجاوز الإمام (قده) تلك الأنظمة، وبدأ بتوجيه خطابه للشعوب مباشرة، وهذا لا يعني بالضرورة أن الإمام عندما كان يخاطب الأنظمة، كان غافلاً عن أهمية خطاب الشعوب، لكن توجيه الخطاب للأنظمة أولاً، كان من باب أنها تمتلك قدرات وامكانيات، تستطيع ان توظفها في المعركة لصالح تحرير فلسطين من الاحتلال البغيض، مع أن أغلب الأنظمة الإسلامية تنزود بالسلح ولو كان من النوع الدفاعي فقط، لا من أجل أن تدافع عن نفسها، بل من أجل ضرب الحركات التحررية لشعوبها الراضحة تحت نير الظلم والاضطهاد أيضاً، ولكن من باب القيام بمهمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر المطلوبة منه، كونه في مقام التصدي لقضايا الامة كلها، كان يوجه الخطاب لتلك الأنظمة لعلها تسمع وترعوي وتعود عن ضلالها وانحرافها وارتمائها في أحضان القوى الاستكبارية.

ولعل هذا الخطاب هو الأوسع والأكثر شيوعاً في بيانات الإمام (قده)، وخطاباته طوال ربع قرن من الزمن، كل ذلك، لأنه كان يرى في الشعوب القوة الكامنة التي تستطيع ان تغير مجرى التاريخ، لتمسك بيدها مقدراتها، وتستغل خيراتها ومواردها لصالحها، بدلاً من أن تكون نهياً بيد الأنظمة التي تنفذ مخططات الاستكبار على حساب شعوبها ورقبها وتقدمها.

ويبدأ الإمام (قده) خطابه للشعوب بالثورة على أنظمتها التي كان يرى فيها العقبة الكبرى في وجه امتلاك الأمة لقدراتها والامساك بزمام أمورها، وقد عبر عن ذلك في جملة من بياناته، فمنها:

"يا مسلمي العالم، ويا أيها المستضعفون، انهضوا وعينوا مصائركم بأنفسكم. إلى متى تنتظرون أن تتعين مصائركم في واشنطن أو موسكو؟!"

أو كما قال (قده):

"يجب على الشعوب أن لا تكتفي بالجلوس، وأن لا تعتمد على حكوماتها، لأن هذه الحكومات لا تعمل إلا بما يتوافق مع مصالحها الخاصة. يجب أن تعرف الشعوب أن رمز انتصارها هو طلب الشهادة، وأن يتيقنوا بأن لا قيمة لهذه الحياة الدنيوية المادية والحيوانية التي يعيشونها".

من خطاب الإمام إلى القادة الفلسطينيين في آذار 1979م.

أو كما قال (قده) أيضاً:

"إنني أتمنى أن يتشكل حزب، باسم حزب المستضعفين في جميع أنحاء الدنيا، وأن ينضم إليه جميع المستضعفين في العالم، لتزول المشاكل والعقبات التي تقف في طريق تقدمهم، وينتفض عبره المستضعفون لمواجهة المستكبرين والغزاة الشرقيين والغربيين، وبذلك سوف لا يسمحون بإدامة الظلم الاستكباري لهم، وينطلقون ليحققوا نداء الإسلام والوعد الذي قطعه لهم بوراثنهم الأرض وتحكيمهم فيها".

من توجيهات الإمام بتاريخ 1979/8/19م.

وكما قال أيضاً في بيان يوم القدس الصادر بتاريخ 1979/8/16م:

"إن يوم القدس يوم عالمي، لا يختص بالقدس، بل هو يوم مواجهة المستضعفين للمستكبرين، إنه يوم مواجهة الشعوب، التي رزحت طويلاً تحت نير الظلم الأمريكي وغير الأمريكي، للقوى العظمى. يوم يجب أن يستعد فيه المستضعفون لمواجهة المستكبرين، ولتمريغ

أنوفهم في الوحل. إنه يوم الفصل بين المنافقين والملتزمين.. الملتزمون يتخذون هذا اليوم - يوماً للقدس -، ويحرصون على تكريمه، أما المنافقون، الذين يرتبطون بالقوى العظمى من وراء الستار، ويعقدون أواصر الصداقة مع إسرائيل، فسيتجاهلون هذا اليوم، بل وسيصدون الشعوب عن الاحتفاء به.

إن يوم القدس، يوم يجب أن يتقرر فيه مصير الشعوب المستضعفة، وأن تعلن فيه الشعوب المستضعفة عن وجودها أمام المستكبرين.

لابد للشعوب المستضعفة أن تعتبر من الشعب الإيراني، الذي نهض ومرغ أنوف المستكبرين في التراب، عليهم أن ينهضوا معاً ويلقوا بجرثومة الفساد "إسرائيل" في مزابل التاريخ.

إن يوم القدس، يوم يجب أن نشد فيه العزم ونعمل بجد، ونسعى جميعاً لانتفاذ القدس، وانتفاذ اخوتنا في لبنان من الظلم الذي حل بهم.

إن يوم القدس، يوم ينبغي أن ننذر فيه القوى الكبرى برفع يدها عن المستضعفين وبالكف عن تدخلاتها، وأن ننذر فيه إسرائيل عدوة البشرية وعدوة الإنسان المستمرة في الاعتداء، وخاصة على اخوتنا في جنوب لبنان، وان على إسرائيل أن تعلم أن أسياها فقدوا مواقع أقدامهم في العالم وعليها أن تنتظر الزوال.

إن يوم القدس، هو يوم الإسلام، ويوم احياء الإسلام وتطبيق قوانينه في البلاد الإسلامية، وهو اليوم الذي لابد فيه من أن ترفرف راية الجمهورية الإسلامية في جميع البلدان.

يوم القدس، يوم يجب فيه على الشعوب أن تحذر حكوماتها التي ثبتت خيانتها، إنه اليوم الذي نتعرف فيه على الأشخاص، والأنظمة التي تتوافق مع المتأمرين والمخربين الدوليين، والتي تخالف الإسلام؛ فالذين لا يشاركون في تكريم هذا اليوم وأحيائه، هم مخالفون للإسلام وموافقون لإسرائيل، أما المشاركون في تكريم هذا اليوم وأحيائه، فهم ملتزمون وموافقون للإسلام ومخالفون لأعدائه، وعلى رأسهم أمريكا وإسرائيل؛ ففي يوم القدس يمتاز الحق عن الباطل، إنه يوم الفصل بين الحق والباطل، يوم انفضاح المتأمرين الموالين لإسرائيل.

نسأل الله تبارك وتعالى، أن ينفذ اخواننا في فلسطين وجنوب لبنان وفي شتى بقاع العالم، من ظلم المستكبرين والقراصنة الدوليين".

ومن هنا نفهم لماذا كان الإمام (قده) يركز على ضرب المثال بالثورة الإسلامية التي كان الشعب المسلم في إيران يزرع فيها تحت نير وظلم النظام الشاهنشاهي الرجعي والعميل، وذلك من أجل أن يعطي للشعوب مثلاً حياً من الواقع الذي يماثل ما يعيشونه في بلدانهم تحت سلطة أنظمتهم، وهذا المعنى رده الإمام أيضاً في الكثير من بياناته، بعد أن انتصرت الثورة، واستطاعت أن تقتلع حكم آل بهلوي، وترميه في مزابل التريخ، ليصبح أثراً بعد عين، مع أن ذلك النظام كان أقوى من كل الأنظمة المجاورة له من حيث الناحية العسكرية والقدرات التي كان يمتلكها في هذا المجال، وهذا كله كان من أجل أن تنتفض الشعوب على محتكري السلطة فيها، أولئك الذين ارتضوا لأنفسهم أن يكونوا خداماً عند القوى الاستكبارية، وجعلوا شعوبهم تزرع تحت سيطرة تلك القوى الكبرى التي لا يهتمها من الشعوب إلا أن تكون أسواقاً استهلاكية لمنتجات مصانعها العسكرية والغذائية والكماليات بكل أنواع الترف واللغو المتضمنة فيها، ومن كلماته في هذا الجانب هي ما يلي:

"نحن كافحنا القوى العظمى بقدراتنا الإيمانية، وقطعنا أيديهم عن بلادنا، وإذا كنتم تريدون التخلص من مشاكلكم، وأردتم تحرير بيت المقدس، وفلسطين، وإذا كنتم تريدون تحرير مصر، وسائر الدول العربية، عليكم أن تحرضوا الشعوب للنهوض".

(من خطاب الإمام إلى القادة الفلسطينيين - آذار 1979م).

ومن كلمات الإمام وبياناته في هذا المجال هو:

"إن الشعوب هي القادرة على حل مشاكلها، وقد رأيتُم مشكلتنا، التي كانت أصعب بكثير من مشاكل الآخرين، وكانت قدرة الشاه المخلوع الشيطانية، أكثر من سائر القدرات، كما أن القوى العظمى وجميع الحكومات في العالم، الإسلامي منه وغير الإسلامي، كانت تقف إلى جانبه وتسانده، وقد لاحظتم أيضاً، أن تغلبنا على مشكلتنا لم يكن في اللجوء إلى حكومة أو الاستعانة بقدرة أو قوة كبرى، بل إن شعبنا هو الذي حل المشكلة بنفسه، بعد أن غيرَ ما في نفسه.

لقد غيّر شعبنا ما في نفسه، حين تحول من الخوف إلى الشجاعة، ومن اليأس إلى الاطمئنان، ومن الاهتمام بذاته إلى الاهتمام بالله، ومن الفرقة إلى الاتحاد، وكان هذا التحول الشبيه بالمعجزة، سبباً في حل المشكلة الكبرى، التي اجمع العالم على استحالة حلها.

فلا تظنوا أن الشعب الإيراني كان يمتلك السلاح.. نعم كان يمتلك سلاحاً روحياً يتمثل بإيمانه بالله تعالى، وإيمانه برسالته، وتوكله على مصدر القوة، ووحدته كلمته.

أما ما ترونه من البنادق في أيدي الشعب، فانهما تمثل الغنائم التي حصلوا عليها من جلاوزة الشاه، وإلا فلم يكن للبندقية مكان، بل كان الإيمان وحده.

وكان أبناء الشعب أينما تذهبون، من العاصمة وحتى الحدود، يرددون كلمة واحدة. كان الجميع يردد عالياً، وحتى الأطفال الصغار، باننا نريد الإسلام.. نريد إقامة الجمهورية الإسلامية، كان هذا شعار طلبة الجامعات والمدارس والشباب والشيوخ والنساء والرجال.

شاءت إرادة الله سبحانه وتعالى، أن تبعث في جسد هذه الأمة ومضة أيقظتنا من السبات العميق، الذي أدخلتنا إليه القوى العظمى، ودفعتنا إلى الغفلة عن القضايا، التي كان من الواجب أن نهتم بها. لقد انحلت تلك المشكلة المستعصية، مشكلة الشاه وبطانته وجلاوزته، وكان الحل بيد أبناء الأمة أنفسهم، دون أن ترد من خارج الحدود بندقية واحدة، ودون أن تساعد الشعب حكومة أجنبية، بل بالعكس فقد اتخذت الحكومات موقف المعارض؛ فالعراق كان يخالفنا بشدة، والكويت كذلك، وتعرفون موقف مصر معنا جيداً، ومواقف سائر الحكومات معلوم ومكتشوف، ومع كل هذا فالشعب اقتحم الميدان بأيدي خالية، وحطم تلك السود التي ظن انها مستعصية.

يجب أن يكون عملنا على تعريف الشعوب - حيثما كانوا - بواجبهم المحدد، فإذا أردتم وأراد الآخرون، ورغب العلماء - جميع علماء البلاد الإسلامية - في إيجاد حل مشكلة الإسلام والدول الإسلامية، فإن عليهم أن يوقظوا أبناء الأمة، هذه الأمة التي ركزوا في ذهنها خلال سنوات طويلة الاعتقاد بعدم إمكان معارضة أمريكا أو الاتحاد السوفيتي، وما زالت هذه الدعاية راسخة في الأذهان.

يجب علينا أن نفهم الشعوب، بأن هذا الأمر ممكن، وخير دليل على ذلك ما حدث في إيران، لقد ملأوا أدمغتهم بأنه لا يمكن خوض الحرب مع تلك القوى، ولا يخفى أن هذه الأمور هم الذين قاموا بإشاعتها عن طريق عملائهم، داخل صفوف شعوب البلدان الإسلامية".

(من خطاب الإمام إلى المشاركين في مؤتمر القدس العالمي 1980/8/9).

انبعاث الثورة الإسلامية في الشعب الفلسطيني المسلم

إن الخطاب المتكرر من الإمام القائد(قده)، كان له اثر إيجابي كبير على مستوى نهضة الأمة ككل، وصارت الأنظمة ترتجف خوفاً من ذلك الخطاب الذي لم يعد أحد قادراً على منعه من الوصول إلى مسامع الشعوب الإسلامية التي تترشح تحت ظلم وجور حكامها المستعبدین والمسخرين للاستكبار العالمي، وكذلك إلى مسامع الشعوب الأخرى المستضعفة التي تعاني من نفس المشاكل التي تعيشها الشعوب الإسلامية، وشرعت الأنظمة بمحاصرة خطاب الإمام بقوة، على أمل منع تأثيره، خاصة بعد أن ثبت ذلك الخطاب قدرته على تحريك الشعوب، وبث روح الجهاد والتضحية فيها، وتقديم هذه الروح على أي شيء آخر، إلا أن ذلك كله لم يجد نفعاً، وبدأت الشعوب تعي الواقع المرير الذي تعيشه، وبدأت تتحرك لكي تعلن رفضها للواقع القائم، واحتارت الأنظمة في أمرها، وكيف السبيل للخروج من

هذا الحصار الكبير الذي وقعت فيه، والضيق في الهروب أمام شعوبها، ولهذا كانت محاربتهم للشعار الذي رفعه الإمام (قده) وهو "شعار يوم القدس"، ومنعوا شعوبهم من المشاركة في احيائه، خوفاً من أن يؤدي ذلك في المستقبل إلى تعرية تلك الأنظمة، ومن ثم إسقاطها على أيدي تلك الشعوب المستضعفة، لأن تلك الشعوب قد وجدت طريق الخلاص، وها هي ترى أمامها أنموذجاً عملياً يعيش في العالم، من دون أن تستطيع كل القوى في العالم أن تسقطه، أو أن تغير من توجهاته في العيش بعيداً عن سيطرة الغرب الكافر، أو الشرق الملحد الجاحد.

وبما أن الشعب الفلسطيني المسلم الذي يزرع تحت الاحتلال المباشر من جانب إسرائيل، كان المتضرر الأول والمعاني الأول، فقد استجاب لنداءات الإمام القائد [3]، وشرع بالعودة إلى جذوره الأصيلة التي كان قد تركها، كما تركتها الشعوب الإسلامية الأخرى، وعادت الحركة إلى بيوت الله من جديد لتمتلي بالمصلين الثانئين، وبالمؤمنين الذين صاروا واعين لمخاطر البقاء في الحالة التي هم عليها، وهي انتظار الفرج ممن يدعون الاصرار على تحرير القدس من براثن الاحتلال، مثال الملك الحسن الثاني، الذي يتزأس "لجنة تحرير القدس" وهو الذي استضاف في دولة إسلامية "المؤتمر اليهودي العالمي"، وهو الذي رتب اللقاءات الخيانية التي كانت تتم بين مسؤولين صهاينة ومسؤولين من الأنظمة العربية، من المنظمات الفلسطينية.

ان الشعب الفلسطينية! الذي كان ينظر بعين الأسى إلى كل ذلك، وجد في دعوة الإمام، سبيل الخلاص والتحرر، وبالتالي أخذت تذكي روح الثورة والجهاد، وإذا بانتفاضة الشعب المسلم في فلسطين تنطلق متكلة على الله لكي تبدأ مسيرة ذلك الشعب الذي كان قد فقد كل أمل بسبب الخيانة الكبرى التي ارتكبت في حقه، حتى من الذين يدعون العمل من أجله، وهي قيادته المتمثلة بـ"منظمة التحرير الفلسطينية" التي صارت كغيرها من الأنظمة، التي تلهث وراء صلح مذل مع الكيان الغاصب، على حساب الشعب المسلم في فلسطين. وبدأت ثورة الحجارة، التي لم يكن أحد يتوقع أن تستمر وتصمد أمام إسرائيل، إلا أن إرادة ذلك الشعب التي اكتسبها من اخوانه في إيران الإسلام ومن أبطال المقاومة الإسلامية في جنوب لبنان، والبقاع الغربي، أيام الاجتياح الإسرائيلي، كما اعترف بذلك بعض القادة الإسلاميين للانتفاضة، هي التي مكنت ثورة الحجارة من أن تقوى وتمتد وتطول فترتها، حتى وقعت أغلب الأنظمة اللاهثة وراء الصلح في حيرة من أمرها، وإذا بها تبدأ بالمانورات، التي استوحتها من أسياها المستكبرين، من أجل قطع الطريق على الانتفاضة الإسلامية المباركة لشعبنا المجاهد المضحي في الأرض المحتلة، وإذا بنظام الأردن الشهير بالعمالة تاريخياً، يقطع رواتب الموظفين في الضفة الغربية، ويعلن انفصال تلك المنطقة عن الأردن، وهو الذي لم يتخل عنها يوماً، إلا أن السعي الحثيث لاسقاط الانتفاضة التي عرت كل تلك الأنظمة الرجعية هي التي دفعته لذلك، وبأمر من أسياها وأولياء نعمته.

وها هي الانتفاضة مازالت مستمرة إلى الآن، على أمل أن تصل إلى أهدافها كاملاً بإذن الله تبارك وتعالى، مع أن الشهداء، صار عددهم كبيراً، ما عدا المجروحين، والمسجونين والمباعدن. ومع هذا كله، مازالت قوية، وتندفع بقوة أكبر كلما سقط شهيد، وهذا هو عين ما قاله الإمام (قده) عن الشعب المسلم في إيران، عندما تحول من الخوف إلى الشجاعة، وعندما غير ما في نفسه، غير الله ما بهم، وجعلهم أقوى من كل القوى التي تريد أن تقف في وجه انتصارهم الحتمي على أعداء الله والإسلام والإنسان.

واستمرار الانتفاضة هو التطبيق الحي لمقولة الإمام التي استقاها من شريعة جده رسول الله (ص)، التي تعتبر أن طلب الشهادة والسعي إليها هو طريق الخلاص للشعوب المستضعفة والمغلوبة على أمرها. وهذا ما قاله الإمام (قده) وهو: "يجب أن تعرف الشعوب، أن رمز انتصارها هو طلب الشهادة".

والحمد لله رب العالمين

[1] "إن إسرائيل هي وليدة التفكير والتبني المشترك للدول الاستعمارية، الشرقية منها والغربية، وقد وجدت بالأساس لاحتواء وقمع الشعوب الإسلامية في المنطقة، وهي اليوم تدعم وتسند من قبل جميع المستعمرين في العالم.

إن بريطانيا وأمريكا تحرضان إسرائيل، عن طريق دعمها عسكرياً وسياسياً وتزويدها بالأسلحة المدمرة، وتدفعانها إلى القيام بالاعتداءات المتوالية ضد العرب والمسلمين، واستمرار احتلالها لفلسطين وباقي الأراضي الإسلامية المغتصبة. وفي ذات الوقت يقوم الاتحاد السوفياتي، عبر امتناعه عن تزويد المسلمين بالأسلحة، واتباعه أساليب الخداع والخيانة، والتزامه بالسياسة التساومية، بترسيخ وضمان الوجود الإسرائيلي في فلسطين المحتلة.

لو كانت الأقطار الإسلامية والشعوب المسلمة، قد اعتمدت على الإسلام، بدلاً من اعتمادها على المعسكرين الشرقي والغربي، ووضعت تعاليم القرآن الكريم التحررية والمشعة بالنور نصب أعينها وطبقته في حياتها اليومية، لما أضحت اليوم أسيرة بيد الصهاينة المعتدين، ولما اربعتها طائرات الفانتوم الأمريكية، ولما خضعت للأساليب التساومية وألغيت المكر الشيطانية التي يتبعها الاتحاد السوفياتي.

إن ابتعاد الدول الإسلامية عن القرآن الكريم كان السبب في انتشار أجواء الخيبة والظلام بين الشعوب الإسلامية، ووضع مصير الشعوب المسلمة ودولهم رهناً للسياسة التساومية للاستعمارين الشرقي والغربي على حد سواء".

[من الرسالة الجوابية للإمام إلى الطلبة المسلمين المقيمين في أمريكا وأوروبا وكندا بتاريخ 9 صفر 1393هـ.ق].

(من المقابلة الصحافية للإمام مع وكالة أنباء الأسوشيتدبرس - بتاريخ 1978/1/7م).

((2)) "إن اتفاقية كمب ديفيد ونظائرها تعتبر مؤامرة تهدف إلى اضعاف الشرعية على الاعتداءات الإسرائيلية، وهي في النتيجة، غيرت الظروف والأجواء السائدة في المنطقة لصالح إسرائيل وسببت الأضرار للعرب والفلسطينيين، وأن هذه الحالة السائدة سوف لا تقبل من قبل شعوب المنطقة".

((3)) إن ملحمة البراءة من المشركين لم يمر عليها أكثر من عام، ومع ذلك فإن عطر الدماء الطاهرة لشهادتنا الأعزاء، قد ضمخ العالم كله، ونحن نرى آثارها في أقصى نقاط العالم، فملحمة شعب فلسطين، ليست وليدة الصدفة، ترى هل تتصور الدنيا من هم الذين أنشأوا هذه الملحمة؟ وإلى أي شعارات يستند شعب فلسطين حين يواجه دون رهبة وبأيدي خالية هجمات الصهاينة الوحشية؟ هل هو نداء الوطنية وحده الذي خلق من وجودهم عالماً من الصمود؟ أم من أشجار لاعبي السياسة الذين باعوا أنفسهم، تنهمر على الفلسطينيين أثمار الصمود وزيتون النور والأمل؟ كيف يكون ذلك وهؤلاء عاشوا سنوات طويلة في جوار الفلسطينيين وتعيشوا باسم الشعب الفلسطيني؟

لاشك أن نداء "الله أكبر" نداء شعبنا الذي دفع الشاه في إيران ودفع الغاصبين في بيت المقدس إلى اليأس، وهو تحقيق شعار البراءة نفسه الذي رفعه شعب فلسطين في تظاهرات الحج إلى جنب إخوانه وأخوته الإيرانيين حين نادى بصرخة تحرير القدس، ورفع شعار الموت لأمريكا وروسيا وإسرائيل، وسال دمه على مهد الشهادة نفسه الذي سالت عليه دماء أعزائنا.

أجل إن الفلسطيني الذي ضل طريقه وجدها في طريق براءتنا، ورأينا كيف انهارت في هذا الصراع الأسوار الحديدية، وكيف انتصر الدم على السيف، والإيمان على الكفر، والصرخة على الرصاصة، وكيف خاب حلم بني إسرائيل في الحكم من النيل إلى الفرات، وشع مرة أخرى كوكب فلسطين الذي من شجرتنا المباركة اللاشرقية واللاغربية.

[من بيان الإمام بمناسبة مرور عام على مجزرة مكة المكرمة 5 ذي الحجة 1408هـ].